النص الكامل

الطبعة القانونية الأولى والوحيدة باللغة العربية

أغاثا كريستي

خَطَرٌ في البَيْتِ الأخير



الأجيال
للترجمة والنشر
AJIAL Publishers

١٥

Agatha Christie

Agatha Christie



Peril at End House



هيركيول بوارو





خَطَرٌ في البَيْتِ الأخير

في المرة الأولى تعطلت كوابح سيارة الآنسة باكلي وكادت تفقد حياتها، وفي المرة الثانية نجت بأعجوبة حين هوت صخرة بالقرب منها، وفي المرة الثالثة كاد رأسها أن يتهشّم تحت لوحة ثقيلة.

بوارو يظهر في اللحظة المناسبة حينما تمر رصاصة بالقرب من رأس الآنسة باكلي وتخترق قبعتها، وعندئذ يقرر أن الفتاة بحاجة إلى حمايته.

لقد بدأ بوارو بحلّ لغز الجريمة قبل أن تقع، فهل سينجح في منع وقوعها؟

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبَر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيثُ انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفي مليون نسخة!

١٥ رقم هذه الرواية حسب ترتيب صدور الروايات بالإنكليزية

الناشر وصاحب الحق الحصري بالطبعة العربية في جميع أنحاء العالم



الأجيال للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

الفصل الأول
فندق ماجستيك

لا أعتقد أن في جنوب إنكلترا بلدة ساحلية أجمل من بلدة سينت لو. إنها معروفة باسم «ملكة الشواطئ»، وهي تذكّر الناظر إليها بالريفيرا، فلا يكاد سحر شاطئها يختلف في شيء عن سحر شاطئ فرنسا الجنوبي.

أعربتُ عن اعتقادي هذا لصديقي هيركيول بوارو فأجابني: هذا هو الوصف الذي يقوله الدليل الذي أعطونا إياه في السيارة بالأمس يا صديقي، ولذلك فالملاحظة ليست من بنات أفكارك.

- ولكن... ألست ترى ذلك؟

كان يبتسم لنفسه ولم يردّ على سؤالي على الفور، فطرحت سؤالي مرة أخرى، فقال: أرجو المعذرة يا هيستنغز، إذ إن أفكاري تجول بعيداً، في ذلك الجزء من العالم الذي ذكرته قبل قليل.

- جنوب فرنسا؟

- نعم؛ كنت أفكر في آخر شتاء قضيته هناك والأحداث التي وقعت عند ذلك.

تذكرت ذلك؛ فقد وقعت جريمة قتل في «القطار الأزرق» وقام بوارو بحل لغزها المحير بفطنته الأكيدة المعهودة. وقلت بأسى عميق: كم تمنيت لو كنت معك!

قال بوارو: وأنا أيضاً؛ إذ كان من شأن خبرتك أن تكون ثمينة جداً بالنسبة لي.

نظرت إليه بطرف عيني، فقد علمني طول العهد أن لا أثق بمديحه، ولكنه بدا جاداً تماماً. ولمَ لا؟ فلديّ خبرة طويلة جداً بالأساليب التي يستخدمها.

أكمل حالماً: إن ما افتقدته بشكل خاص هو خيالك الغني الواسع يا هيستنغز، فالمرء يحتاج إلى قدر معين من التسرية الخفيفة. إن خادمي الخاص الرائع جورج الذي أناقش معه أحياناً نقاطاً معينة لا يملك أي خيال يذكر.

بدت لي هذه الملاحظة بعيدة تماماً عن الموضوع. قلت: أخبرني يا بوارو، ألا تحدّثك نفسك بتجديد نشاطاتك؟ إن حياتك السلبية هذه...

قاطعني قائلاً: تعجبني كثيراً يا صديقي. الجلوس تحت الشمس. هل يوجد ما هو أكثر سحراً من هذا: أن تنزل عن القمة وأنت في أوج شهرتك؟ أيوجد أعظم من هذا الموقف؟ يشيرون إليّ بأصابعهم ويقولون: "هذا هو هيركيول بوارو، العظيم، الفريد. لم يوجد أحد مثله أبداً ولن يوجد". هذا جيد؛ إنني راضٍ تماماً. لا أريد أكثر من هذا، فأنا شخص متواضع.

ما كنت أنا لأستخدم كلمة «متواضع» هذه، وقد بدا لي أن غرور صديقي لم يتراجع مع مرور هذه السنين، ثم استند إلى ظهر كرسيّه يعبث بشاربه ويفتله مبتسماً ابتسامة الرضا.

كنا نجلس على إحدى المصاطب الأمامية في فندق ماجستيك، و هو أكبر فندق في سينت لو ويقوم على أرض متقدمة بارزة تطل على البحر. كانت حدائق الفندق تمتد أسفل منا وأشجار النخيل متناثرة فيها هنا وهناك، وكانت زرقة البحر داكنة جميلة جداً والسماء صافية والشمس تسطع بأفضل ما تكون عليه شمس آب (رغم أنها لا تسطع كثيراً في إنكلترا). وكنا نسمع طنين النحل القوي، ذلك الصوت الجميل... وعموماً لم أتخيل أجمل من ذلك المنظر.

كنا قد وصلنا في الليلة الماضية فقط، وكان ذلك هو أول صباح لنا حيث نعتزم الإقامة لمدة أسبوع. ولو قُدِّر لظروف الطقس هذه أن تستمر لفزنا بعطلة رائعة مثالية حقاً.

التقطت صحيفة الصباح التي وقعت من يدي وتابعت قراءتي لأخبار الصباح. لم يكن الوضع السياسي يبعث على الرضا كما أنه لم يكن مثيراً، فقد انتشرت أنباء عن مشكلات في الصين، وكان في الصحيفة خبر طويل يسرد إشاعات عن عملية احتيال في المدينة، ولكن لم يكن فيها -إجمالاً- أي أخبار عن حدث مثير جداً.

قلت وأنا أقلب الصفحة: غريب أمر مرض حمّى الببغاء هذا.

- غريب جداً.

- وقعت حادثتا وفاة جديدتان في ليدز.

- أمر يبعث على الأسف.

قلبت الصفحة وقلت: لم يُنشَر أي خبر جديد -بعد- عن ذلك الرحالة سيتون في رحلته حول العالم. هؤلاء الأشخاص في غاية الجرأة؛ لا بد أن مركبته البرمائية تلك، الباتروس، اختراع عظيم. ما أسوأ أن يكون قد اتجه غرباً، مع أنهم لم يفقدوا الأمل في العثور عليه بعد. ربما نزل في إحدى جزر المحيط الهادي.

سألني بوارو بمرح: سكان جزر سليمان ما زالوا من أكلة لحوم البشر، أليس كذلك؟

- لا بد أنه شخص رائع. إنه أمر يجعل الإنكليزي يشعر بالفخر لأنه إنكليزي.

قال بوارو: لعل في ذلك عزاء عن خسائركم في ويمبلدون.

- إنني، أنا لم أقصد...

قطع صاحبي عليّ محاولة اعتذاري بلباقة قائلاً: أما أنا فلست برمائياً مثل مركبة الكابتن المسكين سيتون، ولكني عالمي التفكير، وقد كنت أكنّ للإنكليز دوماً مشاعر الإعجاب الكبير كما تعلم. إنني معجب -مثلاً- بقراءتهم الصحيفة قراءة شاملة معمقة.

انتقل انتباهي إلى الأخبار السياسية، فقلت ضاحكاً: يبدو أنهم يثيرون المتاعب لوزير الداخلية.

- رجل مسكين، لديه مشكلات كثيرة. آه، نعم؛ كثيرة بحيث جعلته يطلب المساعدة من جهات مستبعدة جداً.

حدّقت إليه، فأخرج بوارو من جيبه وهو يبتسم حزمةً من الرسائل التي تلقاها صباح اليوم ملفوفةً برباط من مطاط، ثم اختار من تلك الحزمة رسالة دفعها إليّ قائلاً: لقد فاتنا استلامها بالأمس دون شك.

قرأت الرسالة بشعور ممتع من الإثارة، ثم صحت: ولكن يا بوارو... إن فيها مديحاً كبيراً.

- هل تعتقد هذا يا صديقي؟

- إنه يتحدث عن قدراتك بعبارات حماسية.

قال بوارو وهو يبعد بصره كنوع من التواضع: إنه على حق.

- وهو يرجوك أن تحقق له في هذه المسألة، يعتبرها معروفاً شخصياً تقدمه له.

- صحيح، ولا حاجة لأن تعيد عليّ ما في هذه الرسالة؛ فأنت تعرف أنني قرأت الرسالة بنفسي يا صديقي هيستنغز.

صحت: إنه أمر سيءٌ جداً؛ إن هذا سيضع حداً لعطلتنا.

- لا، لا. اهدأ، إنها مسألة غير واردة.

- لكن وزير الداخلية يقول إنها مسألة عاجلة.

- قد يكون على صواب... وقد لا يكون. هؤلاء السياسيون ينفعلون بسهولة. لقد شهدت بنفسي في مجلس النواب في باريس...

- نعم، نعم. ولكن علينا أن نقوم ببعض الترتيبات يا بوارو بالتأكيد. لقد تحرك القطار السريع إلى لندن، فهو يغادر في الساعة الثانية عشرة. القطار التالي...

- أرجوك اهدأ يا هيستنغز! أنت دائماً منفعلٌ وغاضب. لن نذهب إلى لندن اليوم... ولا حتى غداً.

- ولكن هذا الاستدعاء...

- إنه لا يخصني. أنا لست واحداً من مِلاك شرطتكم يا هيستنغز. إنه يطلب مني تولي قضية باعتباري محققاً خاصاً، وأنا أرفض.

- ترفض؟

- بالتأكيد. سأكتب له بكل أدب وأبلّغه باعتذاري وأسفي وأبيّن له أنني شخص بائس حزين. ماذا دهاك؟ أنا تقاعدت، لقد انتهيت.

هتفت بحرارة: أنت لم تنته.

ربت بوارو على ركبتي وقال: إن من يتكلم الآن هو الصديق الطيب، الصديق المخلص. كما أن لديك أسبابك أيضاً، فخلاياك الرمادية ما زالت تعمل، النظام والمنهجية... كلها أمور ما تزال موجودة لديك. ولكني عندما تقاعدت يا صديقي فقد تقاعدت. لقد انتهى الأمر! لست الممثل المحبوب الذي يودع العالم عشرات المرات، إنني أقول بكل رحابة صدر: دع الشباب يأخذون فرصتهم، فقد يعملون شيئاً مشرفاً. صحيح أنني أشك في ذلك، ولكنهم قد يفعلون. على أية حال سيقومون بالواجب بخصوص هذه المسألة

التي ستكون متعبة بلا شك، أعني مسألة وزير الداخلية.

- ولكن أين تذهب بهذه الإطراءات يا بوارو؟

- أنا؟ أنا أعقل من أن أتأثر بالإطراءات. إن وزير الداخلية يدرك -كرجل واعٍ- أنه إذا استطاع الحصول على خدماتي فإن كل شيء سينتهي نهايةً ناجحة. ولكنه غير محظوظ، فقد حلّ هيركيول بوارو قضيته الأخيرة واكتفى.

نظرت إليه باستغراب. لقد استنكرت في أعماق نفسي عناده، فحَلُّ مثل هذه القضية يمكن أن يضيف شهرة أوسع إلى سمعته العالمية الواسعة. ومع ذلك ما كنت أملك إلا الإعجاب بموقفه الصامد. وفجأة خطرت ببالي فكرة، فابتسمت وقلت: لطالما تحيرني جرأتك. إن مثل هذا الطلب الملحّ لا بد أن يغري من هو مثلك.

- مستحيل أن يستطيع أحد تغيير قرار هيركيول بوارو.

- مستحيل يا بوارو؟

- إنك على حق يا صديقي؛ لا ينبغي للمرء أن يستخدم هذه الكلمة. الحق أنني لا أقول إنني لن أتولى التحقيق في القضية حتى لو أطلقت رصاصة قرب رأسي؛ فأنا بشر في نهاية المطاف.

ابتسمت، وفجأة وقعت حصاة صغيرة على المصطبة بجانبنا، فانحنى بوارو ورفع الحصاة عن الأرض وهو يكمل قائلاً: نعم، إنني بشر. يكون الواحد مثل الكلب النائم، هادئاً سعيداً... ولكن

الكلب النائم يمكن إيقاظه. لديكم مثل إنكليزي بهذا المعنى، أليس كذلك؟

- فعلاً، وهو يقول: «إذا وجدت صباح غد خنجراً مغروساً قرب وسادتك فاجعل المجرم الذي وضعه هناك يحذر».

أومأ برأسه ولكن ذهنه كان شارداً. وفجأة، ولشدة دهشتي، نهض ونزل الدرجتين الموصلتين من المصطبة إلى الحديقة، وفيما هو ينزل ظهرت على مرأى منا فتاةٌ تسرع باتجاهنا.

كنت قد سجلت عنها انطباعاً بأنها فتاة جميلة دون شك عندما تحوّل انتباهي إلى بوارو الذي لم يكن ينظر أمامه فتعثر بحذر ظاهر بإحدى الأشجار وسقط على الأرض سقطة قوية، وجاءت وقعته قرب الفتاة فأسرعنا، أنا وهي، لمساعدته على النهوض من عثرته. وكان انتباهي منصرفاً إلى صديقي بالطبع، ولكني تأملت الفتاة بشعرها الأسود وعينيها الواسعتين الزرقاوين.

قال بوارو متلعثماً: أرجو المعذرة. أنت في غاية اللطف يا آنسة، أنا آسف جداً. آه، قدمي تؤلمني كثيراً. لا، لا، ليس فيها شيء. التواء في الكاحل، هذا كل ما في الأمر، كل شيء سيعود إلى حاله بعد قليل. ولكن لو تساعدني يا هيستنغز... أنت والآنسة، بينكما، إن تلطفت عليّ بذلك. إنني محرج من طلب هذا الأمر منها.

وسرعان ما أوصلنا بوارو (أنا من جانب والفتاة من الجانب الآخر) وأجلسناه على كرسي على المصطبة، ثم اقترحت عليه

إحضار طبيب، لكن صديقي رفض ذلك بحدة قائلاً: قلت لك إنه مجرد التواء في الكاحل، إنه مؤلم الآن ولكن سرعان ما يزول هذا الألم. سأنسى كل شيء بعد قليل. ألف شكر لك يا آنسة، لقد كنت لطيفة جداً معي. اجلسي من فضلك.

أخذت الفتاة كرسياً وجلست، ثم قالت: لا يوجد ما يستحق الشكر، ولكني أتمنى لو أنك تُحضر طبيباً لفحصك.

- أؤكد لك أنها إصابة تافهة يا آنسة، وقد زال الألم لفرط سعادتي بانضمامك إلينا.

ضحكت الفتاة وقالت: هذا رائع.

قلت: ما رأيكم بعصير؟ إنه الوقت المناسب.

ترددت الفتاة وهي تقول: إنه... أشكرك كثيراً.

- برتقال؟

- نعم، من فضلك؛ برتقال.

ذهبت لطلب العصير، ولدى عودتي وجدت بوارو والفتاة مشغولَين بحديث حميم. قال بوارو: تصور يا هيستنغز، ذلك البيت القائم هناك، في الطرف بين الصخور المطلة على البحر... البيت الذي أثار إعجابنا كثيراً، إنه بيت هذه الآنسة.

قلت رغم أنني لم أتذكر أنني أبديت أي إعجاب: حقاً؟

والواقع أنني لم أكد ألاحظ وجود البيت. ثم أضفت قائلاً: إنه يبدو غريباً ومَهيباً في ارتفاعه هناك بمفرده بعيداً عن العمران.

قالت الفتاة: إنه يسمّى «البيت الأخير». أنا أحبه، لكنه بيت قديم متداع، بل إنه على وشك الانهيار.

- هل أنت آخر من بقي من عائلة عريقة يا آنسة؟

- آه، إن عائلة باكلي التي أنتمي إليها ليست عائلة عريقة مهمة، ولكنها سكنت البيت منذ مئتي سنة أو ثلاثمئة سنة. وقد توفي أخي قبل ثلاث سنوات، ولذلك فأنا آخر من بقي من العائلة.

- هذا محزن. وهل تعيشين هناك بمفردك يا آنسة؟

- آه، إنني أسافر كثيراً، وعندما أعود إلى البيت يكون فيه -عادة- جمع بهيج ممن يجيئون ويذهبون.

- إنه أسلوب عصري جداً. كنت أتخيلك في عِزبة مظلمة غامضة مسكونة بلعنة العائلة.

- يا لك من صاحب خيال واسع! لا، إنه ليس مسكوناً بالأشباح، ولو كان مسكوناً فإن أشباحه من الفرع الذي يحب عمل الخير. لقد نجوت من الموت المفاجئ ثلاث مرات في ثلاثة أيام، ولذلك فلا بد أن في حياتي قوى سحرية تحفظها.

انتصب بوارو في جلسته يَقِظاً وقال: نجوت من الموت؟ يبدو ذلك مثيراً يا آنسة.

- آه، لم يكن ذلك مثيراً جداً... مجرد حوادث.

ثم أزاحت رأسها بحدة عندما مرّ زنبور بجانبها وقالت: تباً لهذه الزنابير! لا بد أن لها عشاً قريباً من هنا.

- النحل والزنابير... ألا تحبينها يا آنسة؟ هل لسعك واحد منها؟

- لا، لكني أكره مرورها أمام وجهي.

قال بوارو: «في قبعته نحلة»... أليس هذا ما تقولونه -معشرَ الإنكليز- كنايةً عن تعلق المرء بهاجس معين؟

وصل العصير في تلك اللحظة فبدأنا نشرب ونتجاذب أطراف الحديث. وقالت الآنسة باكلي: إنهم ينتظرونني في الفندق ولعلّهم قد بدؤوا يتساءلون عمّا أخرني.

تنحنح بوارو ووضع كأس الشراب ثم قال: آهٍ على كوب من الشكلاتة الثقيلة الجيدة، لكنهم لا يصنعونها في إنكلترا. ومع ذلك فإن لديكم، أنتم الإنكليز، بعض العادات الجميلة جداً. الفتيات يضعن قبعاتهن وينزعنَها بطريقة جميلة وسهلة.

حدقت الفتاة إليه وقالت: ماذا تقصد؟ ولماذا لا يفعلن ذلك؟

- إنك تسألين هذا السؤال لأنك مازلت صغيرة يا آنسة، ولكن بالنسبة لي فإن الأمر الطبيعي هو عمل تسريحة يكون الشعر فيها عالياً وثابتاً... هكذا. وتكون القبعة مثبتة بدبابيس كثيرة. ثم أشار بيده في الهواء وقال: ولكن ذلك غير مريح أبداً.

- آه، أظن ذلك.

نزعت الآنسة باكلي عن رأسها القبعة البسيطة ذات الحافة

العريضة التي كانت ترتديها وألقتها إلى جانبها قائلة: "والآن نفعل هذه"، ثم ضحكت.

قال بوارو وهو ينحني لها قليلاً: وهو تصرف معقول وجميل.

نظرتُ إليها باهتمام. كان شعرها الأسود منفوشاً مما أضفى عليها منظر جنيّة فاتنة. كان في مظهرها كله شيء فاتن: الوجه الصغير المفعم بالحيوية بشكل بنفسجة، العينان الزرقاوان الواسعتان، وشيء آخر... شيء آسر جذاب. ماذا كان ذلك؟

كانت المصطبة التي نجلس عليها مهجورةً فلا تُستخدم إلا قليلاً، أما المصطبة الرئيسية حيث يجلس معظم الناس فقد كانت وراء الزاوية، في مكان يشكّل حافة المنحدر الصخري حيث البحر تحته مباشرة. ومن خلف تلك الزاوية ظهر في تلك اللحظة رجل أحمر الوجه يمشي كمن يتدحرج دحرجة ويداه نصف منقبضتين على جانبيه، دلّ مظهره على المرح وراحة البال، وقد بدا بحاراً نموذجياً.

كان يقول بصوت يصل إلى مسامعنا بسهولة: "لا أدري إلى أين ذهبت الفتاة". ثم نادى: مادج... مادج.

وقفت الآنسة باكلي وقالت: "كنت أعرف أنهم سيقلقون لتأخري". ثم صاحت: أتابوي، جورج... أنا هنا.

- لقد نفد صبر فريدي من انتظارك. هيا يا فتاة.

ألقى نظرة فضول واضحة على بوارو الذي كان يختلف تماماً

-دون شك- عن معظم أصدقاء مادج. وقامت الفتاة بالتعريف: هذا هو القبطان تشالنجر. جورج، أقدّم لك...

ولكن ما أدهشني أن بوارو لم يزوّدها باسمه الذي صمت بانتظاره، بل نهض وانحنى في تحية استعراضية وهو يقول: من البحرية الإنكليزية؟ إنني أكنّ احتراماً كبيراً للبحرية الإنكليزية.

لم تكن هذه العبارة من العبارات التي يمكن لرجل إنكليزي أن يرحب بها مسروراً، ولذلك احمرّ وجه القبطان، فتولت مادج باكلي زمام الموقف قائلة: هيا يا جورج، لا تحدق هكذا. هيا نبحث عن فريدي وجيم.

ابتسمت لبوارو وقالت: "أشكرك على العصير، وأرجو أن يكون كاحلك بخير". ثم حيّتني بإيماءة من رأسها وهي تدس يدها في ذراع البحار، واختفيا معاً وراء الزاوية.

قال بوارو وهو مستغرق في التفكير: إذن فهذا واحد من أصدقاء الآنسة، واحد من «جمعها البهيج» كما قالت. ما رأيك فيه؟ أعطني حكمك الخبير فيه يا هيستنغز، هل هو شخص طيب؟

توقفت لحظة في محاولة مني لتقرير ما الذي كان يعنيه بوارو بكلمة «شخص طيب»، ثم أعطيته موافقة مرتابة: لا بأس به كما يبدو، بقدر ما يمكن للمرء أن يحكم من مجرد نظرة خاطفة.

قال بوارو: لست واثقاً.

كانت الفتاة قد تركت قبعتها وراءها، وانحنى بوارو فتناول

القبعة وأخذ يديرها حول إصبعه قائلاً وهو شارد الذهن: هل يشعر بأي وِدّ تجاهها؟ ما رأيك يا هيستنغز؟

- يا عزيزي بوارو... كيف لي أن أعرف؟ هات، أعطني تلك القبعة فالفتاة تريدها بلا شك. سآخذها إليها.

لم يأبه بوارو لطلبي، بل استمر في تدوير القبعة على إصبعه ببطء وهو يقول: دعني أديرها قليلاً، فذلك يسليني.

- أمرُك غريب يا بوارو.

- نعم يا صديقي، لقد شِخْتُ وبِتُّ كالطفل، أليس كذلك؟

كانت عبارته تعبر بدقة عما كنت أفكر فيه إلى الحد الذي جعلني أرتبك قليلاً لتعبيره صراحةً عمّا يدور بخاطري. وضحك بوارو ضحكة صغيرة، ثم وضع إصبعه على جانب أنفه وهو يميل إلى الأمام ويقول: ولكن لا؛ لست معتوهاً تماماً كما تعتقد! سوف نعيد القبعة، بالتأكيد... ولكن فيما بعد! سنعيدها إلى «البيت الأخير»، وبذلك تتاح لنا فرصة رؤية الآنسة الفاتنة مرة أخرى.

صحت: بوارو، هل وقعت في الحب؟!

- إنها فتاة جميلة، أليس كذلك؟

- حسناً، لقد رأيت بنفسك فلماذا تسألني؟

- لأنني لا أستطيع الحكم للأسف؛ فكل صغير في السن أصبح عندي في هذه الأيام جميلاً. الشباب، الشباب... إنها مأساة عمري وسنّي. أما أنت فإنني ألجأ إليك للمساعدة. حكمك ليس

عصرياً بالطبع لأنك عشت في الأرجنتين مدة طويلة، فأنت تعجب بالشكل الذي كانت موضته سائدة قبل خمس سنوات، لكنك أكثر حداثة مني على أي حال. إنها جميلة وهي ذات جاذبية خاصة، أليس كذلك؟

- بلى، أظن ذلك. ولكن لماذا أنت مهتم بالفتاة هكذا؟

- وهل أنا كذلك؟

- انظر إلى ما كنت تقوله قبل قليل.

- إنك تسيء فهمي يا صديقي. قد أكون مهتماً بالفتاة... نعم، ولكني أكثر اهتماماً بقبعتها.

حدّقتُ إليه، ولكنه بدا جاداً تماماً. ثم أومأ لي برأسه وقال: نعم يا هيستنغز، هذه القبعة بالتحديد.

رفعها في وجهي وأكمل يقول: هل ترى سبب اهتمامي؟

قلت محتاراً: إنها قبعة جميلة، لكنها عادية تماماً. كثير من الفتيات يضعن قبعات مثلها.

- ليس مثل هذه القبعة.

نظرت إليها بإمعان أكثر، فقال: هل ترى يا هيستنغز؟

- قبعة عادية تماماً، طرازها جميل.

- لم أطلب منك وصف القبعة. واضح أنك لا ترى! لا أصدّق أيها المسكين هيستنغز كيف أنك لا تكاد ترى أبداً! إن ذلك يصيبني بالدهشة كل مرة. ولكن انتبه يا عزيزي المغفل، ليس ضرورياً أن

تستخدم خلايا دماغك الرمادية، فالعينان وحدهما تكفيان. انظر، انظر.

وأخيراً رأيت ما كان يحاول لفت انتباهي إليه. كانت القبعة تدور على إصبعه، وكان ذلك الإصبع يسد فتحة في حافتها. عندما عرف أنني أدركت ما يريد قوله أخرج إصبعه من الفتحة ومدّ لي القبعة. كانت فتحة صغيرة ودائرية تماماً ولم أستطع تصور الهدف منها... إن كان لها هدف.

- هل لاحظت الطريقة التي جفلت بها الآنسة مادج عندما مرت نحلة من أمامها؟ «النحلة في القبعة»... بل الفتحة في القبعة!

- لكن النحلة لا يمكنها أن تحدث ثقباً كهذا.

- بالضبط يا هيستنغز؛ يا لها من فطنة! نعم، لا يمكنها ذلك، ولكن يمكن لرصاصة أن تفعل ذلك يا عزيزي.

- رصاصة؟!

- أجل؛ رصاصة مثل هذه.

مدّ يده، وكان في راحتها شيء صغير.

- رصاصة فارغة يا صديقي. إنها هي التي سقطت على المصطبة قبل قليل عندما كنا نتحدث، طلقة فارغة.

- تقصد...

- أقصد أن الرصاصة لو كانت أقرب بوصةً واحدةً لما رأيت تلك الفتحة في القبعة بل في الرأس. هل عرفت الآن لماذا كنت

مهتماً يا هيستنغز؟ لقد كنتَ محقاً يا صديقي عندما نهيتني عن استخدام كلمة «مستحيل». نعم، إننا بشر! آه، ولكن ذلك القاتل المجهول أخطأ، ارتكب خطأً جسيماً عندما أطلق الرصاص على ضحيته على بعد بضعة أمتار من هيركيول بوارو! تلك -حقاً- صدفة مشؤومة بالنسبة له. هل عرفت الآن لماذا يجب علينا دخول «البيت الأخير» والاتصال بالآنسة؟ ثلاث مرات تنجو فيها بأعجوبة من الموت في ثلاثة أيام... هذا ما قالته هي. يجب أن نتصرف بسرعة يا هيستنغز فالخطر وشيكٌ ومحدق.

* * *

الفصل الثاني

البيت الأخير

قلت: بوارو، كنت أفكر.

- تلك ممارسة رائعة يا صديقي، فتابعها.

كنا نجلس متقابلَين على طاولة الغداء قرب النافذة، ومضيت قائلاً: لا بد أن هذه الرصاصة قد أطلقت من مكان قريب جداً منا، ومع ذلك فلم نسمعها.

- وأنت تعتقد أنه في الجو الهادئ الخالي من أي أصوات عدا أصوات الأمواج الهادئة كان علينا أن نسمع صوت الرصاصة، أليس كذلك؟

- إنه أمر غريب.

- لا، ليس غريباً. بعض الأصوات تعتاد عليها بسرعة بحيث لا تكاد تلحظها أو تنتبه لوجودها. طوال هذا الصباح -يا صديقي- كانت القوارب السريعة تقوم برحلات وجولات في الخليج، وقد

شكوتَ في البداية من إزعاجها، ثم سرعان ما اعتدت عليها حتى لم تعد تلحظها، ولكن كان بالإمكان إطلاق الرصاص من بندقية آلية دون أن تلحظ الصوت عند مرور تلك القوارب.

- نعم، هذا صحيح.

ثم تمتم بوارو: آه، أنظر؛ الآنسة وأصدقاؤها. يبدو أنهم جاؤوا للغداء هنا، ولذلك يجب أن أعيد إليها قبعتها، ولكن ذلك لن يلغي زيارتنا لها، فقضية هذه الفتاة من الخطورة بحيث تستحق زيارة بدافع قضيتها وحدها ودون مبررات أخرى.

قفز عن مقعده بخفة واجتاز الغرفة وقدّم القبعة وهو ينحني بينما كانت الآنسة باكلي وأصدقاؤها يأخذون أماكنهم حول الطاولة.

كانوا مجموعة من أربعة أشخاص، مادج باكلي، والقبطان تشالنجر، ورجل آخر وفتاة أخرى، ولم نستطع رؤيتهم بوضوح من حيث نجلس. كانت ضحكة ضابط البحرية تدوي من وقت لآخر، وبدا لي شخصاً بسيطاً محبوباً، وسرعان ما أعجبت به.

كان صديقي صامتاً شارد الذهن في أثناء تناول الغداء. وقد قضم رغيفه ونطق ببعض الكلمات الغريبة يُحدِّث بها نفسه وقام بتعديل كل شيء على الطاولة. وحاولت الحديث، ولكن سرعان ما آثرت الصمت إذ لم أجد منه تشجيعاً.

استمر جالساً على الطاولة فترة طويلة بعد الانتهاء من وجبته، ولكن حالما غادرَت المجموعةُ الأخرى الغرفةَ نهض صديقي

واقفاً. وعندما بدؤوا بالجلوس حول الطاولة في الردهة كان بوارو قد تحرك نحوهم بمشيته العسكرية المعهودة وخاطب مادج مباشرة: عفواً يا آنسة، هل لي بكلمة واحدة صغيرة معك.

عبست الفتاة، واستطعت فهم مشاعرها تماماً؛ لعلها خشيت أن يتحول هذا الأجنبي الغريب إلى مصدر إزعاج. لم أستطع إلا التعاطف معها وقد أدركت خشيتها تلك. وابتعدتُ عدة خطوات عن المجموعة بشيء من الامتعاض، وسرعان ما رأيت على وجهها علامة الدهشة من الكلمات السريعة الخافتة التي كان ينطق بها بوارو.

وفي غضون ذلك انتابني شعور غريب بالحرج وعدم الارتياح، فجاء القبطان تشالنجر لإنقاذي بلباقة وتبادل معي بعض العبارات المعتادة. بدأ كل منا يفهم الآخر وشعرنا بميل متبادل، وتخيلت أنني أقرب إليه من الرجل الذي كان يتناول الغداء معه. وقد سنحت لي الفرصة الآن لمراقبة الرجل الآخر؛ كان شاباً طويل القامة أبيض البشرة جميل الشكل ذا أنف مكتنز ونظرات واثقة، وكان متكبراً في سلوكه مع إطالة في أصوات الأحرف التي ينطقها. وقد كرهت فيه -على وجه الخصوص- شيئاً من الميوعة وآثار النعمة فيه.

ثم نظرت إلى المرأة التي كانت تجلس مقابلي تماماً على كرسي كبير وقد خلعت قبعتها لتوها. كانت من النوع غير العادي، ولعلّ أفضل وصف لها هو «الفتاة السئمة». كانت شقراء حتى لا تكاد تميز لشعرها لوناً، وقد فرّقت شعرها من الوسط بحيث ينزل فوق أذنيها وصولاً إلى عقدة على الرقبة. كان وجهها شاحباً

هزيلاً، ولكنه كان -مع ذلك- جذاباً على نحو غريب. كان لعينيها لون رمادي فاتح جداً وبؤبؤان واسعان، وأوحى شكلها بشيء غريب من الحياد والانعزال.

حدقت بي ملياً، وفجأة تكلمت قائلة: تفضل اجلس، ريثما ينتهي صديقك من حديثه مع مادج.

كانت ذات صوت مصطنع واهن رغم جمال صداه المتردد، مما كان يضفي عليه جاذبية غريبة. وأحسب أنها بدت لي أكثر من قابلتهم في حياتي تعباً وسأماً، وأعني بذلك تعب العقل لا تعب الجسم، وكأنها وجدت كل ما في العالم فارغاً لا قيمة له.

شرحتُ بعد أن قبلتُ عرضها: لقد تلطفت الآنسة باكلي بمساعدة صديقي عندما التوى كاحلهُ هذا الصباح.

- هذا ما قالته مادج.

تفحصتني عيناها بنظرات محايدة ثم أضافت تقول: هل في كاحله أي شيء الآن؟

أحسست أن وجهي يحمرّ وقلت: كان مجرد التواء بسيط.

- آه، جيد. إنني سعيدة لمعرفة أن مادج لم تختلق هذه الرواية؛ فهي أكبر كاذبة خُلِقَت على وجه الأرض. مدهشة... إنها موهبة.

لم أعرف ما أقوله، وبدا أن ارتباكي قد سرّها، فأكملت تقول: إنها واحدة من أقدم صديقاتي، وأعتقد دائماً أن الإخلاص فضيلة

مملّة مزعجة يمارسها الإسكتلنديون أكثر من غيرهم، مثلها في ذلك مثل فضيلة الاقتصاد ومراعاة العطل الأسبوعية... ولكن مادج كاذبة، أليس كذلك يا جيم؟ خذ مثلا قصتها المدهشة تلك بخصوص كوابح السيارة... بينما يؤكد جيم بأن السيارة سليمة وليس في كوابحها أي شيء أبداً.

قال الرجل الأشقر بصوت هادئ فخم: لدي بعض الخبرة في السيارات.

ثم أدار رأسه قليلاً حيث وقفت في الخارج بين السيارات سيارة طويلة حمراء. بدت أطول السيارات وأكثرَها حمرة، وكان غطاء محركها مجنحاً لامعاً. كانت سيارة فخمة جداً.

سألتُهُ فجأة: هل تلك سيارتك؟

أومأ برأسه وقال: نعم.

في تلك اللحظة انضمّ بوارو إلينا فنهضتُ، فأمسكني من ذراعي وانحنى للمجموعة بالتحية وسحبني بعيداً بسرعة قائلاً: لقد رتبنا الأمر يا صديقي، سنزور الآنسة في «البيت الأخير» في السادسة والنصف. ستكون قد عادت وقتها من جولة بالسيارة. نعم، نعم، ستعود وقتها بالتأكيد... سليمةً معافاة.

كان القلق بادياً على وجهه ونبرة صوته تدل على قلقه. سألته: ماذا قلتَ لها؟

- طلبت منها أن تتلطف علي بمقابلة في أسرع وقت ممكن.

ترددت بعض الشيء، وهو أمر طبيعي. أستطيع أن أقرأ ما يدور في ذهنها من أفكار، كانت تتساءل: "من يكون هذا الرجل الضئيل؟ هل هو مخرج أفلام؟". لو كان بوسعها رفض طلبي لرفضت، ولكن الرفض صعب؛ فطلب كهذا يأتي فجأة تسهل الموافقة عليه. لقد اعترفت أنها ستعود في الساعة السادسة والنصف.

قلت له بأنه لا بأس بذلك إذن، لكن ملاحظتي قوبلت باستحسان قليل. والواقع أن بوارو كان عصبياً لا يكاد يهدأ؛ كان يمشي في غرفة جلوسنا طوال فترة بعد الظهر يتمتم مع نفسه، وكان يعيد ترتيب التحف ومتاع الزينة دون توقف. وعندما تكلمت معه لوح بيديه وهزّ رأسه رافضاً الحديث.

وفي النهاية انطلقنا من الفندق في الساعة السادسة تقريباً.

قلت ونحن ننزل عتبات المصطبة: يبدو أمراً لا يصدق؛ محاولة إطلاق النار على شخص في حديقة فندق... لا يقدم على فعل ذلك إلا مجنون.

- أخالفك الرأي؛ فإذا توفر شرط واحد فسيكون عملاً آمناً إلى حد بعيد. أولاً: الحديقة مهجورة ولا يوجد فيها أحد، والناس الذين يأتون إلى الفنادق يتصرفون كقطيع الغنم، والعادة قد جرت على الجلوس على المصطبة المطلة على الخليج... رأيتُ الجميع يجلسون هناك. أنا فقط الرجل المبدع المبتكِر الذي جلس على المصطبة المطلة على الحديقة. ومع ذلك لا أرى أي شيء، فهناك الكثير من السواتر والأشياء التي تحجب الرؤية، فأنت ترى الأشجار... مجموعات من أشجار النخيل والشجيرات المزهرة،

بوسع أي شخص إخفاء نفسه وراءها دون أن يلحظه أحد بينما هو ينتظر الآنسة لتمر من ذلك الطريق، فالطريق الملتوي القادم من «البيت الأخير» يمتد مسافة أطول من هذا الطريق المختصر، والآنسة مادج باكلي من النوع المتأخر دائماً الذي يأخذ الطريق المختصر.

- ومع ذلك، كانت المجازفة كبيرة. كان يمكن أن يُرى، ولا يمكنك أن تجعل إطلاق النار يبدو كأنه حادث عرضي.

- نعم، ليس كحادث عرَضي.

- ماذا تقصد؟

- لا شيء، مجرد فكرة صغيرة، قد أكون مصيباً وقد لا أكون. لنتركها جانباً في الوقت الحالي، هناك ما ذكرته قبل قليل... شرط ضروري.

- ما هو؟

- يمكنك أن تخبرني بالتأكيد يا هيستنغز.

- لا أريد أن أحرمك من متعة إظهار ذكائك على حسابي.

- آه، إنها السخرية، التهكم! حسناً، إن ما يشد الانتباه هو أن الدافع يمكن أن يكون واضحاً لنا، لأنه إن كان واضحاً فإن المجازفة ستكون عندها كبيرة جداً حقاً بحيث يصعب دخولها! سيقول الناس: "ترى لو كان فلان فأين كان فلان عندما أُطلقت الرصاصة؟". لا، لا يمكن أن يكون القاتل (القاتل المقترَح) واضحاً. هذا هو سبب خوفي يا هيستنغز؛ نعم، إنني خائف في هذه اللحظة. إنني أطمئن

نفسي فأقول: "إنهم أربعة، ولن يحدث شيء طالما هم معاً"، لكنني خائف طول الوقت. تلك الحوادث التي وقعت للآنسة، أريد أن أسمع عنها.

ثم التفت إلى الوراء فجأة وقال: ما زال الوقت مبكراً، سنذهب إلى الطريق الآخر الأطول عبر الشارع فليس في الحديقة ما يدلنا على شيء. دعنا نفحص الطريق التقليدي.

بعد بضع مئات من الأمتار التفّ الطريق في منعطف حاد ومفاجئ وانتهى عند بوابة متهدمة ذات بابين كان يمكن أن تكون أفضل لو تم طلاؤها، وداخل البوابة إلى اليمين كان يوجد بيت صغير مما يخصَّص للحراسة عادة. كان هذا البيت على النقيض من البوابة ومن حالة الممشى الداخلي الذي نما عليه العشب؛ فقد كانت الحديقة الصغيرة التي تحيط به جيدة وجميلة وإطارات النوافذ مطلية طلاء حديثاً، وظهرت الستائر النظيفة الزاهية من النوافذ.

كان هناك رجل يرتدي سترة باهتة منكباً على مسكبة للزهور. وانتصب الرجل عندما سمع صرير البوابة والتفت إلينا، كان رجلاً في الستّين من عمره تقريباً ويبلغ طوله ستة أقدام على أقل تقدير، وكان ذا بنية قوية ووجه لوّحته عوامل الطقس ورأس أصلع تماماً تقريباً، وكانت عيناه زرقاوين تشع منهما الحيوية والنشاط. وقد بدا أنيس المعشر.

قال عندما مررنا من جانبه: مساء الخير.

رددت عليه التحية بلطف، وشعرت ونحن نسير على الممشى الداخلي أنه كان يلاحقنا بنظراته الفضولية.

قال بوارو متأملاً: إنني محتار.

وترك عبارته هذه دون التلطف عليّ بأي توضيح عما جعله محتاراً.

كان البيت نفسه كبيراً وموحشاً، وكان محاطاً من كل الجهات بالأشجار التي لامست أغصانُها بالفعل سطحَ المنزل. بدا واضحاً أنه بيت مهمل، ونظر بوارو إليه نظرة تقييم قبل أن يقرع الجرس. كان جرساً عتيق الطراز يحتاج رجلاً مثل هرقل حتى يستطيع أن يقرعه، وعندما يقرع يتردد ضجيجه بلا نهاية.

فتحت البابَ امرأةٌ في أواسط عمرها، امرأة محتشمة ترتدي السواد، هكذا يمكنني وصفها. كانت امرأة جديرة بالاحترام وبدا عليها الحزن، ولم يظهر عليها الاهتمام بنا. قالت إن الآنسة باكلي لم ترجع بعد، فأوضح لها بوارو أن لدينا موعداً معها. وقد وجد بعض الصعوبة في الوصول إلى هدفه؛ فقد كانت من النوع الميّال إلى الشك في الأجانب. والواقع أنني أمدح نفسي عندما أقول إن مظهري هو الذي غير الموقف، وفي النهاية أدخلتنا وقادتنا إلى غرفة الاستقبال انتظاراً لعودة الآنسة باكلي.

لم يكن في الغرفة ما يدل على الحزن أو الحداد. كانت غرفة تطل على البحر والشمس تملأ جنباتها، وكانت غير مرتبة وتظهر أذواقاً متناقضة، وقد فرض المتاعُ العصري نفسَه على العناصر الفكتورية فيها. كانت الستائر باهتة اللون، لكن أغطية الأثاث كانت جديدة وزاهية الألوان، وكانت الوسائد والطنافس حمراء وردية. وعلى الجدران عُلّقت صور العائلة، وقد رأيت أن بعضاً منها

يبدو جيداً بشكل ملفت للنظر. وكان هناك جهاز الحاكي وبعض الأسطوانات مبعثرة هنا وهناك، وكان يوجد جهاز لاسلكي نقال ولا توجد كتب، وكانت إحدى الصحف ملقاة عند طرف الأريكة مفتوحة، فأخذها بوارو ثم وضعها وهو يعبس. كانت صحيفة سينت لو المحلية الأسبوعية، ولا أدري ما الذي حثه على رفعها مرة ثانية، وكان ينظر إلى أحد الأعمدة عندما فُتح الباب ودخلت مادج باكلي إلى الغرفة.

صاحت وهي تنظر إلى الوراء: "أحضري الشاي يا إيلين". ثم خاطبتنا قائلة: حسناً، ها أنا ذا. لقد استبدّ بي الفضول. هل أنا البطلة المفقودة منذ زمن طويل والمطلوبة بأي ثمن لتمثيل أفلامكم؟ كنتَ جاداً معي إلى حد لا أشعر معه بأن الأمر قد يكون شيئاً آخر... أرجوك أن تقدم لي عرضاً مغرياً.

بدأ بوارو يقول: للأسف يا آنسة...

قالت تتوسل: لا تقل إن الأمر هو العكس، لا تقل إنك ترسم رسومات صغيرة وتريد مني أن أشتري واحدة. ولكن لا... بوجود هذا الشارب ومن إقامتك في فندق ماجستيك صاحب أسوأ وأعلى أسعار في إنكلترا... لا، لا يمكن أن يكون ذلك.

دخلت الغرفة المرأة التي كانت قد فتحت لنا الباب وهي تحمل صينية الشاي الذي قامت مادج بصبه في الأكواب بينما كانت تواصل الحديث. وأحسب أن صمت بوارو (على غير عادته) أثّرَ فيها أخيراً، فتوقفت عن صب الشاي وقالت بحدة: حسناً؟

- أتمنى أن يكون الأمر حسناً يا آنسة.

أخذ من يدها كوب الشاي وقال: أرجو أن تكوني دوماً بخير يا آنسة.

لم تكن الآنسة حمقاء، ولم يفتها مغزى نبرة صوته. قالت: هل... هل في الأمر شيء؟

- نعم يا آنسة. هذا.

مدّ لها يده وفيها رصاصة، فأخذتها وهي تقطب جبينها حيرة. سألها: هل تعرفين ما هذه؟

- نعم، أعرف ما هي بالطبع. إنها رصاصة.

- بالضبط يا آنسة. لم يكن الذي مرّ من أمام وجهك صباح اليوم زنبوراً، بل هذه الرصاصة.

- هل تقصد... هل كان هناك مجرم معتوه يطلق الرصاص في حديقة الفندق؟

- يبدو ذلك صحيحاً.

قالت مادج بصراحة: حسناً، يبدو أن حياتي فعلاً تحميها قوى خارقة، فهذه رابع حادثة.

قال بوارو: نعم، هذه الرابعة. أريد أن أسمع منك يا آنسة وصفاً للحوادث الثلاث الأخرى.

حدقت إليه فقال: أريد أن أتأكد أنها كانت مجرد حوادث يا آنسة.

- بالطبع. وماذا عساها أن تكون غير ذلك؟

- أرجو أن تهيئي نفسك يا آنسة لصدمة كبيرة. ماذا لو كان شخصاً ما يريد قتلك؟

لم ترد مادج على هذا السؤال إلا بنوبة من الضحك، وبدا أن هذه الفكرة تسليها كثيراً. قالت: يا لها من فكرة رائعة! يا عزيزي، من تراه هذا الذي يريد قتلي؟ لست بالوريثة الشابة الجميلة التي بوفاتها تتدفق الملايين، أتمنى لو أن أحداً كان يحاول قتلي فعلاً... لأن من شأن ذلك أن يشكل إثارة ممتعة. ولكني أخشى أن لا أمل في هذه الأمنية!

- هلاّ أخبرتني يا آنسة عن هذه الأحداث؟

- بالطبع، ولكن ليس فيها شيء مهم. كانت مجرد أشياء سخيفة؛ هناك صورة معلقة ثقيلة فوق سريري سقطت في الليل، الصدفة وحدها جعلتني أسمع صفق أحد الأبواب في البيت فنزلت أبحث عنه ثم أغلقته، وهكذا نجوت من الموت. كانت ستسحق رأسي... كانت تلك هي الحادثة الأولى.

لم يبتسم بوارو وقال: أكملي يا آنسة، دعينا نسمع الثانية.

- إنها قصة أضعف. يوجد طريق صخري وعر يفضي إلى البحر، وأنا أنزل عادة من ذلك الطريق لأسبح في البحر، إذ توجد هناك صخرة يمكن الغوص من فوقها. حين عبرت ذلك الطريق ذات يوم تزحزحت بشكل ما صخرة ملساء مكوّرة وانحدرت نزولاً وكادت تصيبني. أما الحادثة الثالثة فكانت مختلفة تماماً، شيء ما تعطل في كوابح السيارة... لا أعرف ماذا حدث لها بالضبط،

أوضح الميكانيكي لي لكني لم أفهم منه. على أية حال لو كنتُ بسيارتي وهي تنطلق من البيت وتنزل التلّة ولم توقفها الكوابح فأظن أن السيارة ما كانت لتتوقف إلا بعد ارتطامها بمبنى البلدية الذي لن يصاب إلا بأضرار خفيفة، ولكن السيارة سوف تُسحَق تماماً لاغيةً إياي من الوجود! ولكن بسبب عادتي الدائمة في نسيان شيء ورائي كلما خرجت عدت أدراجي فكدت أصطدم بالسياج الشجري.

- ألا يمكنك أن تخبريني ماذا كانت المشكلة؟

- يمكنك أن تذهب وتسأل صاحب الورشة عنها. كان شيئاً بسيطاً متعلقاً بالميكانيك؛ برغي غير مشدود بشكل جيد أو شيء من هذا القبيل. لا أدري إن كان ابن إيلين (مساعدتي الوفية التي فتحت لكم الباب) هو الذي عبث بالسيارة؛ فالأولاد يحبون العبث بالسيارات. لكن إيلين أقسمت أنه لم يقترب من السيارة أبداً.

- أين المرآب الذي تضعين فيه سيارتك يا آنسة؟

- وراء الجانب الآخر من البيت.

- وهل تبقينه مغلقاً بالمفتاح؟

اتسعت عينا مادج من الدهشة وقالت: آه، لا، لا بالطبع.

- هل يمكن لأحد أن يعبث بالسيارة دون أن يلاحظه أحد؟

- نعم، أظن ذلك ممكناً، لكنه أمر سخيف.

- لا يا آنسة، ليس سخيفاً. أنت لا تفهمين الحقيقة، إنك في خطر، خطر شديد. إنني أقول هذا لك وأنا من أنا! هل تعرفين من أنا؟

قالت مادج وقد التقطت أنفاسها: لا.

- أنا هيركيول بوارو.

قالت مادج بنبرة فاترة: آه، نعم.

- هل سمعتِ باسمي؟

تململت في جلستها وقد بدت في عينيها نظرة ذعر وخوف، وراقبها بوارو بتركيز ثم قال: إنك لست مطمئنة، وأظن أن هذا يعني أنك لم تقرئي عن إنجازاتي.

- حسناً، لم أقرأ عنها... ليس كلها، لكني أعرف الاسم بالطبع.

- يا آنسة، إنك كاذبة صغيرة مؤدبة.

جفلت وأنا أتذكر تلك الكلمات التي قيلت في فندق ماجستيك في ذلك اليوم بعد الغداء. وأكمل بوارو يقول: لقد نسيت. أنت مجرد طفلة وما كنت لتسمعي عني؛ إذ إن الشهرة سرعان ما تخبو. صديقي هذا سيخبرك عني.

نظرت مادج إليّ، فتنحنحت بشيء من الحرج وقلت: السيد بوارو هو... أعني... لقد كان من رجال التحري الكبار.

- آه يا صديقي! أهذا كل ما استطعت قوله؟ ما هذا؟ قل للآنسة إذن إنني رجل تحرٍّ فريد من نوعه لا يضاهيه أحد، أعظم رجل تحر عرفه العالم!

قلت ببرود: لم يعد ذلك ضرورياً الآن، فقد أخبرتها بنفسك.

- آه، نعم، ولكن كان اللائق أكثر أن تمكنني من المحافظة على تواضعي، إذ لا ينبغي للمرء أن يتغنى بكيل المديح لنفسه.

وافقته مادج مبدية تعاطفاً ساخراً: لا ينبغي للمرء أن يربي كلباً ثم يضطر للنباح عنه. وبالمناسبة، مَن هو المساعد المخلص، الدكتور واطسون؟

قلت ببرود: اسمي هيستنغز.

قالت مادج: باسم المعركة التي وقعت عام ١٠٦٦؛ مَن قال إنني لست متعلمة؟ حسناً، هذا كله رائع، رائع جداً. هل تعتقد أن أحداً يريد قتلي حقيقة؟ سيكون شيئاً مثيراً، لكن هذا الشيء لا يحدث بالطبع إلا في القصص والروايات. أحسب أن السيد بوارو مثل الجراح الذي ابتكر عملية جراحية أو الطبيب الذي اكتشف مرضاً غامضاً ويريد للجميع أن يصابوا به.

صاح بوارو غاضباً: ما أعجب ذلك! لماذا لا تتكلمين بجدية؟ أنتم شباب اليوم... أما من شيء يحملكم على الجد؟ ما كنتِ ستعتبرين ذلك مزحة لو كنت ممددة في حديقة الفندق جثة صغيرة هامدة وقد اخترقت رصاصة صغيرة لطيفة رأسك بدلاً من قبعتك. ما كنت لتضحكي عندها، أليس كذلك؟

ضحكت ضحكة مستهجنة وقالت: إنه لطف كبير منك أن تهتم هكذا يا سيد بوارو، ولكن لا بد أن كل ما حدث كان مجرد حادث عرضي.

- أنت فتاة عنيدة.

- بالفعل، لعلها الوراثة؛ فجدي كان معروفاً بعناده بين الناس وكان عجوزاً وغداً، لكنه كان مسلياً جداً وكنت أحبه كثيراً، وقد صاحبته دائماً وكان يدعوني «مادج الصغيرة»، أما اسمي الحقيقي هو ماغدالا.

- إنه اسم غير شائع.

- نعم، بالفعل، لكنه شائع في عائلتنا؛ حيث تحمل الكثيرات في عائلة باكلي هذا الاسم، وهذه صورة واحدة منهن معلّقة هنا.

وأشارت إلى صورة معلقة على الجدار فأومأ بوارو، ثم قال وهو ينظر إلى صورة معلقة بالقرب منها: وهل هذا هو جدك يا آنسة؟

- نعم، إنها صورة آسرة، أليس كذلك؟ لقد طلب جيم لازاروس شراءها لكنني رفضت بيعها، فأنا متعلقة جداً بجدي العجوز.

صمت بوارو دقيقة ثم قال بلهجة حادة: لنعد إلى موضوعنا. اسمعي يا آنسة، أتوسّل إليك أن تكوني جادة. أنت في خطر؛ لقد قام أحدهم اليوم بإطلاق النار عليك من مسدس موزر.

- مسدس موزر؟

ارتعبت قليلا، فقال بوارو: نعم، لماذا؟ هل تعرفين أحداً يملك مسدس موزر؟

ابتسمت وقالت: أنا عندي واحد.

- عندك أنت؟

- نعم، كان مسدس أبي وقد أعاده معه من الحرب. كان ملقى في مكان ما هنا منذ ذلك الوقت، وقد رأيته قبل أيام فقط في ذلك الدرج.

وأشارت إلى مكتب عتيق الطراز، ثم ذهبت إلى حيث الدرج وكأن فكرة قد خطرت لها فجأة وفتحته، لكنها ما لبثت أن التفتت بانشداد وقالت قد تغيرت نبرة صوتها: آه، لقد... لقد اختفى!

* * *

الفصل الثالث

حوادث؟

من تلك اللحظة تغيرت لهجة الحديث، فقد ساد بين بوارو والفتاة حتى تلك اللحظة حوار الطرشان؛ كانت السنوات الطويلة من العمر تفصل بينهما ولم تكن سمعته وشهرته تعني لها شيئاً. كانت من جيل لا يعرف إلا الأسماء العظيمة للحاضر الآني فقط، ولذلك لم تتأثر بتحذيراته. لم تكن ترى فيه إلا أجنبياً عجوزاً يثير الضحك ذا عقل ميلودرامي يبعث على التسلية.

وقد حيّر هذا الموقف بوارو وآلم خيلاءه، فقد كان قناعته الدائمة أن العالم كله يعرف هيركيول بوارو. ولكن ها هي واحدة لا تعرفه. ولم أستطع منع نفسي من الإحساس بأن ذلك جيد بالنسبة له، لكنه في هذا الموقف بالذات لا يساعد في الوصول إلى الغرض المنشود.

لكن اكتشاف فقدان المسدس أعطى المسألة بعداً جديداً، وقبلت مادج التعامل مع القضية وكأنها فرحة مسلية. صحيح أنها ما زالت تتعامل مع الأمر بخفة، ذلك أنه كان من عادتها وطبعها أن تتعامل مع الأحداث بخفة، ولكن تغيراً طرأ على سلوكها الآن. عادت وجلست على ذراع الكرسي وهي عابسة تتأمل، ثم قالت: هذا غريب.

التفت بوارو إليّ بسرعة وقال: هل تذكر يا هيستنغز تلك الفكرة الصغيرة التي ذكرتها لك؟ لقد كانت فكرتي صحيحة، فكرتي الصغيرة هذه افترضت أن الآنسة وجدت مقتولة في حديقة الفندق. ولم تكن جثتها لتكتشف إلا بعد مضي ساعات، فالناس قليلاً ما يمرون من تلك الناحية، وحين يمرون يجدون امرأة ملقاة على الأرض وإلى جانب يدها مسدسها الخاص ملقى على الأرض. لا شك أن السيدة الطيبة إيلين ستتعرف على المسدس، ولا شك أن آراء وتحليلات كانت ستساق حول قلق الآنسة وعدم قدرتها على النوم...

تحركت مادج بقلق وقالت: هذا صحيح؛ كنت أشعر بالقلق الشديد وما برح الآخرون جميعاً يقولون لي إنني عصبية المزاج. نعم، كان من شأنهم أن يقولوا ذلك كله.

- ثم ينتهون إلى الحكم بأنه انتحار. بصمات أصابع الآنسة واضحة على المسدس ولا توجد بصمات أخرى عليه. نعم، سيكون ذلك في غاية البساطة والإقناع.

قالت مادج: يا له من أمر مسلٍ!

لكني كنت سعيداً بملاحظة أنها لم تشعر بالتسلية حقاً. وتقبّل بوارو كلماتها بالمعنى المجازي التقليدي الذي قيلت فيه وقال: لكنك تعرفين -يا آنسة- أنه يجب أن لا يحدث شيء آخر من هذا بعد الآن. أربع محاولات فاشلة، نعم، لكن المرة الخامسة قد تصيب.

قالت مادج: جهّزْ لي عربة نقل الموتى.

- لكننا هنا، أنا وصديقي، لكي نجنبك ذلك.

أحسست بالامتنان من شمولي معه، فقد كان من عادة بوارو

تجاهل وجودي. تدخلت وقلت: نعم، يجب أن لا تخافي يا آنسة باكلي؛ سوف نحميك.

قالت مادج: لطيف منكما هذا كله ورائع. الأمر مثير جداً، جداً.

ما زالت تحافظ على أسلوبها المصطنع، لكني رأيت القلق بادياً في عينيها. قال بوارو: وأول شيء تفعلينه هو أخذ الاستشارة.

ثم جلس وقال بمودّة: في البداية -يا آنسة- أريد أن أسألك سؤالاً تقليدياً: هل لك أي أعداء؟

هزت مادج رأسها بشيء من الأسف وقالت كأنها تعتذر: أخشى أن لا يكون لي أي أعداء.

- جيد، سوف نستبعد هذا الاحتمال إذن. الآن سنسأل سؤال السينما، سؤال الروايات البوليسية... مَن الذي يستفيد من وفاتك يا آنسة؟

قالت مادج: لا أستطيع أن أتصور، ولذلك يبدو الأمر كله سخيفاً. بالطبع هو الإسطبل القديم المسمى «البيت الأخير»، لكنه مرهون بالكامل كما أن السقف يسرب المياه، ولا يمكن أن تخفي تحت هذا البيت منجم فحم أو أي شيء مثير من هذا القبيل.

- إذن فهو مرهون؟

- نعم؛ اضطررت لرهنه، إذ توجب عليّ دفع نفقات وفاتَين وقعتا حديثاً خلال فترة قصيرة. أولاً توفي جدي قبل ست سنوات، ثم أخي. كان هذا ما زاد من صعوبة الموقف المالي.

- ووالدك؟

- لقد عاد من الحرب معاقاً، ثم أصيب بذات الرئة ومات في عام ١٩١٩. أما أمي فقد توفيت عندما كنت طفلة رضيعة وعشت هنا مع جدي. لم يكن هو ووالدي على علاقة حسنة (و لا عجب في ذلك) ولذلك وجد أبي أن الأنسب تركي هنا حتى يذهب هو ويجوب العالم كما يحلو له. كما أن جيرالد (وهو أخي) لم يكن على علاقة طيبة مع جدي هو الآخر. وأظن أنني ما كنت لأطيقه لو كنت صبياً، لكن كوني فتاة جنّبني ذلك الموقف. كان جدي يقول إنني مثل أبي ورثت عنه روحه وأخلاقه.

وضحكت مادج ثم أضافت تقول: أظنه كان عجوزاً مستهتراً، لكنه كان محظوظاً جداً، وقد شاع في هذه المنطقة قول مفاده أن كل شي كان جدي يلمسه يتحول إلى ذهب، لكنه كان مقامراً ويخسر كل ما يكسبه، وعندما توفي لم يكد يترك شيئاً سوى البيت والأرض. كنت في السادسة عشرة عندما توفي وكان جيرالد في الثانية والعشرين من عمره، وقد قتل جيرالد في حادث سيارة قبل ثلاث سنوات وآل البيت إليّ.

- وبعدك يا آنسة؟ من هو أقرب قريب لك؟

- ابن خالي تشارلز، تشارلز فايس. إنه محام يعمل هنا، وهو شخص طيب وجدير بالاحترام لكنه جامد وممل جداً. إنه يقدم لي نصائح جيدة ويحاول كبح جماح ميولي إلى التبذير والإسراف.

- وهل يدير لك شؤونك؟

- نعم، إن شئت وصف ذلك على هذا النحو؛ فليس لي

شؤون كثيرة ليديرها. إنه يرتب لي موضوع الرهن ويؤجر لي بيت الحارس عند المدخل.

- بيت الحارس؟ كنت سأسألك عن هذا، هو مؤجَّر؟

- نعم، لبعض الأستراليين من عائلة كروفت. إنهم لطفاء أكثر من المطلوب، يغمرون المرء بلطفهم الزائد. دائماً يجيئونني بنماذج باكورة إنتاجهم من الكرفس والبازلاء وغير ذلك، وهم مدهوشون للطريقة التي أهمل بها الحديقة. إنهم مزعجون قليلاً في الواقع، أو أن الزوج مزعج على الأقل؛ فهو يُظهر من المودة ما يزعج المرء ويضيق به الوصف. أما الزوجة المسكينة فإنها مقعدة وتقضي نهارها مستلقية على الأريكة، ولكنهم يدفعون الأجرة على كل حال، وهذا هو المهم.

- منذ متى وهما هنا؟

- من نحو ستة أشهر.

- فهمت. والآن فيما عدا ابن خالك هذا هل لديك أي قريب آخر؟

- أبناء عمومة بعيدون من عائلة باكلي، يعيشون في يوركشير.

- ألا يوجد أحد غيرهم؟

- لا يوجد.

- تلك هي الوحدة.

حدقت مادج إليه وقالت: الوحدة؟ يا لها من فكرة غريبة! إنني لا آتي إلى هنا كثيراً بل أقيم عادة في لندن، والأقارب -عموماً-

يجلبون المتاعب؛ لا تجد منهم إلا اللغط والتدخل. أن يكون المرء وحيداً أكثر متعة وراحة.

- لن أضيع تعاطفي هدراً عليك، فأنت فتاة عصرية كما أرى يا آنسة، والآن إلى أهل البيت.

- يبدو ذلك تعبيراً ضخماً! إيلين هي أهل البيت، وزوجها الذي يعمل بستانياً... رغم أنه ليس بالبستاني الجيد. وأنا أدفع لهما راتباً ضئيلاً جداً لأنني أسمح لهما بإحضار طفلهما هنا. تكفيني إيلين عندما آتي إلى هنا، وإذا كانت لديّ حفلة فإننا نحضر من نشاء لمساعدتنا. سأنظم حفلة يوم الإثنين، إنه أسبوع سباق الزوارق.

- الإثنين؟ واليوم السبت. نعم، نعم. والآن يا آنسة، ماذا عن أصدقائك الذين كنت تتناولين معهم الغداء اليوم على سبيل المثال؟

- نعم. فريدي رايس هي الفتاة الشقراء، وهي أفضل صديقاتي في الواقع. كانت تحيا حياة نتنة؛ فقد تزوجت حيواناً، رجلاً يشرب الخمر ويتعاطى المخدرات، وكان غريب الأطوار ومن أسوأ ما يمكن، وقد تركته قبل سنة أو سنتين. منذ ذلك الوقت وهي تتنقل من مكان لمكان، وإنني لأتمنى من الله أن تتمكن من الحصول على الطلاق والزواج بجيم لازاروس.

- لازاروس؟ تاجر التحف الفنية في شارع بوند؟

- نعم، جيم هو ابنه الوحيد. إنه يتقلب بالنعمة بالطبع، هل رأيت سيارته؟ وهو يحب فريدي كثيراً. إنهما يقضيان عطلة نهاية الأسبوع في فندق ماجستيك وسيأتيان عندي يوم الإثنين.

- وماذا عن زوج السيدة رايس؟

- الفاسد؟ آه! لقد تخلى عن كل شيء ولا أحد يعلم أين هو، وهذا ما يجعل الأمر فظيعاً على فريدي، فهي لا تستطيع الحصول على الطلاق من رجل لا تعرف مكانه.

- بالطبع.

قالت مادج وهي مستغرقة في التفكير: مسكينة فريدي! كان حظها سيئاً، لقد أوشكت مرة على ترتيب المسألة كلها، فقد عثرت عليه وأفهمته طلبها للطلاق وقال إنه مستعد لذلك تماماً لكنه لا يملك من نفقات إجراءات الطلاق شروى نقير، وقد انتهى بها الأمر إلى أن دفعت له المال فأخذه ورحل ولم يسمع أحدٌ عنه شيئاً منذ ذلك اليوم. إنه عمل خسيس.

صحت: يا إلهي!

قال بوارو: لقد صُدم صديقي هيستنغز. يجب أن تكوني أكثر حرصاً يا آنسة، فهو من طراز قديم وقد عاد لتوه من تلك الأجواء الصافية العظيمة.

قالت مادج وهي تفتح عينيها من الدهشة: لا شيء يدعو إلى الصدمة؛ أقصد أن الجميع يعرفون أن هناك مثل هؤلاء الناس. لكني -مع ذلك- اسميها حيلة خسيسة. لقد كانت فريدي المسكينة معسرة جداً في ذلك الوقت بحيث لم تعرف إلى أين تلجأ.

- نعم، نعم، إنها ليست بالقضية اللطيفة. وماذا عن صديقك الآخر يا آنسة، القبطان تشالنجر الطيب؟

- جورج؟ لقد عرفت جورج طوال حياتي... حسناً، لنقل منذ خمس سنوات. إنه رجل طيب.

- وهل يريد الزواج بك؟

- إنه يذكر ذلك من وقت لآخر.

- لكنك تظلين قاسية القلب؟

- ما الفائدة من زواجنا؟ لا يملك أي واحد منا فلساً واحداً، كما أن من شأن المرء أن يشعر بالسأم الرهيب مع جورج؛ فهو ممّن تربوا على القيم القديمة في المدارس التقليدية، وهو -فوق ذلك- في الأربعين من عمره على الأقل.

جعلتني هذه الملاحظة أنقبض قليلاً، وقال بوارو: الواقع أن إحدى قدميه في القبر. آه، لا تلقي بالاً لكلامي يا آنسة، فأنا جدك العجوز. أخبريني الآن بالمزيد عن تلك الحوادث. الصورة على سبيل المثال؟

- لقد علقتها مرة أخرى بسلك جديد، يمكنك أن تأتي وتراها إن شئت.

خرجت من الغرفة تتقدمنا فتبعناها. كانت الصورة موضوع الحديث لوحة مرسومة بالألوان الزيتية ضمن إطار ثقيل، وقد عُلّقت فوق رأس السرير مباشرة. قال بوارو متمتماً: اسمحي لي يا آنسة.

ثم خلع حذاءه وصعد على السرير، فتفحص الصورة والسلك واختبر وزن اللوحة بحذر ثم نزل عن السرير عابساً وهو يقول: إن سقوط مثل هذه على رأس المرء ليس بالشيء الجميل. هل كان

السلك الذي كانت معلقة به مثل هذا سلكاً معدنياً يا آنسة؟

- نعم، لكنه لم يكن ثخيناً كهذا. لقد وضعت سلكاً أثخن هذه المرة.

- هذا مفهوم. وهل تفحصت مكان الانقطاع... هل يدل على قطع متعمد؟

- لم أصرف انتباهي لذلك تحديداً، إذ ما الدافع إلى ذلك؟

- بالضبط. كما قلت، ما الدافع؟ ومع ذلك أريد أن ألقي نظرة على ذلك السلك. هل هو موجود في البيت؟

- كان السلك القديم على الصورة، وأعتقد أن الرجل الذي وضع السلك الجديد قد ألقى بالسلك القديم.

- أمر مؤسف؛ كنت أودُّ أن ألقي نظرة عليه.

- ألا تعتقد أنه حادث عرَضي؟ لا يمكن أن يكون أي شيء آخر بالتأكيد.

- ربما كان حادثاً عرضياً. من المستحيل معرفة الحقيقة ولكن تخريب كوابح سيارتك لم يكن حادثاً عرضياً وتلك الصخرة التي تدحرجت إلى حافة المنحدر الصخري أيضاً... أريد أن أرى المكان الذي وقعت فيه الحادثة.

قادتنا مادج خارج البيت إلى الحديقة ثم إلى حافة المنحدر الصخري. كان البحر يتلألأ بزرقته أسفل منا، وأمام الصخور يتحدر طريق وعر. وصَفَت لنا مادج المكان الذي وقعت فيه الحادثة تماماً،

وأومأ بوارو برأسه وهو مستغرق بالتفكير ثم سألها: كم طريقاً يؤدي إلى حديقة بيتك يا آنسة؟

- الطريق الأمامي من أمام بيت الحارس عند البوابة، وثمة مدخل آخر وهو باب في الجدار عند منتصف ذلك الممشى. ثم هناك بوابة هنا على حافة المنحدر الصخري، وهي تؤدي إلى طريق متعرج يصعد من ذلك الشاطئ إلى فندق ماجستيك. ثم يمكنك بالطبع أن تذهب مباشرة من خلال فتحة من سياج الحديقة إلى الفندق... وهو الطريق الذي ذهبت منه هذا الصباح. إن الذهاب من خلال حديقة فندق ماجستيك طريق مختصر إلى البلدة.

- والبستاني الذي يعمل عندك... أين يعمل في العادة؟

- إنه يتسكع في العادة حول حديقة المطبخ، يجلس في السقيفة متظاهراً بأنه يستعمل مقص تقليم الأشجار.

- أي أنه يكون عادة في الجانب الآخر من البيت؟ ولذلك إذا دخل أي شخص ودحرج صخرة كبيرة فمن غير المحتمل أن يلحظه أحد.

ارتعدت مادج قليلاً وقالت: هل... هل تعتقد حقاً أن هذا ما حدث؟ لا أستطيع أن أصدق؛ فهذا يبدو عملاً عبثياً تماماً.

أخرج بوارو الرصاصة من جيبه مرة أخرى ونظر إليها ثم قال بلطف: لم تكن هذه عبثية يا آنسة.

- لا بد أن الذي فعلها مجنون.

- ممكن. إنه موضوع مثير يصلح لأحاديث الليل: هل المجرمون مجانين حقاً؟ قد يوجد تشوّه في خلايا أدمغتهم الرمادية الصغيرة، نعم، هذا محتمل جداً، لكن هذه مسألة تخص الطبيب أما أنا فلديّ عمل أؤديه؛ عليّ أن أفكر بالبريء وليس بالمذنب، الضحية وليس المجرم. إنني الآن أفكر بك أنت يا آنسة وليس بالمعتدي المجهول. أنت صغيرة وجميلة والعالم مفرح بالنسبة لك وأمامك الحياة... هذا كل ما أفكر فيه يا آنسة. أخبريني، منذ متى يوجد صديقاكم السيدة رايس والسيد لازاروس في هذه المنطقة؟

- جاءت فريدي إلى هذه المنطقة يوم الأربعاء، وقد توقفت مع بعض الناس قرب تافيستوك وأقامت هناك ليلتين ثم جاءت بالأمس إلى ها. أما جيم فأظن أنه كان يقوم بجولة سياحية قريباً من هذه النقطة.

- والقبطان تشالنجر؟

- إنه يعمل في ديفنبورت ويأتي إلى هنا في سيارته كلما استطاع ذلك... وفي العطل الأسبوعية غالباً.

أومأ بوارو برأسه. كنا نسير عائدين إلى البيت وكان الصمت مخيماً، ثم قال فجأة: هل لديك صديقة تثقين بها يا آنسة؟

- فريدي.

- واحدة غير السيدة رايس.

- لا أدري. لماذا؟

- لأنني أريدك أن تحضري صديقة لتقيم معك... فوراً.

- آه!

بدت مادج ذاهلة. صمتت بعض الوقت وهي تفكر ثم قالت بارتياب: ماغي... أظن أن باستطاعتي العثور عليها.

- ومن تكون ماغي هذه؟

- واحدة من بنات عمومتي في يوركشير، عائلتها كبيرة ووالدها رجل دين، وهي في مثل عمري تقريباً. إنني أدعوها عادة لتقيم معي بعض الوقت في أثناء الصيف، مع أن صحبتها لا تسر كثيراً... إنها فتاة مستقيمة إلى حد مضجر، وقد كنت أتمنى أن لا أحضرها هذه السنة.

- ابنة عمك ستؤدي المهمة على أكمل وجه يا آنسة؛ إنها من النوع الذي كنت أفكر فيه.

قالت مادج وهي تتنهد: حسناً إذن، سأبرق لها. لا أدري مَن أستطيع دعوتها غيرها، فالجميع مرتبطون بأعمال. لكنها ستأتي إن لم تكن مشغولة، مع أنني لا أعرف تماماً ما الذي تتوقع منها أن...

- هل يمكنك أن ترتبي مسألة نومها معك في غرفتك؟

- أظن ذلك.

- ألن تعتبر ذلك طلباً غريباً؟

- آه، لا أظن؛ فماغي لا تفكر أبداً. إنها تعمل وتنفّذ بجدية وبإخلاص ومثابرة. حسناً، حسناً، سأبرق لها لتأتي يوم الإثنين.

- ولماذا ليس غداً؟

- في قطار الأحد؟ ستظن أنني أحتضر إن اقترحت عليها

ذلك. لا، سأطلب منها أن تأتي يوم الإثنين. هل ستخبرها عن القدر المخيف الذي يحدق بي؟

- لا. أما زلت تمزحين بالأمر؟ إنني سعيد برؤيتك تتحلين بالشجاعة.

قالت مادج: إن في الشجاعة إلهاء عن الخطر على أية حال.

لفت انتباهي شيء في نبرتها، فنظرت إليها نظرة فضول. كان لديّ إحساس بأن هناك شيئاً قد أغفلته ولم تذكره. كنا قد عدنا إلى غرفة الاستقبال وكان بوارو يتصفح الصحيفة الملقاة على الأريكة، وسألها فجأة: هل قرأت هذه يا آنسة؟

- لم أقرأها بجدية، فتحتها فقط لأعرف حركة المد والجزر. إنها تعطي معلومات عنها كل أسبوع.

- فهمت. بالمناسبة يا آنسة، هل كتبت وصيتك؟

- نعم، فعلت... قبل ستة أشهر، قبل إجراء عمليتي الجراحية.

- وما عمليتك هذه؟

- عملية لإزالة الزائدة الدودية. قال لي أحدهم إنني يجب أن أكتب وصية فكتبتها، وقد جعلني ذلك أشعر بأنني إنسانة مهمة.

- وماذا كتبت فيها؟

- تركت بموجبها «البيت الأخير» لتشارلز. لم يكن لديّ أي شيء آخر أتركه ولكن ما بقي تركته لفريدي، وأعتقد أن الديون التي عليّ قد تتجاوز أملاكي.

أومأ بوارو وهو شارد الذهن ثم قال: سأغادر الآن. وداعاً يا آنسة وانتبهي لنفسك.

سألته مادج: من أي شيء أنتبه؟

- أنت ذكية. نعم، هذه هي نقطة الضعف! ما هو الاتجاه الذي ينبغي أن تنتبهي منه؟ من يعرف هذا؟ ولكن كوني واثقة -يا آنسة- من أنني سأكتشف الحقيقة خلال بضعة أيام.

أكملت مادج عنه بعفوية: وحتى ذلك الوقت احذري السم والقنابل وطلقات المسدس وحوادث السيارات وسهام هنود أمريكا الجنوبية المغموسة بالسم...

قال بوارو بوقار وهدوء: لا تسخري من نفسك يا آنسة.

وعندما وصل إلى الباب توقف وقال: بالمناسبة، ما هو السعر الذي عرضه السيد لازاروس عليك مقابل صورة جدك؟

- خمسين جنيهاً.

- آه!

نظر وراءه بهدوء إلى الوجه الأسمر النكد المعلق فوق رف الموقد.

قالت: لكنني لا أريد بيع العجوز كما قلت لك.

- نعم، نعم، أعرف هذا.

* * *

الفصل الرابع

لا بد أن في الأمر شيئاً

قلت بعد أن خرجنا إلى الطريق: بوارو، يوجد شيء أعتقد أنك يجب أن تعرفه.

- وما هو يا صديقي؟

أخبرته عن رواية السيدة رايس بخصوص حادث السيارة فقال: هذا مثير؛ بالطبع يوجد من الناس نوع تافه يريد إظهار نفسه عن طريق اختلاق روايات بأنه نجا من الموت بأعجوبة، وهو مستعد لرواية حوادث مدهشة لم تحدث أبداً! نعم، هذا النوع معروف جداً، بل إن مثل هؤلاء الناس يمكن أن يلحقوا بأنفسهم أذى جسيماً كبيراً حتى يثبتوا صحة روايتهم.

- لا أظنك ترى أن...

- أن الآنسة مادج من ذلك النوع؟ لا أظنها كذلك في الواقع. لقد لاحظت -يا هيستنغر- أننا واجهتنا صعوبة بالغة في إقناعها بوجود الخطر، وحتى نهاية حديثنا معها ظلت غير مصدقة وتسخر

من كلامنا. ومع ذلك فإن ما قالته السيدة رايس مثير للاهتمام. ولماذا تقول هذا؟ لماذا تقوله حتى لو كان صحيحاً؟ لم يكن ذلك ضرورياً، مجرد تصرف أخرق.

- نعم، هذا صحيح. لقد قامت بإقحام ملاحظتها في الحديث إقحاماً تعسفياً دون أي سبب مناسب.

- هذا غريب. نعم، إنه غريب. الحقائق الصغيرة الغريبة... أريد أن أراها تظهر، فهي مهمة في مغزاها لأنها تدل على الطريق.

- الطريق... إلى أين؟

- لقد وضعت إصبعك على نقطة الضعف أيها الرائع هيستنغز. إلى أين؟ للأسف لن نعرف إلا حين نصل إلى هناك.

قلت: أخبرني يا بوارو، لماذا أصررت على ضرورة إحضارها ابنة عمها لتقيم معها؟

توقف بوارو وأشار بإصبعه بانفعال وصاح: فكر، فكر لحظة واحدة يا هيستنغز. كيف نحن عاجزون، كيف أن أيدينا مكبلة! إن صيد مجرم بعد ارتكاب الجريمة مسألة بسيطة جداً، أو هي بسيطة لشخص يتمتع بقدراتي على الأقل؛ إذ يكون المجرم وقتها قد وقَّع باسمه بارتكابه الجريمة. ولكن هنا لا توجد جريمة، وزيادة على ذلك فإننا لا نريد الجريمة. إن اكتشاف الجريمة قبل ارتكابها مسألة بالغة الصعوبة. ما هو هدفنا الأول؟ سلامة الآنسة، وهذا ليس سهلاً. نعم، ليس سهلاً يا هيستنغز. لا يمكننا أن نراقبها ليل نهار كما لا نستطيع إرسال شرطي لحراستها، ولا يمكننا قضاء الليل في

غرفة نوم الفتاة... المسألة محفوفة بالمصاعب، ولكننا نستطيع عمل شيء واحد، يمكننا جعل الأمر أكثر صعوبة بالنسبة لمجرمنا. يمكننا تنبيه الفتاة وإبقاؤها حذرة متيقظة، كما يمكننا إدخال شاهد محايد تماماً. سيتطلب الأمر وجود رجل ذكي جداً حتى يحتال لهذين الظرفين ويقوم بالجريمة.

سكت قليلاً ثم قال بنبرة مختلفة تماماً: لكن ما أخشاه يا هيستنغز...

- نعم؟

- ما أخشاه هو أنه مجرم ذكي جداً بالفعل، كما أنني لا أشعر بالارتياح. نعم، لا أشعر بالارتياح أبداً.

- بوارو، إنك تثير ارتباكي.

- أنا أيضاً مرتبك. اسمع يا صديقي، تلك الصحيفة التي كانت ملقاة على الأريكة كانت مفتوحة ومثنية على أية صفحة برأيك؟ على خبر صغير يقول: "بين نزلاء فندق ماجستيك يوجد السيد هيركيول بوارو والكابتن هيستنغز". افترض، افترض فقط أن شخصاً قرأ ذلك الخبر. إنهم يعرفون اسمي، الكل يعرف اسمي...

قلت مبتسماً: الآنسة باكلي لم تعرف اسمك.

- إنها مشتتة الفكر ولا يحسب حسابها، ولكن من شأن رجل خطير أو مجرم محترف أن يعرف اسمي، ومن شأنه أن يخاف وأن يتساءل. سيسأل نفسه أسئلة. لقد حاول الاعتداء على حياة الآنسة ثلاث مرات، ولكن الآن يصل هيركيول بوارو إلى المنطقة، سوف

يسأل نفسه: "هل هذه مجرد صدفة؟"، وسوف يخشى أن لا تكون صدفة، فماذا سيفعل في هذه الحالة؟

- يختبئ ويمحو آثاره.

- نعم، نعم. أو... إن كانت لديه جرأة حقيقية سيضرب بسرعة دون أن يضيع أي وقت، قبل أن يتاح لي الوقت للقيام بالتحريات... ضربة وتموت الآنسة، هذا ما يفعله المجرم الجريء.

- ولكن لماذا تعتقد أن شخصاً آخر غير الآنسة باكلي قد قرأ ذلك الخبر؟

- لم تكن الآنسة باكلي هي التي قرأت ذلك الخبر؛ فعندما ذكرت اسمي لم يعنِ لها شيئاً. حتى أنه لم يكن اسماً مألوفاً لديها، فوجهها لم يتغير، إضافة إلى أنها أخبرتنا بأنها فتحت الصحيفة لتقرأ عن حركة المد والجزر دون أي شيء آخر. ولم يكن جدول حركة المد والجزر في تلك الصفحة.

- هل تعتقد أن شخصاً في البيت...

- شخصٌ في البيت أو ممّن يسهل عليه الدخول إليه، وهذه الأخيرة سهلة؛ فالنافذة تظل مفتوحة وما من شك في أن أصدقاء الآنسة باكلي يدخلون ويخرجون.

- هل لديك أي فكرة؟ أي اشتباه؟

مدّ بوارو ذراعيه في الهواء وقال: لا شيء! الدافع للجريمة ليس واضحاً، كما توقعت تماماً، وهنا مكمن أمن القاتل المحتمل.

هذا ما جعله يتصرف بجرأة في هذا الصباح؛ فمن حيث الظاهر لا أحد يرغب في وفاة مادج الصغيرة. الأملاك؟ البيت الأخير؟ إنه يؤول إلى ابن الخال، ولكن هل يريد بيتاً قديماً مثقلاً بالديون إلى درجة القتل؟ كما إنه ليس بيت العائلة إذا تعلق الأمر به، فهو ليس من عائلة باكلي. يجب أن نرى تشارلز فايس هذا بالتأكيد، لكن الفكرة تبدو غريبة. ثم هناك السيدة... الصديقة الحميمة ذات العينين الغريبتين والمظهر الذي يوحي بأنها الفتاة البائسة.

سألته وقد جفلت: هل شعرت بذلك أنت أيضاً؟

- ما هو شأنها في هذا العمل؟ إنها تقول لك إن صديقتها كاذبة. يا لهذا اللطف! لماذا تخبرك؟ هل هي خائفة من شيء قد تقوله مادج؟ هل هو شيء متعلق بالسيارة؟ أم أنها استخدمتها مثالاً بينما خوفها الحقيقي من شيء آخر؟ هل عبث أحد بالسيارة؟ وإن كان هذا صحيحاً فمَن هو؟ وهل تعرف عن ذلك شيئاً؟ ثم هناك الأشقر الوسيم السيد لازاروس. أين مكانه في هذا الأمر؟ بسيارته الرائعة وأمواله. أيكون معنياً بالأمر بأي شكل من الأشكال؟ والقبطان تشالنجر...

تدخلت بسرعة قائلاً: لا يوجد ما يعيبه، أنا واثق من هذا. إنه رجل بكل معنى الكلمة.

- أحمد الله لأنني أجنبي متجرد من هذه التحيزات والآراء المسبقة! لكني أعترف بأنني أجد من الصعب زجّ القبطان تشالنجر في القضية. الواقع أنني لا أرى أن له علاقة بالأمر.

قلت متحمساً: ليس له علاقة بالطبع.

نظر بوارو متأملاً وقال: إن لك تأثيراً غريباً عليّ يا هيستنغز؛ لك موهبة راسخة في اختيار الاتجاه الخاطئ بحيث تكاد تغريني باتباعه! إنك من ذلك النوع من الرجال الذي يثير الإعجاب... النزيه الطيب الساذج الذي يستطيع أي وغد أن يخدعه. أنت من النوع الذي يستثمر أمواله في حقول نفط لا أمل فيها ومناجم ذهب غير موجودة! ويجد المحتالون في المئات من أمثالك مصدراً للقمة عيشهم. آه، حسناً، سوف أدرس حالة القبطان تشالنجر هذا، فقد أيقظت شكوكي.

صحت غاضباً: يا عزيزي بوارو، كلامك هذا سخيف تماماً. إن رجلاً مثلي خبر الدنيا...

قال بوارو بأسف: لا يتعلم أبداً. إنه أمر محير، لكنه الواقع.

- هل تعتقد أنني كنت سأحقق نجاحاً في مزرعتي في الأرجنتين لو كنت من النوع الساذج المغفل كما تقول؟

- لا تغضب يا صديقي؛ لقد نجحت في مشروعك هذا نجاحاً عظيماً... أنت وزوجتك.

- بيلاً تهتدي برأيي دائماً.

- إنها حكيمة بقدر ما هي فاتنة، فلا تدعنا نتشاجر يا صديقي. انظر، هناك أمامنا لوحة مكتوب عليها «ورشة موت للسيارات» وأعتقد أنها الورشة التي ذكرتها الآنسة باكلي. ستدلنا بضعة أسئلة على حقيقة تلك المسألة الصغيرة.

دخلنا الورشة وقدم بوارو نفسه بقوله إن الآنسة باكلي هي التي

نصحته بالتعامل مع تلك الورشة. سأل بعض الأسئلة عن استئجار سيارة لاستخدامها بعد الظهر، ومن هناك عرّج بسهولة على موضوع العطل الذي تعرضت له سيارة الآنسة باكلي قبل مدة قصيرة، وعلى الفور أصبح صاحب الورشة مهذاراً؛ قال إن ذلك أغرب ما رآه، ثم بدأ باستخدام عبارات فنية. وللأسف فأنا لست صاحب عقلية ميكانيكية وأظن أن بوارو أقل مني فهماً في أمور الميكانيك، ولكن حقائق معينة ظهرت واضحة، فقد عبث شخص ما بالسيارة، كما أن العطل كان شيئاً يمكن عمله بسهولة وفي وقت قصير للغاية.

قال بوارو عندما خرجنا: هكذا إذن؟ كانت مادج الصغيرة على حق والسيد لازاروس الثري على خطأ. هذا الأمر مثيرٌ جداً يا صديقي هيستنغز.

- ماذا نفعل الآن؟

- نقوم بزيارة مكتب البريد ونرسل برقية إذا لم يكن الوقت متأخراً.

- برقية؟

- نعم، برقية.

كان مكتب البريد ما يزال مفتوحاً، فكتب بوارو برقية وأرسلها.

لم يتعطف عليّ بأي معلومات حول محتوياتها، وحين أحسست أنه يريد مني أن أطلب منه ذلك امتنعت عن ذلك الطلب. قال عندما كنا عائدين إلى الفندق: مزعج أن يكون غداً يوم الأحد، فلن نستطيع زيارة السيد فايس حتى صباح الإثنين.

- يمكنك أن تراه في بيته.

- طبعاً، ولكن هذا ما أحرص على أن لا أفعله. أفضّل أولاً أن أستشيره استشارة مهنية حتى أكوّن حكمي عنه من تلك الناحية.

قلت متأملاً: نعم، أظن أن ذلك أفضل.

- الإجابة على سؤال قصير بسيط قد تعني الكثير. لو أن السيد تشارلز فايس كان في مكتبه في الساعة الثانية عشرة والنصف من صباح اليوم فإنه لا يمكن أن يكون هو الذي أطلق الرصاصة في حديقة فندق ماجستيك.

- ألا ينبغي علينا التأكد من مكان وجود الثلاثة الذين يقيمون في الفندق ساعة وقوع الحادث؟

- هذا أكثر صعوبة. سيكون من السهل بالنسبة لأي منهم ترك الآخرين بضع دقائق ليخرج بسرعة من إحدى الأبواب العديدة... باب الردهة أو غرفة التدخين أو غرفة الاستقبال أو غرفة الكتابة، دون أن يراه أحد، ثم يمضي إلى المكان الذي كانت الفتاة ستمر منه لا محالة، فيطلق الرصاصة ثم يعود أدراجه بسرعة. كما أننا لسنا متأكدين من أننا قد وصلنا إلى كل الشخصيات في هذه المسرحية. مثلاً إيلين المحترمة وزوجها الذي لم نره حتى الآن، كلاهما من المقيمين في البيت ومن المحتمل أنهما يحقدان على آنستنا الصغيرة لسبب لا نعرفه. وهذان الأستراليان المجهولان اللذان يقيمان في بيت الحراسة، وقد يكون للآنسة باكلي أصدقاء مقرّبون آخرون لا يوجد لديها ما يدعوها إلى الشك فيهم وبالتالي لم تذكرهم لنا... لا أملك إلا أن أحس بأن وراء هذا الأمر شيئاً يا هيستنغز، شيئاً لم

يظهر إلى الوجود بعد. لديّ فكرة صغيرة بأن الآنسة باكلي تعرف أكثر مما أخبرتنا.

- هل تعتقد بأنها تخفي عنا شيئاً؟

- نعم.

- ربما بهدف حماية شخص ما؟

هز بوارو رأسه نافياً بكل قوته وقال: لا، لا. لقد تركت لديّ انطباعاً بأنها فتاة صريحة تماماً فيما يتعلق بهذا الموضوع. أنا مقتنع بأنها أخبرتنا بكل ما تعرفه عن تلك المحاولات التي استهدفت حياتها، ولكن يوجد شيء آخر... شيء تعتقد أنه لا علاقة له بهذا الأمر أبداً. وأريد أن أعرف ما هو هذا الشيء لأنني أنا (وأقولها بكل تواضع) أنا أكثر ذكاء من فتاة جميلة كهذه. أنا هيركيول بوارو قد أرى صلة لهذا الشيء بالحادث بينما هي لا ترى ذلك، وقد يعطيني المفتاح الذي أبحث عنه لحل هذا اللغز. ولذلك فإنني أعلن لك -يا هيستنغز- بصراحة تامة وبتواضع شديد أنني كما وصفتني أنت: محتار تماماً. وإلى أن أتوصل إلى فكرة عن السبب الذي يقف وراء هذا كله فسأظل أجهل الموضوع. لا بد أن في الأمر شيئاً، عنصراً ما في القضية لا أعرفه. ما هو؟ إنني أسأل نفسي دائماً: ما هو هذا الشيء؟

قلت مهدّئاً: ستعرفه.

قال حزيناً: ولكنني أخشى أن لا أعرفه إلا بعد فوات الأوان.

* * *

الفصل الخامس

السيد كروفت وزوجته

في فندق ماجستيك كانت مادج باكلي تتناول العشاء مع أصدقائها ولوّحت لنا بيدها تحيينا بمرح ونشاط. ارتدت في ذلك المساء ثوباً قرمزياً فضفاضاً من الشيفون وقد برزت من أعلاه رقبتها ورأسها الصغير الطائش ذو الشعر الأسود.

قلت: فتاة شيطانة فاتنة.

- على النقيض من صديقتها، أليس كذلك؟

كانت فريدريكا رايس ترتدي ثوباً أبيض، وقد بدت واهنة ضجرة بعكس الحيوية التي بدت بها مادج. قال بوارو فجأة: إنها جميلة جداً.

- من؟ مادج؟

- لا، بل الأخرى. لكن هل هي شريرة؟ هل هي طيبة؟ أم هي

مجرد فتاة تعسة؟ لا أعرف؛ إنها لغز غامض. قد لا تكون أي شيء أبداً، ولكن اعلم يا صديقي أنها مهمة في هذه القضية.

سألته بفضول: ماذا تعني؟

هز رأسه وهو يبتسم وقال: ستعرف ما أعنيه عاجلاً أو آجلاً، تذكّر كلماتي.

وعلى الفور ولشدة دهشتي وقف قائماً. كانت مادج قد ابتعدت مع جورج تشالنجر، أما فريدريكا ولازاروس فقد بقيا جالسَين حول الطاولة. توجّه إليهما بوارو مباشرة وتبعته بدوري. كانت أساليبه مباشرة وفي صلب الموضوع، وضع يده على ظهر أحد الكراسي وقال: هل تأذنين؟

ثم جلس عليه وقال: إنني حريص على تبادل كلمتين معك في غياب صديقك.

- نعم.

كان صوتها فاتراً لا مبالياً.

- سيدتي، لا أدري إن كانت صديقتك قد أخبرتك أم لا. إذا لم تكن قد فعلت فسوف أخبرك أنا، لقد حاول أحدهم الاعتداء على حياتها اليوم.

اتسعت عيناها الرماديتان الواسعتان من الرعب وقالت: ماذا تقصد؟

- لقد أُطلقَت رصاصةٌ على الآنسة باكلي في حديقة الفندق.

ابتسمت فجأة ابتسامة لطيفة حزينة فيها شيء من الارتياب وقالت: وهل مادج هي التي أخبرتك بذلك؟

- لا يا سيدتي، لقد صدف أن رأيت ذلك بأم عيني، وها هي الرصاصة.

مدّ لها يده التي فيها الرصاصة فتراجعت إلى الوراء قليلاً وهي تهتف: ولكن، ولكن...

- إنه ليس من نسج خيال الآنسة، أنا واثق من ذلك. كما أن هناك المزيد؛ فقد وقعت عدة حوادث غريبة جداً خلال الأيام القليلة الماضية. ولو قلتِ إنك كنت ستسمعين بذلك لو حدث فإنني أقول: لا، ما كنت لتسمعي، إذ لم تصلي إلى هنا إلا بالأمس. أليس كذلك؟

- بلى، بالأمس.

- وقد علمت أنك أقمت قبل ذلك مع أصدقاء في تافيستوك؟

- نعم.

- ترى ما أسماء الأصدقاء الذين أقمت معهم هناك يا سيدتي؟

رفعت حاجبيها من الدهشة وسألته ببرود: هل من سبب يجعلني أخبرك بذلك؟

انقلب بوارو على الفور لتصنّع الدهشة البريئة وقال: أرجو المعذرة يا مدام، لقد كنت في غاية الحمق، ولكن لي أنا أيضاً

أصدقاء في تافيستوك وظننت أنك ربما قابلتهم هناك... عائلة بوكانان، إنهم أصدقائي.

هزت السيدة رايس رأسها بالنفي وقالت: لا أتذكرهم، لا أظن أنني التقيت بهم.

صارت نبرة صوتها ودّية وقالت: لا نريد أن نتحدّث عن أناس مملّين. أكمل كلامك بخصوص مادج، مَن الذي أطلق عليها النار؟ ولماذا؟

- لا أعرف مَن يكون... حتى الآن، لكنني سأعرف. نعم، سوف أعرف. أنا رجل تحر كما تعلمين واسمي هيركيول بوارو.

- اسم مشهور جداً.

- هذا من لطفك يا سيدتي.

قالت ببطء: ما الذي تريد مني عمله؟

أظن أنها فاجأتنا نحن الاثنين بهذا السؤال، إذ لم نكن نتوقع منها ذلك. قال بوارو: سأطلب منك أن تحرسي صديقتك يا سيدتي.

- سأفعل.

- هذا كل ما عندي.

نهض وانحنى لها انحناءة سريعة، ثم عدنا إلى طاولتنا. قلت: بوارو، ألست تكشف عن أوراقك بشكل واضح جداً؟

- وما الذي يمكنني عمله غير ذلك يا صديقي؟ إنه تصرف

يخالف الذكاء والدهاء ولكنه يفضي إلى السلامة، فلا يمكنني المجازفة. على أية حال ثمة أمر واحد يبرز واضحاً للعيان.

- وما هو؟

- السيدة رايس لم تكن في تافيستوك.

- أين كانت؟

- لا أعرف، لكنني سأعرف؛ فيستحيل إخفاء المعلومات عن هيركيول بوارو. انظر، ها قد عاد لازاروس الوسيم. إنها تخبره، إنه ينظر إلينا. إنه ذكي، انظر إلى شكل رأسه. آه، ليتني أعرف...

عندما سكت ولم يكمل سألته: ماذا؟

أجاب بشكل مبهم: ما سأعرفه يوم الاثنين.

نظرت إليه ولم أقل شيئاً. تنهّد بوارو وقال: لم تعد فضولياً يا صديقي، فيما مضى...

قلت ببرود: هناك بعض المتع التي يحسن بك أن تتخلى عنها.

- ماذا تقصد؟

- متعة رفضك الإجابة على الأسئلة.

- هذا تهكم.

- صحيح تماماً.

* * *

كان اليوم التالي هو يوم الأحد. كنا نجلس على المصطبة أمام الفندق وكانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف عندما نهض بوارو فجأة وقال: تعال يا صديقي، سنقوم بتجربة صغيرة. لقد تأكدت من أن السيد لازاروس والسيدة قد خرجا بالسيارة ومعهما الآنسة مادج، الساحة خالية لنا الآن.

- خالية لأي غرض؟

- سترى.

نزلنا الدرجات وعبرنا أرضاً مكسوة بالعشب حتى وصلنا إلى البحر. كان اثنان من السابحين يخرجان منه، ومرّا من جانبنا يضحكان ويتحدثان. وعندما ذهبا مشى بوارو إلى حيث توجد بوابة صغيرة لا تلفت النظر يعلوها الصدأ وعليها كلمات مطموسة «البيت الأخير، سكن خاص».

لم نرَ أحداً، فعبرنا البوابة بهدوء. وبعد دقيقة وصلنا إلى مرجة عشبية تمتد أمام البيت. لم يكن ثمة أحد، وسار بوارو إلى حافة المنحدر الصخري ونظر إلى أعلى، ثم عاد نحو البيت. كان الباب الزجاجي المفضي إلى الشرفة مفتوحاً فدخلنا منه لنجد أنفسنا في غرفة الاستقبال. لم يُضِع بوارو أي وقت هناك، بل فتح الباب وخرج إلى الصالة، ومن هناك صعد السلم وأنا وراءه. ذهب إلى غرفة نوم مادج مباشرة وجلس على حافة السرير وأومأ لي برأسه قائلاً وعيناه تطرفان: هل ترى يا صديقي كم هو سهل؟ لم يرَنا أحدٌ حين دخلنا ولن يرانا أحدٌ ونحن نخرج. يمكننا أن نعمل أي شيء نريده بأمان تام، نستطيع -على سبيل المثال- أن نقرض السلك

الذي يعلق الصورة حتى ينقطع بعد ساعات قليلة. وإن افترضنا أن شخصاً ما رآنا قادمَين عن طريق الصدفة فسيكون لدينا عذر طبيعي جداً، إذا كنا معروفين كأصدقاء لصاحبة البيت.

- أتقصد أننا نستطيع استبعاد أن يكون الفاعل غريباً؟

- هذا ما أقصده يا هيستنغز. إن الذي يقوم بهذا العمل ليس مجنوناً ضالاً، بل هو أقرب إلى هذا البيت من ذلك.

استدار وخرج من الغرفة وتبعته دون أن يتكلم أحد منا. أظن أننا كنا مشوّشي التفكير. وعند منعطف الدرج وقفنا فجأة، كان هناك رجل يصعد الدرج وتوقف هو الآخر، كان وجهه في الظل ولكن تصرفه كان كمَن فوجئ وذهل. وكان هو البادئ في الكلام بصوت عال كأنه يريد تخويفنا: ماذا تفعلان هنا؟ أريد أن أعرف؟

قال بوارو: آه، السيد... كروفت كما أظن؟

- نعم، هذا اسمي. ولكن ماذا...

- هل نذهب إلى غرفة الاستقبال للحديث؟ أظن أنه أفضل.

استسلم الآخر واستدار بسرعة ونزل الدرج ونزلنا وراءه، وفي غرفة الاستقبال بعد أن أغلقنا الباب انحنى بوارو انحناءة صغيرة وهو يقول: سأقدم نفسي؛ هيركيول بوارو في خدمتك.

انفرجت أسارير الرجل قليلاً وقال ببطء: آه، أنت رجل التحري. لقد قرأت عنك.

- في الصحيفة المحلية؟

- ماذا؟ لا، بل لقد قرأت عنك عندما كنت في استراليا. أنت فرنسي، أليس كذلك؟

- بلجيكي. لا يهم... هذا هو صديقي الكابتن هيستنغز.

- أنا سعيد برؤيتك. ولكن ما هو السبب؟ ماذا تفعلان هنا؟ هل ثمة خطب ما؟

- هذا يعتمد على ما تعنيه بقولك «خطب».

- أومأ الأسترالي برأسه وبدا وسيماً رغم صلعته وتقدمه في السن، وكان جسمه قوياً ووجهه خشن الملامح وفكه السفلي بارزاً. أكثر ما يلفت النظر كان عيناه الزرقاوان الخارقتان، قال: كما ترى، فقد أحضرت معي حفنة من البندورة والخيار للآنسة باكلي. إن بستانيّها لا خير فيه، فهو كسول تافه لا يزرع شيئاً، وذلك يزعجنا كثيراً... أنا وزوجتي، ونشعر أنه من حسن الجوار أن نبذل ما نستطيع! إننا نزرع من البندورة أكثر ممّا نأكل، وينبغي للجيران أن يكونوا متعاونين متحابّين، أليس كذلك؟ دخلت كالعادة من الباب الزجاجي ووضعت السلة على الطاولة، وكنت على وشك الخروج ثانية عندما سمعت وقع أقدام وأصوات رجال. وقد استغربت ذلك، فلا يوجد عندنا الكثير من اللصوص هنا... فأحببت التأكد من أن كل شيء على ما يرام. ثم التقيت بكما على الدرج وأنتما تنزلان، وقد أدهشني ذلك قليلاً. وها أنت تقول لي الآن إنك رجل تحر، فما الأمر؟

قال بوارو مبتسماً: الأمر بسيط جداً؛ لقد وقعت للآنسة حادثة

أصابتها بالذعر في الليلة الماضية؛ فقد وقعت صورة على سريرها. ربما أخبرتك بذلك؟

- نعم، لقد نجت من الموت بأعجوبة.

- وحتى أجعل كل شيء آمناً وعدتها بإحضار سلسلة خاصة لتعليق الصورة، فليس من الخير أن تتكرر الحادثة، أليس كذلك؟ أخبرتني أنها ستخرج صباح اليوم قائلة إن بإمكاني أن آتي لأقيس المقدار الذي أحتاجه من السلك، وهكذا... فالأمر بسيط جداً.

ثم مدّ ذراعيه ببساطة طفولية والابتسامة السارّة تملأ وجهه. سحب كروفت نفساً عميقاً وقال: إذن هذا كل ما في الأمر؟

- نعم، لقد خفتَ دون سبب. إننا مواطنون ملتزمون جداً بالقانون يا صديقي.

قال كروفت ببطء: ألم أرَكما بالأمس، أمس مساء؟ مررتما أمام بيتنا الصغير عند البوابة.

- آه، نعم؛ كنتَ تعمل في الحديقة وكان من لطفك أن سلمت علينا عندما مررنا.

- هذا صحيح. حسناً، حسناً. إذن فأنت السيد بوارو الذي سمعت عنه كثيراً. أخبرني: هل أنت مشغول يا سيد بوارو؟ لأنك إن لم تكن فإنني أودّ أن تعود معي لتشرب فنجاناً من الشاي على الطريقة الأسترالية وتقابل زوجي. لقد قرأتُ عنك كل شيء في الصحف.

- هذا من لطفك يا سيد كروفت، لا شيء لدينا الآن وسنكون مسرورين.

- هذا جميل.

سألني بوارو وهو يلتفت إليّ: هل أخذت القياسات بشكل صحيح يا هيستنغز؟

أكدت له أنني أخذت القياسات بشكل صحيح ثم رافقنا صديقنا الجديد. كان كروفت ثرثاراً وقد أدركنا هذا في الحال؛ فقد حدثنا عن مسقط رأسه قرب ملبورن وعن كفاحه المبكر والتقائه بزوجته وعن جهودهما المشتركة وعن حظه الجيد في النهاية ونجاحه.

قال: عندها مباشرة قررنا السفر. كنا دائماً نحب المجيء إلى بلدنا القديم، وقد فعلنا. جئنا إلى هذا المكان من العالم وحاولنا العثور على بعض أقارب زوجتي، إذ إنهم من هذه المنطقة أصلاً، لكننا لم نستطع أن نعثر لهم على أي أثر. ثم قمنا برحلة إلى أوروبا؛ باريس وروما والبحيرات الإيطالية وفلورنسا... كل هذه الأماكن. وقد وقعت معنا حادثة قطار ونحن في إيطاليا فتحطمت زوجتي المسكينة وتكسرت. كان شيئاً قاسياً، أليس كذلك؟ أخذتها إلى أفضل الأطباء وكلهم قالوا الكلام نفسه: لا علاج لها إلا الزمن... الزمن والاستلقاء. إنها إصابة في الحبل الشوكي.

- يا له من حظ سيء!

- نعم، حظ سيء، ولكن هذا ما حدث. وكانت لديها رغبة واحدة فقط... أن تأتي إلى هنا. كانت تشعر أننا لو كان لنا بيت صغير

خاص بنا، أي بيت صغير، فإن كل شيء سيتغير. وقد رأينا كثيراً من البيوت القذرة الحقيرة، ثم وقف الحظ إلى جانبنا ووجدنا هذا. إنه بيت جميل وهادئ وبعيد، فلا سيارات تعبر من هنا ولا جيران يزعجوننا بأجهزة الحاكي، ولذا استأجرناه فوراً.

مع آخر كلمات قالها كنا قد وصلنا البيت الصغير، فصرخ بأعلى صوته: «كوووي»، وسرعان ما جاءه الجواب من داخل البيت بصرخة «كووي» مشابهة.

قال السيد كروفت: تفضّلا.

دخل من الباب المفتوح ثم صعد الدرج القصير إلى حيث توجد غرفة نوم هادئة. هناك، على الأريكة، جلست امرأة بدينة في وسط العمر ذات شعر رمادي وابتسامة جميلة جداً.

قال السيد كروفت: مَن يكون هذا بظنك؟ إنه رجل التحري المشهور ذو المكانة الرفيعة السيد هيركيول بوارو. لقد أحضرته ليتجاذب معك أطراف الحديث.

صاحت السيدة كروفت وهي تصافح بوارو بحرارة: إنه أمر مثير تعجز عن وصفه الكلمات. لقد قرأت قضية القطار الأزرق تلك وكيف صدف أن كنت موجوداً فيه، كما قرأت الكثير عن قضاياك الأخرى. منذ أن أصبت في ظهري قرأت كل القصص البوليسية الموجودة، لا شيء غيرها يمكنه أن يقتل الوقت بسرعة. عزيزي بيرت، نادي إيديث لتحضر لنا الشاي.

- حسناً يا عزيزتي.

- إيديث بمثابة الممرضة التي تسهر على راحتي. إنها تأتي كل صباح لمساعدتي فلا نريد مضايقة الخدم. بيرت طاهٍ جيد ويعتني بشؤون البيت بشكل ليس له مثيل، كما أن ذلك يشغل وقته... عمل البيت وعمل الحديقة.

صاح السيد كروفت بعد أن عاد ومعه الصينية: ها هو الشاي. هذا يوم عظيم في حياتنا يا عزيزتي.

سألته السيدة كروفت وهي تميل إلى الأمام وتمسك بإبريق الشاي: أظن أنك تقيم هنا يا سيد بوارو؟

- نعم يا سيدتي، إنني في إجازة.

- لقد قرأت أنك تقاعدت عن العمل وأنك أخذت إجازة دائمة.

- آه، يجب ألا تصدقي كل ما تطالعينه في الصحف يا سيدتي.

- هذا صحيح. إذن ما زلت تقوم بعملك؟

- عندما أجد قضية تثير اهتمامي.

سأله السيد كروفت بدهاء: أنت لم تأتِ إلى هنا للعمل بالتأكيد، أليس كذلك؟ ربما كانت تَسميتُها إجازة جزءاً من اللعبة.

قالت السيدة كروفت: عليك أن لا تسأله أسئلة محرجة يا بيرت وإلاّ فإنه لن يأتي ثانية. نحن أناس بسطاء يا سيد بوارو وأنت تفضلت علينا بمنة عظيمة بزيارتك لنا اليوم... أنت وصديقك. أنت لا تعلم مدى السعادة التي غمرتنا بها.

كانت طبيعية وصريحة في إظهار مشاعرها مما جعلني أحس بالود تجاهها. وقال السيد كروفت: كان وقوع تلك الصورة أمراً سيئاً.

قالت السيدة كروفت بحزنٍ عميق: كادت تلك الفتاة المسكينة أن تُقتل. إنها فتاة حيوية، تحيي المكان كلما جاءت إلى هنا. لكني سمعت أنها ليست محبوبة كثيراً في المنطقة. لكن هذا هو حال هذه المناطق الجامدة في إنكلترا، إنهم لا يحبون الحياة والمرح في الفتاة. لا أستغرب غيابها المستمر عن هذا المكان، كما أن فرصة ابن خالها ذي الأنف الطويل في إقناعها بالاستقرار هنا إلى الأبد لا تكاد تبلغ... تبلغ... لا أدري ماذا.

قال زوجها: لا تبدئي بالغيبة يا ميلي.

قال بوارو: آه، الريح تهب في ذلك الاتجاه إذن؟ ثق بغريزة السيدة! إذن فإن السيد تشارلز فايس يحب فتاتنا الصغيرة؟

قالت السيدة كروفت: إنه أحمق في حبها، لكنها لن تتزوج محامياً ريفياً، وأنا لا ألومها. إنه رجل فقير على أية حال. أتمنى لو أنها تتزوج ذلك البحار اللطيف تشالنجر، ستكون تلك زيجة رائعة. إنه أكبر منها سناً ولكن ماذا في ذلك؟ إن ما تحتاجه هو الاستقرار. لتكف عن هذا الترحال في طول البلاد وعرضها وحدها أو مع تلك السيدة ذات الشكل الغريب. إنها فتاة حلوة يا سيد بوارو، أعرف هذا جيداً، لكني قلقة عليها. إنها لا تبدو سعيدة جداً في الفترة الأخيرة، وهذا يقلقني. كانت لديّ أسبابي الخاصة في الاهتمام بتلك الفتاة، أليس كذلك يا بيرت؟

نهض السيد كروفت فجأة وقال: لا حاجة للخوض في هذه المسألة يا ميلي. ألا تريد أن ترى بعض الصور الخاصة بأستراليا يا سيد بوارو؟

مرت باقي الزيارة دون أحداث تذكر، وبعد عشر دقائق غادرنا. قلت: أناس طيبون، إنهم بسطاء ومتواضعون... أستراليون نموذجيون.

- هل أحببتهما؟

- ألم تحبيهما أنت؟

- كانا مريحين جداً... وودودين جداً.

- إذن ماذا بك؟ أرى أن هناك شيئاً ما.

- ربما كانا «نموذجيّين» أكثر قليلاً من المعتاد. تلك الصرخة «كووي» وذلك الإصرار على عرض الصور علينا... ألم يكن ذلك كله اندماجاً زائداً قليلاً في أداء دور؟

- يا لك من شيطان عجوز شكاك!

- أنت على حق يا صديقي. إنني أشك في الجميع وفي كل شيء، أنا خائف يا هيستنغز... خائف.

* * *

الفصل السادس

زيارة السيد فايس

اعتاد بوارو دائماً تناول الإفطار الأوروبي، وحين كان يراني آكل البيض وفطائر اللحم يتضايق ويشعر بالغم... هذا ما كان يقوله دائماً. ولذلك فقد اعتاد أن يتناول إفطاره باستمرار وهو على سريره مع القهوة والكعك، وكنت حرّاً في بدء يومي بالفطور الإنكليزي التقليدي المكون من اللحم والبيض والمربى.

نظرت إلى غرفته صباح الإثنين وأنا في طريقي إلى الطابق السفلي. كان جالساً في سريره في وضع منتصب مرتدياً ثياب نوم أنيقة. قال: صباح الخير يا هيستنغز. كنت على وشك الاتصال بك بالهاتف، هذه الرسالة كتبتها لتوّي، ألا تتلطف وترسلها إلى «البيت الأخير» فتسلمها إلى الآنسة على الفور؟

مددت له يدي لآخذها فنظر إليّ وتنهد قائلاً: لو أنك... لو أنك تفرق شعرك من الوسط بدلاً من الجانب يا هيستنغز، فذلك سيغيّر كثيراً من تناسق مظهرك. وشاربك... إن لم يكن بد من إطلاق شاربك فليكن شارباً حقيقياً، شارباً جميلاً مثل شاربي.

أخذت الرسالة من يد بوارو وأنا أكبت الغيظ في نفسي وغادرت. ثم عدت للانضمام إليه في غرفة جلوسنا عندما وردتنا ملاحظة تفيد بأن الآنسة باكلي قد حضرت لزيارتنا، فأعطى بوارو الأمر لإدخالها علينا.

دخلت علينا بخفة وحيوية، وقد لاحظت أن الدوائر أسفل عينيها قد بدت داكنة أكثر من المعتاد. كانت تمسك ببرقية في يدها سلمتها إلى بوارو قائلةً: هاك، أرجو أن تسعدك هذه.

قرأها بوارو بصوت مرتفع: «سأصل اليوم الساعة ٥,٣٠، ماغي».

قالت مادج: ممرضتي وحارستي! لكنك مخطئ، فماغي فتاة غبية ولا تصلح إلاّ للأعمال الخيرية. فريدي أفضل منها بكثير في كشف القتلة المتخفّين، كما أنّ جيم لازاروس سيكون بوضع أفضل إذ سيرتاح منها. لا أشعر أبداً بأن أحداً يعرف حقيقة جيم.

- وماذا عن القبطان تشالنجر؟

- جورج؟ لا يمكنه أبداً أن يرى شيئاً إلا إذا كان تحت أنفه، لكنه عندما يرى فإنه يفعل اللازم. إن جورج مفيد جداً فيما يتعلق بالمواقف الحرجة.

خلعت قبعتها وأكملت تقول: أعطيت أوامري بإدخال الرجل الذي كتبتَ لي عنه، ولكن الأمر يبدو غامضاً. هل تريده أن يركّب جهاز تسجيل أو شيئاً من هذا القبيل؟

هزّ بوارو رأسه نافياً وقال: لا، لا، لا يتعلق الأمر بشيء

علميّ. إنها مسألة بسيطة جداً تتعلق بإبداء رأيي يا آنسة، شيء أردت معرفته.

- آه، جيد. الأمر كله ممتع جداً، أليس كذلك؟

رد عليها بوارو بلطف وهدوء: أحقاً يا آنسة؟

وقفت دقيقة تدير لنا ظهرها وتنظر خارج النافذة، ثم استدارت إلينا وقد فارقت وجهها كلُّ الجرأة والشجاعة. كانت تحاول إبعاد وجهها عنا وهي تغالب الدموع، وقالت: لا، إنه... إنه ليس ممتعاً حقاً. أنا خائفة خوفاً شديداً، أنا التي كنت أظن دوماً أنني شجاعة.

- أنت كذلك يا فتاتي، أنت كذلك. لقد أعجبت أنا وهيستنغز بشجاعتك.

تدخلت أنا بحرارة: نعم، بالفعل.

قالت مادج وهي تهزّ رأسها بالنفي: لا، لست شجاعة. إنه، إنه الانتظار. أتساءل طول الوقت إن كان سيحدث أي شيء آخر وكيف سيحدث... وأتوقع حدوثه.

- نعم، نعم، إنه التوتر.

- لقد سحبت سريري في الليلة الماضية إلى وسط الغرفة وأغلقت نافذة غرفتي وأغلقت بابها بالمزلاج، وعندما جئت إلى هنا هذا الصباح استخدمت الطريق العام. لم... لم أستطع المرور عبر الحديقة، وكأن أعصابي قد خانتني فجأة. إنه هذا الأمر الذي جاء تتويجاً لكل الأمور الأخرى.

- ماذا تعنين بهذا بالضبط يا آنسة؟ بقولك تتويجاً لكل الأمور الأخرى؟

سكتت لحظة ثم قالت: لا أعني شيئاً محدداً بعينه. يبدو أنني أصبت... أصبت بشكل سخيف من أشكال الغضب والانفعال.

كانت قد جلست على كرسي وأخذت تعبث بأصابعها من العصبية.

- أنت لم تكوني صريحة معي يا آنسة. هناك شيء ما.

- لا يوجد شيء، لا شيء حقاً.

- يوجد شيء لم تخبريني عنه.

- لقد أخبرتك عن كل شيء حتى الأشياء الصغيرة.

كانت تتكلم بصدق وجدية، فقال بوارو: أخبرتني بخصوص تلك الحوادث... بخصوص حوادث الاعتداء عليك، نعم.

- ماذا إذن؟

- لكنك لم تخبريني عن كل شيء في قلبك، في حياتك.

قالت بتمهل: وهل يمكن لأحد أن يفعل ذلك؟

قال بوارو مَزهوّاً: آه، إذن فأنت تعترفين.

هزّت رأسها نافية، وراقبها بوارو مراقبة دقيقة ثم قال بدهاء: أليس السر سرك؟

أظن أنني لحظت رموشها تطرف لحظة، لكنها أسرعت

تقول فجأة: الحق يا سيد بوارو أنني أخبرتك عن كل شيء أعرفه بخصوص هذا العمل السخيف. إن كنت تعتقد أنني أعرف بعض الأمور عن شخص آخر أو أن لديّ شكوكاً معينة فأنت مخطئ، وإن عدم وجود شكوك هو ما يدفعني إلى القلق، لأنني لست حمقاء ويوسعي أن أفهم أن تلك الحوادث إن لم تكن حوادث فعلاً فهذا يعني أنها -لا شك- من تخطيط وعمل شخص قريب مني جداً، شخص... يعرفني. وهذا ما يجعل الأمر مخيفاً جداً؛ لأنني لا أملك أي فكرة أبداً عمّن يمكن أن يكون هذا الشخص.

ثم ذهبت مرة أخرى إلى النافذة ووقفت تنظر هناك، وأشار بوارو إليّ بعدم الكلام. أعتقد أنه كان يأمل منها كشف المزيد بعد أن انهارت سيطرة الفتاة على نفسها، وعندما تكلمت كانت نبرة صوتها مختلفة، تكلمت بصوت حالم قادم من بعيد قائلة: أتعرف ما هي الأمنية الغريبة التي كنت أتمناها دوماً؟ أنا أحب «البيت الأخير» وقد شعرت دائماً بالرغبة في إخراج مسرحية فيه. إن فيه جواً من الدراما، لقد تخيلت كل أنواع المسرحيات تُمثَّل فيه، والآن يبدو الأمر وكأن دراما معينة يجري تمثيلها فيه. إلا أنني لست المخرجة، بل إنني أمثّل فيها... إنني فيها تماماً! ربما أكون الممثلة التي... التي تموت في المشهد الأول.

ثم انقطع صوتها من الانفعال، فسارع بوارو إلى تهدئتها وطمأنتها قائلاً بمرح وخفة: هوّني عليك يا آنسة، هذا لن يفيد... هذه هي الهستيريا.

التفتت ونظرت إليه بحدة وسألته: هل أخبرتك فريدي أنني

أصاب بالهستيريا؟ أحياناً تقول هذا عني، ولكن يجب أن لا تصدق ما تقوله فريدي دائماً. أحياناً... أحياناً تكون على غير طبيعتها.

- أخبريني يا آنسة، هل تلقيت أي عرض لبيع «البيت الأخير»؟

- لا.

- هل كنت ستفكرين في بيعه لو تلقيتِ عرضاً جيداً؟

فكرت مادج قليلاً ثم قالت: لا، لا أظن ذلك. لن أبيعه إلا إذا كان العرض سخياً إلى درجة السخف، مما يجعل رفضه حماقة تامة. لا أريد أن أبيعه لأنني أحبه.

ذهبت مادج إلى الباب بخطوات متثاقلة ثم قالت: بالمناسبة، ستجري ألعاب نارية هذه الليلة. هل ستأتي؟ العشاء في الساعة الثامنة وتبدأ الألعاب النارية في التاسعة والنصف. يمكنك أن تراها من الحديقة التي تطل على الميناء.

- يسرني هذا!

قالت مادج: كلاكما بالطبع.

قلت: شكراً جزيلاً.

قالت مادج: لا يوجد مثل هذه الحفلة لإنعاش الروح المعنوية الهابطة. ثم ضحكت ضحكة قصيرة وخرجت.

قال بوارو: طفلة مسكينة.

تناول قبعته ونفض عنها ذرة غبار لا تكاد ترى، وسألته: هل نحن خارجون؟

- أجل، نريد إجراء استشارة قانونية يا صديقي.

- بالطبع، فهمت.

- إن واحداً في مثل ذكائك لا بد أن يفهم يا هيستنغز.

كانت مكاتب شركة المحاماة «فايس وتريفانيون ووينارد» في الشارع الرئيسي للبلدة. صعدنا الدرج إلى الطابق الأول ودخلنا غرفة حيث كان ثلاثة موظفين مشغولين بالكتابة، وطلب بوارو رؤية السيد تشارلز فايس. تمتم أحد الموظفين ببضع كلمات بالهاتف، وواضح أنه تلقى رداً بالإيجاب فقد قال إن السيد فايس سيرانا الآن.

قادنا الموظف في الممر وطرق أحد الأبواب ثم تنحى جانباً لكي نعبر إلى الغرفة، ونهض السيد فايس لتحيتنا خلف مكتب ضخم تغطيه الأوراق والمستندات القانونية.

كان شاباً طويل القامة شاحب اللون ذا ملامح هادئة وصلعة بدأت تزحف على صدغيه، وكان يضع نظارة، أما بشرته فكانت بيضاء عادية. كان بوارو مستعداً لهذا اللقاء، ولحسن الحظ كان يحمل معه اتفاقية لم تكن موقَّعة بعد وفيها بعض النقاط الفنية التي أراد استشارة السيد فايس بشأنها.

استطاع السيد فايس بكلماته الدقيقة والموزونة بعناية تهدئة شكوك بوارو المزعومة وتوضيح بعض النقاط الغامضة في صياغة الاتفاقية. فقال بوارو: أنا ممتنّ لك كثيراً، إذ إن هذه المسألة والتعابير القانونية صعبة جداً عليّ كأجنبي.

عندها سأله السيد فايس عن الذي أرسله إليه، فأجابه بوارو

على الفور: الآنسة باكلي، إنها ابنة عمتك، أليس كذلك؟ فتاة رائعة جداً. حدث أن ذكرتُ أمامها أنني محتار فأوصتني بالحضور إليك، وحاولت رؤيتك صباح السبت... في الساعة الثانية عشرة والنصف تقريباً، لكنك كنت خارج مكتبك.

- نعم، أذكر هذا. لقد تركت المكتب في وقت مبكر من يوم السبت.

- لا بد أن الآنسة ابنة عمتك تشعر بالوحشة الشديدة في ذلك البيت الواسع؟ لقد علمت أنها تعيش فيه وحيدة.

- هذا صحيح.

- أخبرني يا سيد فايس، إن جاز لي أن أسألك: هل ثمة فرصة لعرض ذلك البيت للبيع؟

- لا أظن ذلك أبداً.

- أرجو أن تعلم أنني لا أسألك ذلك عبثاً؛ فلديّ سبب وجيه. أنا أبحث عن بيت شبيه، فمناخ سينت لو يسحرني. صحيح أن البيت يبدو في حالة سيئة وأظن أنه لم تتوفر الأموال اللازمة لإصلاحه وصيانته، ووفقاً لهذه الظروف هل يمكن أن تنظر الآنسة في عرض يقدم لها لشرائه؟

قال تشارلز فايس وهو يهز رأسه بحزم: ليس ذلك محتملاً أبداً، فابنة عمتي تحب هذا البيت حباً جنونياً ولا شيء يمكن أن يغريها ببيعه. إنه بيت العائلة كما تعلم.

- أنا أدرك هذا، ولكن...

- إنها مسألة غير واردة أبداً. أعرف ابنة عمتي، إنها تحب البيت حباً جنونياً.

* * *

بعد دقائق قليلة كنا نسير في الشارع ثانية. قال بوارو: حسناً يا صديقي، ما هو الانطباع الذي أخذته عن هذا السيد تشارلز فايس؟

فكّرت قليلاً ثم قلت: انطباع سيء؛ إنه شخص سلبي على نحو غريب.

- ألا تعتقد أنه ضعيف الشخصية؟

- بلى، بالفعل. إنه من النوع الذي لا تتذكره أبداً إذا ما التقيت به ثانية... شخص عادي تماماً.

- مظهره غير ملفت للنظر بالتأكيد. لكن هل لمست أي تناقض خلال حديثنا معه؟

قلت ببطء: نعم، لاحظت؛ بخصوص بيع «البيت الأخير».

- بالضبط. هل كان من شأنك أن تصف موقف الآنسة باكلي من «البيت الأخير» بأنه حب جنوني.

- إنها عبارة قوية جداً.

- نعم، كما أنه ليس من عادة السيد فايس استخدام عبارات

قوية. إن موقفه الطبيعي -باعتباره محامياً- هو أن يخفف العبارات لا أن يضخّمها، ومع ذلك فإنه يقول إن الآنسة تحب بيت أجدادها حباً جنونياً.

- إنها لم تعطِ هذا الانطباع صباح اليوم. لقد تكلمت بشأن البيت بأسلوب معقول جداً، صحيح أنها تحب البيت -كما هو واضح- كأي شخص في موقفها، ولكن ليس أكثر من ذلك بالتأكيد.

قال بوارو متأملاً: لذلك فإن أحدهما يكذب.

- ليس من شأن امرئ أن يشك في فايس كاذباً.

- هذا في حد ذاته رصيد ضخم لكل من ينوي الكذب. نعم، إن هذا الرجل يبدي مصداقية كمصداقية جورج واشنطن. هل لاحظت شيئاً آخر يا هيستنغز؟

- ما هو؟

- لم يكن في مكتبه في الساعة الثانية عشرة والنصف من يوم السبت.

* * *

الفصل السابع
مأساة

كانت مادج أول شخص نراه عندما وصلنا إلى «البيت الأخير» في ذلك المساء. كانت تقفز من مكان إلى آخر في الصالة مرتدية ثوباً رائعاً فضفاضاً عليه رسم تنين، وقالت: آه! أنتما فقط؟

- آنستي، إنني مكتئب.

- أعرف، تبدو عبارتي غير لائقة حقاً ولكنني أنتظر وصول ثوبي. لقد وعدني أولئك الكاذبون... وعدوني بإحضاره!

- آه، إذن هي مسألة ثوب؟ هل ستحتفلين في هذه الليلة؟

- نعم، سنقيم حفلة بعد انتهاء الألعاب النارية... أعني أنه من المفترض ذلك.

انخفض صوتها فجأة، ولكن سرعان ما عادت لتضحك وقالت: لا تستسلم أبداً، هذا هو شعاري. إن لم تفكر بالمتاعب فإنها لن تأتيك! لقد استعدت السيطرة على أعصابي وسأكون مرحة في هذه الليلة.

سمع الجميع وقع خطوات على الدرج، التفتت مادج وقالت: آه، ها هي ماغي. ماغي، ها هما رجلا التحري اللذان يتوليان حمايتي من القاتل السري. خذيهما إلى غرفة الاستقبال ودعيهما يخبرانك عن الأمر.

وبدورنا صافحنا ماغي باكلي التي أخذتنا إلى غرفة الاستقبال كما طلب منها، وقد كوّنتُ رأياً إيجابياً عنها على الفور. أظن أن مظهرها العقلاني الهادئ هو ما جذبني كثيراً نحوها؛ كانت فتاة هادئة جميلة حسب المفهوم القديم، أي أنها ليست متأنقة بالتأكيد. كان وجهها خالياً من مساحيق التجميل وترتدي ثوب سهرة أسود بسيطاً حتى ليكاد يكون رثّاً. كانت عيناها زرقاوين صريحتين وصوتها جميلاً بطيئاً. قالت: أخبرتني مادج عن أمور مدهشة جداً، لا بد أنها كانت تبالغ. مَن هذا الذي يريد إيذاء مادج؟ لا يمكن أن يكون لها عدو أبداً.

ظهر عدم التصديق واضحاً في نبرة صوتها. كانت تنظر إلى بوارو بطريقة فيها شيء من عدم المجاملة، وأدركت أن فتاة مثل ماغي باكلي تنظر إلى الأجانب نظرة ريب وشك.

قال بوارو بهدوء: ومع ذلك أؤكد لك أن ما قالته لك حقيقة يا آنسة باكلي.

لم ترد عليه لكن علامات عدم التصديق ظلت بادية على وجهها. قالت: تبدو مادج كمَن أصابه مس هذه الليلة. لا أدري ما الذي أصابها، إنها تبدو روحاً بالغة الجموح.

ذلك الوصف جعل أوصالي ترتجف، فالإسكتلنديون يستخدمونه لوصف النشاط الذي يسبق الموت. كما أن شيئاً في نبرة صوتها جعلني أتعجب. وسألتها بلا تفكير: هل أنت إسكتلندية يا آنسة باكلي؟

قالت: أمي إسكتلندية.

لاحظت أنها نظرت إليّ باستحسان أكثر ممّا أبدته لبوارو، وأحسست أن كلامي عن القضية سيكون له وزن عندها أكثر من كلام بوارو معها. قلت: إن ابنة عمك تتصرف بشجاعة عظيمة؛ لقد أصرت أن تواصل حياتها كالمعتاد.

قالت ماغي: إنها الطريقة الوحيدة... أقصد: مهما كانت مشاعر المرء الداخلية فمن غير المفيد إحداث ضجة حولها، فذلك لن يؤدي إلاّ إلى إقلاق راحة الآخرين.

سكتت قليلاً ثم أضافت بصوت هادئ: أنا أحب مادج كثيراً، فقد كانت طيبة معي دائماً.

لم يكن بوسعها أن تقول المزيد، ففي تلك اللحظة دخلت فريدريكا رايس الغرفة، وكانت ترتدي ثوباً أزرق وبدت شديدة الضعف والرقة. ثم دخل لازاروس وراءها فوراً، ثم دخلت مادج وهي تثب وثباً. كانت ترتدي ثوباً أسود وتلفّ كتفيها بوشاح صيني قديم زاهي الحمرة.

قالت: مرحباً يا جماعة.

قال لازاروس يخاطبها: إنه وشاح رائع يا مادج، وهو قديم، أليس كذلك؟

- بلى. لقد أحضره عمي الكبير تيموثي من أحد أسفاره.

- إنه جميل، جميل بحق. لن تجدي له مثيلاً اليوم مهما بحثت.

قالت مادج: إنه يشعرني بالدفء وسيكون مفيداً عندما نراقب الألعاب النارية، كما أنه ذو لون زاه مفرح. أنا... أنا أكره اللون الأسود.

قالت فريدريكا: نعم، لا أظن أنني رأيتك بثوب أسود من قبل أبداً يا مادج. لماذا ارتديته؟

- آه، لا أدري. ولماذا يفعل الإنسان أي شيء؟

بعد ذلك دخلنا لتناول العشاء. ظهر خادم غامض، أظن أنه مستأجَر لهذه المناسبة بصورة خاصة، وكان الطعام اعتيادياً.

قالت مادج: لم يأتِ جورج. من المزعج أن يضطر للعودة إلى بلايموث الليلة الماضية. أظن أنه سيحضر في وقت ما في هذا المساء، سيأتي في موعد الحفل على كل حال.

سُمع صوت هدير خافت عبر النافذة، فقال لازاروس: آه، تباً لتلك الزوارق السريعة؛ لقد سئمت منها.

قالت مادج: إنه ليس زورقاً بل طائرة مائية.

- أظن أنك على صواب.

- أنا على صواب بالطبع، الصوت مختلف تماماً.

- متى ستشترين طائرة يا مادج؟

قالت ضاحكة: عندما أستطيع جمع المبلغ.

- أظن أنك سترحلين عندها إلى أستراليا مثل تلك الفتاة... ما اسمها؟

- كم أتمنى ذلك!

قالت السيدة رايس بصوتها المتعب: أنا معجبة بها كثيراً؛ أية أعصاب رائعة تلك! إنها تطير وحدها دائماً.

قال لازاروس: أنا معجب بكل أولئك الطيارين. لو أن مايكل ستين نجح في طيرانه حول العالم لأصبح بطل هذا الزمان وبكل جدارة. من المؤسف أن ينتهي بهذا الشكل المحزن، إنه رجل لا تحتمل إنكلترا خسارته.

قالت مادج: ربما لم يزل بخير.

- صعب جداً، الاحتمال الآن واحد من ألف. مسكين هذا المجنون ستين.

سألت فريدريكا: إنهم يسمونه دائماً المجنون ستين، أليس كذلك؟

أومأ لازاروس موافقاً وقال: إنه ينحدر من أسرة مجنونة. عمه السير ماثيو ستين (الذي مات قبل أسبوع) كان أكثر الخلق جنوناً.

سألت فريدريكا: أليس هو ذلك المليونير المجنون الذي كان يدير محميات الطيور؟

- بلى، وكان يشتري الجزر لهذا الغرض، وهو من أشد الكارهين للنساء. أظن أن فتاة رفضته ذات مرة فانصرف إلى هذه الأمور ليسرّي بها عن نفسه.

أصرت مادج تقول: لماذا تقول إن ستين قد مات؟ لا أرى أي سبب يدعوك للتخلي عن أمل العثور عليه بعد.

قال لازاروس: كنت تعرفينه بالطبع، أليس كذلك؟ لقد نسيت.

قالت مادج: قابلناه أنا وفريدي في لوتكيه في السنة الماضية. وكان رائعاً جداً، أليس كذلك؟

- لا تسأليني يا عزيزتي؛ لقد تعلق بك أنت لا بي. لقد أخذك معه في الطائرة مرة، أليس كذلك؟

- بلى، في سكاربورو. وكانت رحلة رائعة جداً.

سألتني ماغي بلهجة مؤدبة: هل سافرت بالطائرة يا كابتن هيستنغز؟

كان عليّ الاعتراف بأن رحلة ذهاب وعودة واحدة إلى باريس هي كل خبرتي في السفر جواً. وفجأة قفزت مادج واقفة وهي تصيح: الهاتف يرن. لا تنتظروني، فالوقت يتأخر وقد دعوت كثيراً من الناس.

ثم خرجت من الغرفة، ونظرتُ إلى ساعتي فرأيتها تشير إلى التاسعة. تم تقديم بعض الحلوى والمرطبات وبدأ بوارو ولازاروس

يتحدثان عن الفن، كان لازاروس يقول إن اللوحات الفنية صارت كثيرة جداً في السوق في هذه الأيام وما من مشترين، ثم انتقلا إلى الحديث عن الأفكار الجديدة الخاصة بالأثاث والديكور.

وسعيت أنا للقيام بواجبي عن طريق الحديث مع ماغي باكلي، ولكن ينبغي أن أعترف بأن الفتاة كانت مملة ثقيلة الظل. كانت تجيب بمرح ولكنها لم تكن تبادر في الحديث أو السؤال، وكان الحديث معها عملاً شاقاً. وجلست فريدريكا رايس صامتة حالمة ومرفقاها على الطاولة، وبدت مثل ملاك يتأمل.

كانت الساعة التاسعة والثلث عندما أطلّت مادج برأسها من الباب وقالت: هيا اخرجوا جميعاً؛ لقد وصل الجميع.

نهضنا طائعين. كانت مادج مشغولة بتحيّة القادمين الجدد. كانت قد دعت اثني عشر شخصاً، وكان بعضهم لا يثير الاهتمام. ولاحظت أن مادج كانت مضيفة جيدة، فقد تخلّت عن فذلكتها العصرية وأخذت تحيي كل ضيف بالأسلوب القديم. ولاحظت أن تشارلز فايس كان أحد المدعوين.

وعلى الفور انتقلنا جميعاً إلى مكان في الحديقة يطل على البحر والميناء. كانت بعض الكراسي قد وُضعت من أجل كبار السن، ولكن القسم الأكبر ظل واقفاً. وارتفع أول صاروخ ناري في السماء واشتعل، وفي تلك اللحظة سمعت صوتاً عالياً مألوفاً، فأدرت رأسي فرأيت مادج تحيي السيد كروفت. كانت تقول: من المؤسف أن لا تستطيع السيدة كروفت الحضور إلى هنا. كان يجب أن نحملها على كرسي نقال أو شيء كهذا.

- حظها سيء دون شك، لكنها لا تشتكي أبداً. إنها تملك أحلى طبيعة... ها، هذه جيدة.

قالها عندما ظهرت في السماء شهب ذهبية تتساقط كالمطر من انفجار لعبة نارية. كانت الليلة حالكة الظلمة لا قمر فيها، إذ كان الشهر القمري الجديد سيبدأ بعد ثلاثة أيام، كما كانت الأمسية باردة كأية أمسية صيفية. ارتعدت ماغي باكلي التي كانت تقف إلى جانبي وقالت: سأدخل بسرعة لأحضر معطفاً.

- دعيني أحضره لك.

- لا، لن تعرف مكانه.

استدارت واتجهت إلى البيت، وفي تلك اللحظة ارتفع صوت فريدريكا رايس قائلاً: ماغي، أحضري معطفي أيضاً، إنه في غرفتي.

قالت مادج: لا أظنها سمعتك. سأحضره لك يا فريدي، فأنا أريد إحضار معطفي؛ فهذا الوشاح لا يعطيني الدفء الكافي. إن هذه الريح باردة.

كان هناك بالفعل نسيم قوي بارد يهب من البحر. وبدأت بعض العروض النارية في الخليج، ثم شرعت في الحديث مع سيدة كهلة كانت تقف بجانبي فأخذت تمطرني بوابل من الأسئلة المتلاحقة عن الحياة والعمل والأذواق ومدة إقامتنا المحتملة.

بانغ! ملأ السماءَ رذاذٌ من النجوم النارية الخضراء ثم تحولت إلى الأزرق ثم الأحمر ثم الفضي، مرة أخرى ثم أخرى غيرها.

قال بوارو الذي اقترب مني فجأة وهو يهمس في أذني: آه! هذا ما يقوله المرء عند رؤيته هذه الأشياء. وفي نهاية الأمر تصبح كلمات رتيبة، ألا تعتقد ذلك؟ آه، العشب، إنه رطب يبلل القدمين! سوف يصيبني هذا بالزكام، وما من أمل في الحصول على شراب زهورات جيد لعلاج ذلك.

- برد قارص؟ في ليلة رائعة كهذه؟

- ليلة رائعة؟ ليلة رائعة؟! أنت تقول هذا لمجرد أن السماء لا تمطر من أفواه القرب! تكون الليلة رائعة دوماً بالنسبة لك عندما لا تمطر السماء شيئاً، ولكن اعلم -يا صديقي- أنه لو كان معنا ميزان حرارة صغير لرأيت درجة البرودة.

قلت معترفاً: حسناً، أنا لن أمانع في ارتداء معطف.

- إنك عقلاني جداً، لقد جئتَ من بلاد ذات مناخ حار.

- سأحضر لك معطفك.

رفع بوارو أول قدم له عن العشب ثم القدم الأخرى بحركة تشبه حركة القط وقال: لا أخشى إلا رطوبة قدمي. هل تعتقد أننا يمكن أن نعثر على حذاء مطاطي خارجي؟

- ماذا تعني؟

- ذلك الحذاء الذي يُلبَس فوق الحذاء الجلدي في أيام المطر والطين.

كتمت ابتسامة كادت تظهر في وجهي وقلت: ما من أمل في

ذلك. أنت تعلم أن ذلك الحذاء لم يعد يُصنَع يا بوارو.

- إذن سوف أجلس في البيت. هل أؤذي نفسي من أجل عرض صاخب للألعاب النارية؟ وقد أُصاب بالتهاب الرئة.

عدنا أدراجنا نحو البيت وما زال بوارو يتمتم ساخطاً. وسمعنا تصفيقاً عالياً قادماً من الخليج أسفل منا حيث انطلقت شعلة نارية أخرى في السماء، ومرت عبر الخليج سفينة مكتوب عليها «مرحبا بزوارنا».

قال بوارو متأملاً: نحن جميعاً أطفال من الداخل؛ الألعاب النارية، الحفلة، اللعب بالكرة... نعم، حتى الساحر، الرجل الذي يخدع العين مهما اهتممت بمراقبته. لماذا نحن كذلك؟

كنت قد أمسكته من ذراعه بإحدى يديّ وأنا أشير بالثانية، وكنا على بعد مئة متر من البيت، وأمامنا تماماً بيننا وبين الباب الزجاجي المفتوح كان هناك جسد مكوَّم ملفوف بوشاح صيني قرمزي.

تمتم بوارو هامساً: يا إلهي، يا إلهي!

* * *

الفصل الثامن

الوشاح القاتل

أظن أنه لم تمرّ علينا أكثر من أربعين ثانية ونحن نقف هناك جامدَين من الرعب غير قادرين على الحركة، لكنها بدت كأنها ساعة. ثم تقدم بوارو بعد أن نفض يدي عنه وتحرك بخطوات متصلة كالآلة، وقال متمتماً بمرارة لا أستطيع وصفها في صوته: لقد حدثت. على الرغم من كل شيء... على الرغم من احتياطاتي، لقد حدثت، آه! يا لي من مجرم بائس! لم أحرسها بشكل أفضل... كان يجب أن أتوقع هذا، كان يجب أن لا أبتعد عنها لحظة واحدة.

قلت: لا تلُمْ نفسك.

التصق لساني بسقف فمي فلم أستطع النطق، وردّ عليّ بوارو بحركة أسف من رأسه، ثم جثا على ركبته بجانب الجثة. وفي تلك اللحظة تلقينا صدمة ثانية.

دوّى صوت مادح في المكان واضحاً مرحاً، وبعد لحظة ظهرت عند عتبة الباب الزجاجي وقالت: أنا آسفة يا ماغي، لقد تأخرت عنك كثيراً ولكن...

ثم سكتت وهي تحدق في المنظر أمامها. وبصرخة حادة التفت بوارو إلى الجثة الممدة على المرج، وتقدمت لأرى. نظرت إلى أسفل فرأيت وجه ماغي باكلي الميتة. وبعد قليل كانت مادج بجانبنا، وصرخت صرخة حادة: ماغي... آه، ماغي! لا، لا يمكن...

كان بوارو يتفحص جثة الفتاة، ثم وقف على قدميه ببطء شديد. قالت مادج: هل هي... هل... ثم سكتت.

- نعم يا آنسة، لقد ماتت.

- لماذا؟ لماذا؟ من هذا الذي يريد قتلها؟

جاء رد بوارو سريعاً جازماً: لم يكن يقصد قتلها هي يا آنسة، بل أنت! لقد ضلّله الوشاح.

خرجت من فم مادج صرخة عظيمة، قالت وهي تنتحب: لماذا لم أكن أنا؟ لماذا لم أكن أنا؟ أفضّل موتي على موتها... لا أريد أن أعيش الآن. سأكون سعيدة ومسرورة وراضية لو مت أنا.

فتحت ذراعيها واسعاً ثم تعثرت وترنحت، فوضعت ذراعي حولها بسرعة لأحميها من السقوط.

قال بوارو: خذها إلى البيت يا هيستنغز، ثم اتصل بالشرطة.

- الشرطة؟

- طبعاً، أخبرهم أن شخصاً قد قُتل. ثم ابقَ مع الآنسة مادج، لا تتركها مهما كان السبب.

أومأت له باستيعابي لهذه التعليمات، ثم دخلت من الباب الزجاجي لغرفة الاستقبال ممسكاً بالفتاة التي كانت شبه فاقدة وعيَها. وضعتها على أريكة كانت هناك ووضعت وسادة تحت رأسها، ثم أسرعت إلى الصالة بحثاً عن هاتف.

جفلت قليلاً عندما كدت أصطدم بإيلين. كانت تقف هناك وعلى وجهها الخانع المحترم علامات غريبة جداً، كانت عيناها تلمعان وكانت تمرر لسانها بشكل متكرر على شفتيها الجافتين ويداها ترتعشان بما يشبه الانفعال، وحالما رأتني قالت: هل... هل حدث شيء يا سيدي؟

قلت بأسلوب مهذب: نعم. أين الهاتف؟

- هل... هل ثمة خطب يا سيدي؟

قلت متملصاً: لقد وقعت حادثة وأصيب شخص، ويجب أن أتصل بالهاتف.

- ومن الذي أصيب يا سيدي؟

رأيت على وجهها لهفة أكيدة. قلت: الآنسة باكلي، الآنسة ماغي باكلي.

- الآنسة ماغي؟ الآنسة ماغي؟ هل أنت متأكد يا سيدي...؟ أقصد هل أنت متأكد أنها الآنسة ماغي؟

- أنا متأكد تماماً. لماذا؟

- آه، لا شيء. ظننتها واحدة من السيدات الأخريات، ظننت أنها قد تكون السيدة رايس.

- اسمعيني، أين الهاتف؟

- إنه في الغرفة الصغيرة هنا يا سيدي.

فتحت لي الباب وأشارت إلى الهاتف. قلت: أشكرك.

عندما رأيتها عازمة على البقاء قلت: هذا كل ما أريده، شكراً لك.

- إن كنت تريد الدكتور غراهام...

قلت: لا، لا. هذا كل شيء، اذهبي من فضلك.

انسحبت مترددة بأبطأ ما تستطيع. كانت ستقف خلف الباب لتصغي إلى حديثي على الأغلب، ولكني لا أستطيع منعها من ذلك. وعلى أية حال فإنها سرعان ما ستعرف كل شيء.

اتصلت بمركز الشرطة وقدمت بلاغي، ثم بمبادرة مني اتصلت بالدكتور غراهام الذي ذكرته إيلين بعد أن وجدت رقم الهاتف في الدفتر، إذ كان ينبغي تأمين عناية طبية للآنسة مادج، مع أني كنت أشعر أن الطبيب لن يمكنه فعل أي شيء لتلك الفتاة المسكينة الممددة هناك. وعد الطبيب بالحضور على الفور، فوضعت السماعة وخرجت إلى الصالة مرة أخرى. ولئن كانت إيلين قد أصغت إلى المكالمة خارج الغرفة فلا شك في أنها اختفت بسرعة فائقة، إذ إنني لم أرَ أحداً عندما خرجت عائداً إلى غرفة الاستقبال حيث كانت مادج تحاول الجلوس على الأريكة.

- هلا... هلا أحضرت لي كوباً من الماء؟

- بالطبع.

أسرعت إلى غرفة الطعام فأحضرت كوباً من الماء ثم عدت. بضع رشفات من الماء أنعشت الفتاة، بدأ لونها الطبيعي يعود إلى وجهها. وأعدت وضع الوسادة وراء رأسها.

- إنه عمل شنيع.

- أعرف يا عزيزتي، أعرف.

- لا تعرف، لا يمكنك ذلك. لو كنت أنا الضحية لكان كل شيء قد انتهى.

قلت: لا تكوني كئيبة إلى هذا الحد.

هزت رأسها وهي تكرر ما قالته: أنت لا تعرف، لا تعرف!

ثم بدأت تبكي فجأة بنحيب هادئ يائس كأنها طفلة. ورأيت أن هذا قد يكون أفضل شيء لها ولذلك لم أحاول منعها من البكاء. وعندما هدأت دموعها قليلاً مشيت إلى النافذة وأطللت برأسي. كنت قد سمعت صرخات قبل ذلك ببضع دقائق، وكان الجميع هناك متحلّقين في شبه دائرة حول المنظر المأساوي، وبوارو مثل الحارس الأحمق يحاول إرجاعهم إلى الوراء. وقد لاحظت أن رجلين يرتديان الزي الرسمي وصلا يمشيان مسرعَين فوق العشب... إذن لقد وصل الشرطة. عدت إلى مكاني قرب الأريكة بهدوء، ورفعت مادج وجهها المغطى بالدموع وقالت: ألا يجب عليّ فعل شيء؟

- لا يا عزيزتي؛ بوارو سيتولى الأمر، اتركي الأمر له.

صمتت مادج دقيقة أو دقيقتين ثم قالت: مسكينة ماغي، مسكينة ماغي الغالية! إنها طيبة لم تؤذِ أحداً في حياتها أبداً، ثم يحدث لها مثل هذا؟ أشعر وكأنني أنا التي قتلتها لأنني أحضرتها إلى هنا بهذه الطريقة.

هززت رأسي بحزن. يا لقلّة معرفتنا بما يخبئه لنا المستقبل! عندما ألحّ بوارو على مادج لدعوة صديقة لها لم يكن يعلم أنه يوقّع بذلك على شهادة وفاة فتاة مجهولة.

جلسنا صامتَين، كنت أتوق لمعرفة ما يدور في الخارج لكني التزمت بتعليمات بوارو وبقيت ملازماً مكاني. وأحسست كأن ساعات قد مرت قبل أن يفتح بوارو الباب ويدخل برفقة مفتش الشرطة ورجل بدا واضحاً أنه الدكتور غراهام، وتوجّه إلى مادج فوراً.

قال وهو يتحسس نبضها بأصابعه: كيف تشعرين يا آنسة باكلي؟ لا بد أنها صدمة كبيرة عليك.

- أنا بخير.

التفت إليّ وقال: هل تناولَت شيئاً؟

قلت: بعض الماء.

قالت مادج بشجاعة: أنا بخير.

- إذن يمكنك الإجابة على بعض الأسئلة؟

- بالطبع.

تقدم مفتش الشرطة بعد أن سعل وتنحنح كمقدمة لأسئلته،

وحيّته مادج بابتسامة شاحبة. قالت: لم أعق حركة المرور هذه المرة.

وفهمت أنهما قد التقيا من قبل.

قال المفتش: هذا عمل رهيب يا آنسة باكلي؛ أنا آسف جداً بشأنه. السيد بوارو هنا ونحن فخورون لوجوده معنا هنا، وقد أخبرني بأنه واثق من أن الرصاص قد أطلق عليك في حديقة فندق ماجستيك قبل يومين.

أومأت مادج بالإيجاب ثم أوضحت تقول: كنت أظن أنه مجرد زنبور، لكن الأمر لم يكن كذلك.

- وهل وقعت لك بعض الحوادث الغريبة قبل ذلك؟

- نعم، أقل ما يقال إن حدوثها في فترة متقاربة كان أمراً غريباً.

ثم قامت بسردٍ مختصرٍ للحوادث هذه فقال: جيد، وكيف حدث أن كانت ابنة عمك ترتدي وشاحك هذه الليلة؟

- دخلنا لإحضار معاطف، فقد كان الجو بارداً ونحن نراقب الألعاب النارية. وألقيت وشاحي على الأريكة هنا ثم صعدت ولبست معطفي الذي أرتديه الآن (وهو معطف فرو خفيف) كما أحضرت أيضاً معطف صديقتي السيدة رايس من غرفتها... إنه هناك على الأرض قرب النافذة. ثم صاحت ماغي قائلة إنها لم تعثر على معطفها فقلت لها إنه يجب أن يكون في مكان ما في الطابق السفلي. نزلت وصاحت قائلة إنها لم تعثر عليه هناك أيضاً، فقلت لها إنه

موجود داخل السيارة دون شك. وقلت لها إنني سأحضر لها شيئاً من عندي لكنها قالت إن ذلك لا يهم لأنها ستأخذ وشاحي إن لم أكن أريده. قلت لها إن بوسعها أخذه بالطبع وسألتها إن كان كافياً لها، فقالت إنه كافٍ لأنها لا تشعر بأن الجو بارد جداً مقارَنةً بيوركشاير. كانت تريد أي شيء تلفُّ به نفسها، وقلت لها: حسناً، سأخرج بعد قليل. ثم عندما خرجت...

سكتت وقد تقطع صوتها، فقال الشرطي: لا تحزني يا آنسة باكلي. أخبريني فقط، هل سمعت صوت طلقة أم طلقتين؟

هزت مادج رأسها: لم أسمع إلا صوت الألعاب النارية والمفرقعات وهي تنفجر.

قال المفتش: هذا صحيح، ما كنتِ لتلاحظي صوت الطلقة بين هذه الأصوات كلها. أظن أن لا فائدة من سؤالك إن كانت لديك أية معلومات عن هذا الشخص الذي يقوم بالاعتداءات عليك؟

قالت مادج: ليست لدي أدنى فكرة... لا أستطيع أن أتخيل.

- نعم، من غير المحتمل أن تعرفي. يبدو لي مجنوناً مهووساً بالقتل... إنه عمل شائن بغيض. لا أريد أن أوجّه إليك مزيداً من الأسئلة هذه الليلة يا آنسة، لا أستطيع أن أعبر عن مدى أسفي على ما حدث.

تقدم الدكتور غراهام وقال: أريد أن أقترح عليك يا آنسة باكلي بأن لا تقيمي هنا. كنت أتحدث عن هذا الموضوع مع السيد بوارو...

أعرف دار رعاية ممتازة، فقد تلقيت صدمة. إن ما تحتاجينه هو الراحة التامة.

لم تكن مادج تنظر إليه بل إلى بوارو، وسألته: هل ذلك... بسبب الصدمة؟

تقدم بوارو وقال: أريدك أن تشعري بالأمان يا طفلتي، كما أريد أنا أيضاً أن أشعر أنك آمنة. ستكون هناك ممرضة، ممرضة جيدة محترفة. ستكون قربك طول الليل، وعندما تستيقظين وتصرخين ستكون عندك، قريباً منك. هل تفهمين؟

- نعم، أفهم. لكنك لا تفهم؛ أنا لم أعد خائفة... لا أهتم أبداً، إن كان أحد يريد قتلي فيمكنه ذلك.

قلت: اصمتي، أنت متوترة كثيراً.

- أنت لا تعرف، لا أحد منكم يعرف!

تدخل الطبيب مهدئاً: أعتقد بأن خطة السيد بوارو جيدة. سآخذك بسيارتي، وسوف نعطيك دواء لنضمن نومك الليلة بشكل مريح، ما رأيك الآن؟

قالت مادج: لا مانع عندي؛ أنا موافقة على كل ما تريدون، لم يعد الأمر يهمني.

وضع بوارو يده على يدها وقال: أعرف يا آنسة، أعرف حقيقة شعورك. أنا أقف أمامك خَجِلاً ومصاباً بالصدمة، أنا الذي وعدت بحمايتك ولم أستطع ذلك. لقد فشلت، إنني بائس. ولكن صدقيني

يا آنسة، إن قلبي يتفطر ألماً بسبب ذلك الفشل. لو كنت تعرفين مقدار معاناتي فسوف تعذرينني.

قالت مادج بنفس الصوت الفاتر: لا بأس، لا تَلُم نفسك. أنا واثقة أنك بذلت ما بوسعك، ما كان بوسع أحد أن يفعل شيئاً أو يمنع ما حدث. أنا متأكدة من ذلك، أرجوك لا تحزن.

- أنت كريمة جداً يا آنسة.

- لا، إنني...

قاطع أحدهم الجلسة. فُتح الباب بقوة واندفع جورج تشالنجر إلى الغرفة صائحاً: ما هذا كله؟ لقد وصلت لتوي فوجدت الشرطة عند البوابة وإشاعة بأن شخصاً قد قُتل. ما كل هذا؟ أرجوكم أخبروني. هل هي... هل هي... مادج؟

كانت نبرة الألم والحزن ظاهرة عليه، وأدركت فجأة أن بوارو والطبيب قد حجبا مادج عن أنظاره تماماً. وقبل أن يتمكن أي واحد من الإجابة كرر سؤاله: أخبروني... لا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً. هل ماتت مادج؟

قال بوارو بلطف وهدوء: لا يا صديقي، إنها حية ترزق.

ثم تراجع إلى الوراء ليتمكن تشالنجر من رؤية الفتاة ذات الجسد الصغير الجالسة على الأريكة. حدق تشالنجر إليها لبعض الوقت وهو لا يصدق ما تراه عيناه، ثم تمتم وهو يتلعثم كأنه ثمل: مادج، مادج...

ثم جثا على ركبتيه فجأة إلى جانب الأريكة وأخفى رأسه بين يديه وهو يبكي ويقول بصوت متحشرج: مادج، حبيبتي، اعتقدت أنك متِّ.

حاولت مادج الاعتدال في جلستها وهي تقول: لا بأس يا جورج، لا تكن سخيفاً. أنا في أمان.

رفع رأسه ونظر حوله نظرات جامحة وقال: ولكن أحداً قد مات! هذا ما قاله رجال الشرطة.

قالت مادج: نعم، ماغي... المسكينة ماغي. آه!

تشنج وجهها، فتقدم بوارو والطبيب نحوها وساعدها الطبيب على الوقوف على قدميها، ثم خرجت من الغرفة وهي تستند على الطبيب وعلى بوارو وكل يسندها من جانب.

قال الطبيب: كلما تعجلت النوم كلما تحسنت حالتك أكثر، سآخذك بسيارتي على الفور، لقد طلبت من السيدة رايس حزم بعض حوائجك لنأخذها معنا.

ثم ذهبوا واختفوا عن الأنظار. وامسكني تشالنجر من ذراعي وقال: لا أفهم ما يجري، إلى أين يأخذونها؟

أوضحت له فقال: آه، فهمت. إذن بالله عليك اشرح لي مغزى ما حدث يا هيستنغز. يا لها من مأساة غامضة! تلك الفتاة المسكينة.

قلت له: هيا لنجلس قليلاً، يبدو أنك منهار تماماً.

- لا أبالي إن كنت كذلك.

دخلنا غرفة الجلوس فارتمى على أريكة وهو يقول: ظننت أن مادج هي التي ماتت.

أحسست ببعض الشك بمشاعر القبطان جورج تشالنجر، إذ لم يوجد بعد عاشق بهذه الشفافية.

* * *

الفصل التاسع

من «أ» إلى «ي»

أشك في أنني سأنسى ما حييت الليلة التي تلت تلك الليلة. وقع بوارو ضحية المعاناة وتأنيب الذات مما جعلني أخاف عليه حقيقة؛ كان يجوب الغرفة ذهاباً وإياباً بلا توقف، يسب نفسه ويصمّ أذنيه عن احتجاجاتي الصادرة عن حسن نية.

- ما فائدة أن يعتدّ الإنسان بنفسه كثيراً. لقد عوقبت؛ نعم، لقد نلت عقوبة. أنا هيركيول بوارو، كنت واثقاً من نفسي كثيراً.

أقحمت نفسي قائلاً: لا، لا.

- ولكن من كان يتخيل... من يمكنه أن يتخيل مثل هذه الجرأة والتهور اللذين لا مثيل لهما؟ كنت أعتقد أنني قمت باتخاذ كل الاحتياطات الممكنة. لقد حذّرت القاتل...

- حذرت القاتل؟

- أجل، لقد لفتُّ انتباهه إلى نفسي، جعلته يدرك بأنني أشك في شخص ما. لقد جعلته يعتقد (أو هكذا ظننت) أن من الخطر

البالغ عليه أن يتجرأ ويكرر محاولاته لقتلها، ووضعت طوق حماية حول الآنسة، وقد تسلل من خلاله بكل جرأة... تحت سمعنا وبصرنا... على الرغم منا جميعا... على الرغم من حذر وحيطة الجميع، حقق هدفه.

- ولكنه لم يحققه فعلاً.

- كان ذلك صدفة فقط. من وجهة نظري الشخصية الأمر سيان؛ فقد قضى على نفس بشرية يا هيستنغز... ولا أهمية لهوية هذه النفس.

قلت: بالطبع، أنا لم أقصد هذا.

- ولكن ما تقوله صحيح من ناحية أخرى، وهذا ما يجعل الأمر أكثر سوءاً... أكثر بكثير؛ لأن القاتل ما زال بعيداً عن تحقيق هدفه. هل تفهم يا صديقي؟ لقد تغير الموقف إلى الأسوأ، وهذا يعني أنه قد يسفر عن التضحية بروحين اثنتين لا بروح واحدة فقط.

قلت بقوة: لن يحدث هذا وأنت موجود هنا.

توقف وضغط على يدي وقال: شكراً يا صديقي، شكراً. ما زالت لديك الثقة في هذا العجوز... ما زال لديك إيمان. لقد نفثتَ فيّ روحاً جديدة؛ هيركيول بوارو لن يفشل ثانية ولن تُقتَل نفس ثانية. سوف أصحح غلطتي، إذ لا بد أن خطأ ما قد حدث. في مكان ما وقع قصور في النظام والمنهجية في أفكاري التي تكون في العادة مرتبة ترتيباً جيداً. سوف أبدأ من جديد، نعم، سوف أبدأ من البداية، وهذه المرة لن أفشل.

قلت: أنت تعتقد أن حياة مادج باكلي ما زالت في خطر إذن؟

- وهل من سبب آخر جعلني أرسلها إلى دار الرعاية يا صديقي؟

- إذن لم تكن الصدمة...

- الصدمة؟ آه! بوسع المرء أن يتعافى من الصدمة في بيته تماماً كما في دار الرعاية... بل بشكل أفضل؛ فدار الرعاية غير مسلّية، الأرضيات المكسوة بالسجاد الأخضر والممرضات والوجبات التي تقدم على الصينية والغسيل الذي لا يتوقف... لا، لا، لقد أرسلتها بدافع السلامة، والسلامة وحدها. لقد أفضيت بشكوكي إلى الطبيب فوافقني، وهو سيقوم بكل الترتيبات. لن يسمح لأحد برؤيتها يا صديقي ولا حتى أقرب صديقاتها. أنا وأنت الوحيدان اللذان سيسمح لنا برؤيتها، أما الآخرون فسيقال لهم: «أوامر الطبيب». عبارة مناسبة جداً ولن يعترض عليها أحد.

قلت: نعم، ولكن...

- ولكن ماذا يا هيستنغز؟

- هذا لن يستمر إلى الأبد.

- ملاحظة صحيحة جداً، لكنها تعطينا فترة نلتقط فيها أنفاسنا. ألا تدرك أن طبيعة عملياتنا قد تغيرت؟

- كيف؟

- كانت مهمتنا الأصلية هي ضمان أمن وسلامة الآنسة، أما

مهمتنا الآن فقد أصبحت أكثر بساطة... لأنها مهمة ألفناها تماماً. إنها لا تعدو كونَها مهمة بحث عن قاتل.

- وهل تسمي هذا أبسط؟

- إنها أبسط بالتأكيد. لقد قلت بالأمس إن القاتل قد وقّع باسمه على الجريمة، لقد خرج من مخبئه.

- ألا تظن...

ترددت قليلاً قبل أن أكمل قائلاً: ألا تظن أن الشرطة على حق بقولهم إن هذا العمل من فعل شخص مجنون معتوه مهووس بالقتل؟

- إنني أكثر اقتناعاً من أي وقت مضى بأن الحالة غير ذلك.

- هل ترى حقاً أن...

ثم سكتُّ. تناول بوارو جملتي وتكلم برزانة شديدة: أن القاتل من داخل دائرة الآنسة نفسها؟ نعم يا صديقي، أظن ذلك.

- لكن ما حدث الليلة الماضية يستبعد هذا الاحتمال بالتأكيد.كنا جميعاً معاً و...

قاطعني قائلاً: هل يمكنك أن تقسم -يا هيستنغز- بأن أي شخص محدد لم يترك مجموعتنا الصغيرة هناك على حافة المنحدر الصخري؟ هل فيهم أي شخص يمكنك أن تقسم على أنك كنت تراه طول الوقت؟

قلت ببطء وقد فاجأني بكلماته: لا، لا أظن أن بوسعي ذلك. كان الليل معتماً، وكلنا تحركنا وانتقلنا من مكان إلى آخر. لقد لاحظت في مناسبات مختلفة وجود السيدة رايس ولازاروس وأنت وكروفت وفايس، ولكن طوال الوقت؟ لا.

أومأ بوارو برأسه وهو يقول: بالضبط. لم تكن سوى مسألة دقائق قليلة جداً. ذهبت الفتاتان إلى البيت فانسلّ القاتل بعيداً دون أن يلحظه أحد واختبأ وراء شجرة الجميز تلك في وسط المرجة، ثم خرجت مادج باكلي (أو هكذا شُبِّه له) من الباب الزجاجي ومرت على بعد قدم واحد منه، فأطلق عليها ثلاث طلقات متتالية سريعة...

- ثلاث طلقات؟

- نعم؛ لم يرد المجازفة هذه المرة. وجدنا في الجثة ثلاث رصاصات.

- كان ذلك مجازفة، أليس كذلك؟

- أقل مجازفة في كل الاحتمالات من رصاصة واحدة. إن مسدس موزر لا يصدر صوتاً عالياً، إنه يشبه -من حيث الصوت- فرقعةَ الألعاب النارية إلى حد ما، ومن شأنه أن يختلط بها بحيث لا يمكن تمييزه.

- هل وجدتم المسدس؟

- لا، وهذا ما يؤكد لي الدليل الذي لا يساوره أدنى شك على أن المسؤول عن هذا العمل شخص ليس بالغريب. نحن نتفق على

أن مسدس الآنسة باكلي قد سُرق منها لسبب واحد فقط... وهو إضفاء مظهر الانتحار على وفاتها.

- نعم.

- أليس هذا هو السبب الوحيد الممكن؟ ولكنك تلاحظ الآن أن التظاهر بالانتحار أمر غير وارد. يعرف القاتل بأنه لن يخدعنا أبداً في هذا، والواقع أنه يعرف ما نعرفه.

فكرت معترفاً في قرارة نفسي بمنطقية استنتاجات بوارو، ثم سألته: ما الذي فعله بالمسدس برأيك؟

هز بوارو كتفيه بلامبالاة وقال: من الصعب معرفة ذلك، لكن البحر كان قريباً جداً. على بعد رمية واحدة من يد القاتل، ويغوص المسدس بعدها في أعماق البحر ولن يُعثَر عليه أبداً. لا نستطيع أن نتأكد تماماً من ذلك بالطبع، ولكن هذا ما كنت سأفعله لو كنت مكانه.

ارتعشت قليلاً من نبرته الواقعية. قلت: هل تظن... هل تظن أن القاتل أدرك أنه قد قتل امرأة غيرها؟

قال بوارو عابساً: أنا واثق من أنه لم يعرف. نعم، لا بد أن ذلك كان مفاجأة غير سارة له عندما علم بالحقيقة. لم يكن من السهل عليه أن يحافظ على هدوئه وتصرفاته الطبيعية دون أن يشي وجهه بشيء.

في تلك اللحظة تذكرت موقف الخادمة إيلين، وذكرت لبوارو

موقفها الغريب ذاك فبدا مهتماً جداً وسألني: هل أظهرت الدهشة والمفاجأة لأن ماغي هي التي قُتلت؟

- كانت دهشة كبيرة.

- هذا غريب. ومع ذلك كان واضحاً أن حقيقة وقوع مأساة لم تفاجئها. نعم، يوجد في هذا الأمر شيء يجب أن نتحقق منه. مَن تكون إيلين هذه؟ بكل ذلك الهدوء والاحترام حسب العرف الإنكليزي؟ هل يمكن أن تكون هي التي...؟

ثم سكت فقلت: إن كنت تضع حساباً للحوادث كلها فمن المؤكد أن دحرجة الصخرة الثقيلة من فوق المنحدر تتطلب رجلاً.

- ليس بالضرورة؛ قد تتم باستخدام العتلة أو الرافعة التي لا تحتاج إلى قوة كبيرة. آه، نعم، يمكن عمل ذلك.

ثم واصل المشي في الغرفة ذهاباً وإياباً ببطء وهو يقول: كل الذين كانوا في «البيت الأخير» في الليلة الماضية مشتبه فيهم، ولكن هؤلاء الضيوف... لا، لا أظن أنه واحد منهم لأنهم مجرد معارف عابرين كما أعتقد. لم تكن بينهم وبين صاحبة البيت الشابة أي علاقة حميمة.

- تشارلز فايس كان موجوداً.

- نعم، يجب أن لا ننساه؛ فهو أقوى المشتبهين من حيث المنطق.

ثم أشار إشارة يأس وألقى بنفسه على الكرسي أمامي وقال:

انظر، إنه ما نعود إليه دائماً: الدافع! يجب أن نبحث عن الدافع إن كنا نريد فهم هذه الجريمة، وهي النقطة التي ما برحت تحيّرني يا هيستنغز. مَن عساه يمتلك دافعاً لقتل الآنسة مادج؟ لقد تركت لنفسي الحرية لتفترض حتى أكثر الافتراضات تفاهة. أنا هيركيول بوارو نزلت إلى مستوى شطحات الخيال المخزية، وقد تمثلتُ في ذلك عقلية الروايات المثيرة الرخيصة. الجد العجوز الذي يُفترَض أنه بدّد أمواله على القمار، هل فعل ذلك حقاً؟ هذا ما سألته نفسي. أم أنه -على العكس من ذلك- خبّأ هذه الأموال؟ هل هي مخبّأة في مكان ما في «البيت الأخير»؟ مدفونة في مكان ما في الحديقة؟ ومن أجل تلك الغاية (وأنا أشعر بالعار لقولي هذا) فإنني قد سألت الآنسة مادج إن كانت هناك أية عروض قد قدمت لها لشراء البيت.

- أتعرف يا بوارو، إنني أعتبر هذه الفكرة ذكية؛ فقد يكون فيها شيء يفيدنا.

قال بوارو متأففاً: عرفت أنك ستقول هذا! إن هذه الفكرة تتناسب ورومانسيتك وعقلك العادي. نعم، إنك تستمتع بهذه الفكرة.

- حسناً، لا أفهم لماذا لا...؟

- لأنه يا صديقي كلما كان التفسير عادياً بعيداً عن الرومانسية كلما كان أكثر احتمالاً. لقد استعرضت أفكاراً ونظريات حوله تدعو إلى الخجل أكثر مما سبق، فقد كان رحّالة. قلت في نفسي: افترض أنه سرق جوهرة ما... عين تمثال يعتبره بعض الوثنيين إلهاً مثلاً، وأن

رجال ذلك الدين المتعصبين يلاحقونه... نعم، أنا هيركيول بوارو انحدرت إلى أفكار كهذه.

ثم أكمل يقول: وقد جاءتني أفكار أخرى تتعلق بهذا الأب؛ أفكار أكثر واقعية وأكثر احتمالاً. هل قام في أثناء تجواله وأسفاره بعقد زواج ثان؟ هل يوجد وريث أقرب إلى الآنسة من السيد تشارلز فايس؟ لكنني لم أتوصل إلى شيء مرة ثانية لأننا ما زلنا نواجه نفس المشكلة، وهي أنه لا يوجد شيء يستحق أن يورث. لم أستبعد أي احتمال، حتى تلك الإشارة العرَضية من الآنسة مادج بخصوص العرض الذي قدمه لها السيد لازاروس. هل تذكره؟ عرض شراء صورة جدها. لقد أبرقت يوم السبت إلى خبير لكي يأتي ويفحص الصورة، إنه الرجل الذي كتبت للآنسة عنه صباح اليوم. افترض -على سبيل المثال- أن قيمة اللوحة هذه تصل إلى عدة آلاف من الجنيهات؟

- هل تعتقد حقاً أن رجلاً غنياً مثل الشاب لازاروس...؟

- هل هو غني؟ المظاهر ليست كل شيء. حتى وجود شركة عريقة وقديمة تملك قاعات عرض فخمة وكل مظاهر الازدحام والفخامة يمكن أن تكون مظاهر فاسدة ومزيفة. وماذا يفعل الإنسان في هذه الحالة؟ هل يجري ويصيح معلناً أن الزمن قد جال عليه وأنه فقير؟ لا، بل يشتري سيارة جديدة فاخرة وينفق أموالاً أكثر قليلاً من المعتاد ويعيش متباهياً متفاخراً، لأن السمعة هي كل شيء! ولكن أحياناً تتحطم بعض المشاريع الفخمة والمهمة بسبب لا يعدو نقص بضعة آلاف من الجنيهات من الأموال الجاهزة.

ثم أكمل يقول وهو يتنبأ باحتجاجي: آه، أعرف. إنه أمر مستبعد، لكنه ليس فكرة أسوأ من فكرة رجال الدين الوثنيين المتعصبين أو الكنز المدفون. إن له علاقة بالأشياء التي تحدث على الأقل. لا يمكننا إهمال أي شيء... أي شيء قد يقربنا إلى الحقيقة.

قام بصفّ الأغراض الموضوعة على الطاولة أمامه بأنامله الرشيقة الحذرة، وعندما تكلم كان صوته رزيناً وهادئاً لأول مرة. قال: الدافع! لنعد إلى هذا وندرس هذه المشكلة بهدوء ومنهجية. أولاً: كم عدد الدوافع الموجودة للقتل؟ الدوافع التي تدفع الإنسان إلى إزهاق روح إنسان آخر؟ سوف نستبعد -في الوقت الحالي- فرضية القتل المجرد للهوس والجنون لأنني مقتنع تماماً بأن حل مشكلتنا لا يكمن في تلك الفرضية، كما نستبعد أيضاً القتل الفوري الذي يتم تحت وحي اللحظة أو تأثير الأعصاب غير المسيطَر عليها! إن هذه جريمة قتل متعمد ارتُكبت بدم بارد، فما هي الدوافع التي تحرك الإنسان لارتكاب مثل هذه الجريمة؟ أولاً الكسب. مَن الذي يكسب من وفاة الآنسة باكلي... بطريق مباشر أو غير مباشر؟ يمكننا وضع تشارلز فايس. إنه يرث بيتاً لا يستحق أن يرثه أحد من الناحية المالية، ربما قام بسداد قيمة الرهن وبناء فيلا صغيرة على الأرض، ويمكن بالتالي أن يجني أرباحاً بسيطة في نهاية الأمر. هذا ممكن، إن كان هذا البيت للعائلة على سبيل المثال. إنها دون شك غريزة تضرب جذورها عميقاً لدى بعض الناس، وقد أدّت في قضايا عرفتها إلى ارتكاب جرائم. لكني لا أرى وجود هذا الواقع في حالة السيد فايس. الشخص الآخر الوحيد الذي يمكن أن يستفيد من وفاة الآنسة باكلي هو صديقتها، السيدة رايس، ولكن من الواضح

أن المبلغ الذي ستحصل عليه مبلغ صغير جداً. وحسبما أرى فإنه لا يوجد شخص آخر يكسب من وفاة الآنسة باكلي. ما هو الدافع الآخر؟ الكراهية... أو الحب الذي ينقلب إلى كراهية؟ الجريمة العاطفية؟ حسناً، لدينا في هذا المجال كلمات السيدة كروفت التي قالت إن تشارلز فايس والقبطان تشالنجر كليهما يحبان الفتاة.

قلت مبتسماً: أعتقد أننا لاحظنا الظاهرة الثانية بأنفسنا.

- نعم، ذلك البحّار النزيه يميل إلى إظهار عواطفه. وبالنسبة للآخر فإننا نعتمد على شهادة السيدة كروفت، فإذا أحسّ تشارلز فايس أن ذلك الشخص قد حلّ محله في حبها فهل يتأثر إلى درجة تدفعه لقتل ابنة عمته حتى لا يتركها تتزوج رجلاً آخر؟

قلت مرتاباً: يبدو ذلك نوعاً من المبالغة والخيال.

- بوسعك أن تقول إن هذا يبدو عملاً غير إنكليزي... أوافقك الرأي، ولكن حتى الإنكليز لديهم عواطف. إنه شاب مكبوت لا يظهر أحاسيسه بسهولة، وأمثاله غالباً ما تكون لديهم أكثر الأحاسيس قوة وعنفاً. لا يمكنني أن أشك أبداً في القبطان تشالنجر كشخص يمكن أن يقتل لأسباب عاطفية. لا، لا، إنه ليس من هذا النوع، أما بالنسبة لتشارلز فايس فنعم، هذا ممكن لكنه لا يقنعني تماماً. دافع آخر للجريمة: الغيرة. إنني أفصله عن الدافع الذي قبله لأن الغيرة قد لا تكون -بالضرورة- عاطفية، فهناك الحسد؛ حسد التملك، حسد التفوق، وذلك النوع من الحسد دفع إياغو (شخصية شاعركم العظيم شكسبير) لارتكاب واحدة من أذكى الجرائم التي ارتُكبت على مر التاريخ... وأنا أتكلم هنا من المنطلق المهني.

سألته في خروج عابر عن الموضوع: ولماذا كانت جريمته على هذا الجانب من الذكاء؟

- لأنه جعل آخرين ينفذونها. تخيّل مجرماً في هذه الأيام لا يستطيع أحد أن يضع الأغلال في يديه لأنه لم يرتكب شيئاً بنفسه. لكن هذا ليس موضوع حديثنا. هل يمكن للغيرة -مهما كان نوعها- أن تكون مسؤولة عن هذه الجريمة؟ مَن لديه سبب للغيرة من الآنسة؟ امرأة أخرى؟ لدينا السيدة رايس فقط، وحسبما نرى لا يوجد أي تنافس بين المرأتين. ولكن -مرة أخرى- فإن ذلك حسبما نرى فقط. قد يكون هناك شيء لا نعرفه. وأخيراً هناك دوافع... الخوف. هل لدى الآنسة مادج سرٌّ يخص أحداً؟ هل تعرف شيئاً من شأنه إن انكشف أن يدمّر حياة شخص آخر؟ إن كان هذا صحيحاً فأعتقد أننا نستطيع أن نقول جازمين إنها نفسها لا تدري ذلك. لكن هذا يمكن أن يحدث، يمكن. وإن كان كذلك فإنه يجعل الأمر صعباً جداً لأنه بينما تمسك بالدليل في يديها فإنها تمسكه لاشعورياً، ولن تستطيع أبداً إخبارنا عنه.

- هل تعتقد حقاً أن هذا ممكن؟

- إنها فرضية، وأنا مدفوع لها بسبب صعوبة العثور على نظرية معقولة غيرها. عندما تحذف الاحتمالات الأخرى فإنك تعود إلى الاحتمال الباقي وتقول: بما أنه لا توجد احتمالات أخرى فلا بد أن يكون كذا...

صمت بوارو فترة طويلة، وأخيراً استيقظ من استغراقه وسحب ورقة وبدأ يكتب. سألته وقد أثار فضولي: ماذا تكتب؟

- إنني أضع قائمة يا صديقي، قائمة بالأشخاص المحيطين بالآنسة باكلي. وإذا كانت نظريتي صحيحة فإن اسم القاتل لا بد أن يكون ضمن هذه القائمة.

واصل الكتابة لأكثر من عشرين دقيقة تقريباً، ثم دفع إليّ بالورقة وقال: هاك يا صديقي، انظر. ماذا تستنتج منها.

وفيما يلي ما كان مكتوباً في الورقة:

(١) إيلين.

(٢) زوجها البستاني.

(٣) طفلهما.

(٤) السيد كروفت.

(٥) السيدة كروفت.

(٦) السيدة رايس.

(٧) السيد لازاروس.

(٨) القبطان تشالنجر.

(٩) السيد تشارلز فايس.

(١٠) ؟

ملاحظات:

(١) إيلين

ظروف مريبة: موقفها وكلماتها عند سماعها نبأ الجريمة. تملك الفرصة أفضل من أي شخص آخر لتدبير الحوادث والمعرفة بوجود المسدس، ولكن من غير المحتمل أن تكون قد عبثت بالسيارة، كما أن

العقلية العامة للجريمة تبدو فوق مستواها.

الدافع: لا شيء، إلاّ إذا كانت تملك كراهية نتيجة حادثة غير معروفة.

ملاحظة: مزيد من التحريات عن سوابقها وعلاقتها بمادج باكلي.

(٢) زوجها

الأمر ذاته أعلاه. وهو أكثر احتمالاً لأن يكون قد عبث بالسيارة.

ملاحظة: يجب مقابلته.

(٣) الطفل

يمكن استبعاده.

ملاحظة: يجب مقابلته، قد يعطينا معلومات قيمة.

(٤) السيد كروفت

الظرف الوحيد المريب هو حقيقة أننا قابلناه وهو يصعد الدرج إلى الطابق الذي فيه غرفة النوم. كان لديه تفسير جاهز وقد يكون صحيحاً، ولكن قد لا يكون. لا شيء معروف عن سوابقه.

الدافع: لا يوجد.

(٥) السيدة كروفت

ظروف مريبة: لا يوجد.

الدافع: لا يوجد.

(٦) السيدة رايس

ظروف مريبة: فرصة كاملة. طلبت من مادج باكلي

إحضار معطفها. حاولت متعمدة خلق انطباع بأن مادج كاذبة وأن روايتها حول الحوادث ينبغي أن لا يُعتمَد عليها. لم تكن في تافيستوك عندما وقعت الحوادث، أين كانت؟

الدافع: المكسب؟ قليل جداً. الغيرة؟ ممكن ولكن لا نعرف شيئاً. الخوف؟ ممكن أيضاً ولكن لا نعرف شيئاً أيضاً.

(٧) السيد لازاروس

ظروف مريبة: فرصة متاحة بشكل عام. عرض لشراء الصورة. قال إن كوابح السيارة بحالة جيدة (بحسب إفادة السيدة رايس). ربما كان في المنطقة قبل الجمعة.

الدافع: لا شيء، ما لم يكن الكسب من الصورة. الخوف؟ غير محتمل.

ملاحظة: البحث أين كان السيد لازاروس قبل وصوله إلى سينت لو. التحري عن الوضع المالي لشركة «أرون لازاروس وابنه».

(٨) القبطان تشالنجر

ظروف مريبة: كان في منطقة قريبة طوال الأسبوع الماضي ولذلك فإن فرصته في عمل الحوادث جيدة، وصل بعد نصف ساعة من جريمة القتل.

الدافع: لا يوجد.

(٩) السيد فايس

ظروف مريبة: كان غائباً عن مكتبه في الوقت الذي

أطلقت فيه رصاصة في حديقة الفندق. الفرصة جيدة.
تصريحه بخصوص بيع «البيت الأخير» عرضه للشك.
ذو مزاج مكبوت وقد يعرف عن موضوع المسدس.
الدافع: المكسب؟ قليل. الحب أو الكراهية؟ ممكن بالنسبة لشخص في مثل مزاجه. الخوف؟ غير محتمل.
ملاحظة: البحث عن الشخص الذي رهن البيت لديه، البحث عن وضع شركة فايس.

(١٠) ؟

يمكن أن يكون الشخص العاشر أي رجل غريب ولكن له صلة بواحد من المذكورين أعلاه. إن وجوده من شأنه أن يفسر:

(١) عدم دهشة إيلين عند سماعها خبر الجريمة ورضاها واستمتاعها (لكن ذلك قد يكون بسبب الانفعال للسرور الطبيعي تجاه حوادث الموت الذي يبديه أبناء طبقتها).

(٢) سبب مجيء كروفت وزوجته للعيش في بيت الحراسة.

(٣) قد يعطي دافعاً لخوف فريدريكا رايس من كشف سر معين أو دافعاً للغيرة.

بقي بوارو يراقبني وأنا أقرأ، ثم قال مفتخراً: إنها شاملة كاملة، أليس كذلك؟

قلت بحرارة: إنه عمل رائع، إنه يحدد كل الاحتمالات بوضوح تام.

قال متأملاً وهو يستعيد الورقة مني: نعم، وفيها اسم واحد يلفت النظر يا صديقي؛ تشارلز فايس. إنه يمتلك أفضل الفرص. لقد أعطيناه واحداً من دافعين، ولو كانت هذه قائمة بخيول السباق لكان فايس هو الحصان الذي ترشّحه كل المراهنات، أليس كذلك؟

- إنه أكثر المشبوهين احتمالاً بالتأكيد.

- لديك ميل إلى تفضيل الأقل احتمالاً يا هيستنغز. لا شك أن هذا ناتج عن قراءتك للكثير من القصص البوليسية، أما في الحياة الواقعية فإن مَن يرتكب الجريمة هو الشخص الأكثر رجحاناً ووضحاً.

- ولكن ألا تعتقد أن هذا هو الحال هذه المرة؟

- ثمة شيء واحد فقط يعارض ذلك؛ جرأة الجريمة! كان ذلك واضحاً من البداية لأن الواقع في مثل هذه الجرأة لا يمكن أن يكون واضحاً كما قلت.

- نعم، هذا ما قلته في البداية.

- وهذا ما أقوله ثانية.

وبحركة مفاجئة كوّر الأوراق بيده ورماها على الأرض، ثم قال مستبقاً صرخة احتجاج مني: لا، لا فائدة من هذه القائمة. ومع ذلك فقد جعلت عقلي صافياً. النظام والمنهجية! هذه هي المرحلة الأولى؛ ترتيب الحقائق بترتيب ودقة. المرحلة التالية...

- نعم؟

- المرحلة التالية هي مرحلة السيكولوجية، الاستخدام الصحيح لخلايا الدماغ الرمادية الصغيرة! أنصحك بالخلود إلى النوم يا هيستنغز.

- لا، لن أنام ما لم تنم أنت، لن أفارقك.

- أنت مخلص ووفي، ولكنك لا تستطيع مساعدتي في التفكير. هذا كل ما سأفعله... التفكير.

ومع ذلك بقيت مصرّاً على الرفض، فقال: ربما كنت تريد مناقشة مسألة ما معي. حسناً، حسناً، أنت صديق مخلص. أرجو أن تجلس على الكرسي الوثير.

كان ذلك عرضاً قبلته، وسرعان ما أخذت الغرفة تسبح في فضاء الحلم... وكان آخر ما أذكره رؤية بوارو يعيد تجميع الأوراق المكوّرة التي كانت ملقاة على الأرض ويضعها في سلة المهملات. والأغلب أنني نمت بعد ذلك.

* * *

الفصل العاشر

سر مادج

كان ضوء النهار قد انتشر عندما استيقظت، وكان بوارو جالساً حيث كان يجلس في الليلة السابقة وهيئته على حالها، لكن اختلافاً ظهر على وجهه، فقد كانت عيناه تشعّان بذلك البريق الأخضر الغريب الذي أعرفه جيداً والذي يشبه عيون القطط.

جاهدت لكي أعدل من جلستي وأنا أشعر بتصلب أطرافي وعدم الارتياح. إن النوم على كرسي عمل لا يُنصَح به لشخص في مثل عمري، ومع ذلك فقد نتج عنه شيء واحد على الأقل... إذ استيقظت وأنا لا أشعر بذلك الكسل والنعاس بل بعقلية وتفكير نشيطين تماماً كما كنت قبل النوم.

صحت: بوارو، هل فكرت في شيء؟

هزّ رأسه بالإيجاب، ثم مال إلى الأمام وهو يضرب على الطاولة أمامه وقال: أجب يا هيستنغز على هذه الأسئلة الثلاثة: لماذا لم تكن الآنسة مادج تنام جيداً في الفترة الأخيرة؟ لماذا اشترت ثوب

سهرة أسود وهي التي لا تحب الأسود أبداً؟ ولماذا قالت الليلة الماضية: "ليس عندي ما أحيا من أجله... الآن"؟

حدقت إليه. بدت الأسئلة بعيدة عن الموضوع، لكنه عاد يقول: أجب على تلك الأسئلة يا هيستنغز، أجب عليها.

- حسناً، بالنسبة للسؤال لأول فقد قالت بنفسها إنها كانت تشعر بالقلق مؤخراً.

- بالضبط، وما هو سبب قلقها؟

- والثوب الأسود... كل امرئ يرغب بالتغيير أحياناً.

- إن معرفتك بسيكولوجية المرأة ضعيفة جداً بالنسبة لرجل متزوج مثلك. إذا ارتأت المرأة أنها لا تبدو جميلة في لون من الألوان فإنها ترفض ارتداءه.

- وأما بالنسبة للسؤال الأخير... كان أمراً طبيعياً أن تقوله بعد الصدمة الكبيرة.

- لا يا صديقي، لم يكن أمراً طبيعياً. الرعب من موت ابنة عمها وتأنيب ذاتها على وفاتها... نعم، كل هذا طبيعي، ولكن قولها ذاك يختلف. لقد تكلمت عن الحياة بضجر وكآبة وكأنها لم تعد أمراً عزيزاً عليها. إنها لم تظهر مثل هذا الموقف من قبل أبداً، بل كانت متحدية جريئة. نعم، كانت تظهر لامبالاة واستخفافاً، ثم عندما علمت بما يراد لها شعرت بالخوف. وقد شعرت بالخوف لأن الحياة كانت جميلة ولم تكن تريد الموت، ولكن أن تسأم الحياة؟ لا، لا يمكن أن يكون هذا أبداً. حتى قبل العشاء لم يكن الحال

هكذا. إن لدينا هنا تغيراً سيكولوجياً يا هيستنغز، وهذا مثير. ما هو الذي جعل وجهة نظرها من الحياة تتغير؟

- صدمة وفاة ابنة عمها.

- إنني محتار. الصدمة هي التي جعلت لسانها يفلت، ولكن افترض أن التغيير حدث قبل ذلك. هل يوجد أي شيء آخر يمكن تفسير الأمر؟

- لا أعرف أي شيء.

- فكر يا هيستنغز، استخدم خلايا دماغك الرمادية.

- الحقيقة...

- متى كانت آخر لحظة راقبناها فيها؟

- كان ذلك على العشاء.

- تماماً. بعد ذلك لم نرها إلا وهي تستقبل الضيوف وترحب بهم... موقف رسمي خالص. ماذا حدث عند انتهاء العشاء يا هيستنغز؟

قلت ببطء: ذهبَتْ إلى الهاتف.

- نِعمَ ما قلت! لقد وصلتَ إلى ما نريد في النهاية. ذهبت إلى الهاتف وغابت فترة طويلة، عشرين دقيقة كحد أدنى. مَن الذي كان يتكلم معها؟ ماذا قالا؟ هل كانت تتكلم بالهاتف حقيقة؟ علينا أن نكتشف -يا هيستنغز- ما الذي حدث خلال العشرين دقيقة هذه لأننا بذلك سنجد المفتاح الذي يقودنا إلى اللغز الذي نبحث عنه... أو هذا ما أعتقده جازماً.

- أتظن ذلك حقاً؟

- أجل، أجل؛ لقد أخبرتك من البداية بأن الآنسة تخفي عنا شيئاً يا هيستنغز. إنها لا تعتقد أن له علاقة بالجريمة، ولكن... أنا، هيركيول بوارو، أعرف أحسن منها! لا بد أن له علاقة لأنني أدركت منذ البداية أن ثمّة عنصراً مفقوداً، فلو لم يكن هنالك عنصر مفقود لكان كل شيء واضحاً بالنسبة لي! وبما أنه غير واضح لي فإن **العنصر المفقود** هو المفتاح الرئيسي لحل اللغز! أعرف أنني على حق يا هيستنغز. أريد أن أعرف الإجابة على هذه الأسئلة الثلاث، ثم بعد ذلك، بعد ذلك... سوف أبدأ في الفهم.

قلت وأنا أمد أطرافي المتصلبة: حسناً، أعتقد أن من الضروري أن أغتسل وأحلق لحيتي.

بعد أن اغتسلت ولبست ثيابي العادية أحسست بأنني أفضل، فقد ذهب التصلب والضجر اللذين كنت أشعر بهما نتيجة قضاء ليلة غير مريحة. ثم وصلت إلى طاولة الإفطار وشعرت بأن شرب فنجان من القهوة الساخنة سيعيد إليّ نشاطي وحيويتي.

نظرت إلى الصحيفة ولكن لم يكن فيها الكثير من الأخبار المهمة باستثناء حقيقة أن وفاة مايكل سيتون قد تأكدت الآن بلا شك؛ لقد مات الطيار الجريء. تساءلت إن كانت صحف الغد ستحمل عناوين جديدة مثل قتل فتاة خلال حفل للألعاب النارية أو شيئاً شبيهاً.

كنت قد انتهيت من تناول الإفطار عندما جاءت فريدريكا رايس إلى طاولتي. كانت ترتدي ثوباً أسود بسيطاً ذا ياقة صغيرة

بيضاء مما جعل بياض بشرتها أكثر وضوحاً من قبل. قالت: أريد رؤية السيد بوارو يا كابتن هيستنغز، هل تعرف إن كان قد استيقظ من نومه الآن؟

- سآخذك إليه الآن، سوف نجده في غرفة الجلوس.

- شكراً لك.

قلت ونحن نغادر غرفة الطعام معاً: أرجو أن تكوني قد قضيت ليلة مريحة؟

قالت بصوت هادئ: كانت صدمة، لكنني لم أكن أعرف الفتاة المسكينة. ليس شعوري نحوها كشعوري تجاه مادج.

- أظن أنك لم تقابلي هذه الفتاة من قبل أبداً؟

- مرة واحدة... في سكاربورو حين جاءت مع مادج إلى دعوة غداء. سيكون الخبر صدمة رهيبة لأبيها وأمها.

لكنها قالت ذلك بلا انفعال. تخيّلتُ أنها كانت أنانية وأنها كانت ترى في كل أمر لا يمسها شخصياً أمراً غير واقعي ولا مهم. وكان بوارو قد أنهى تناول طعامه وجلس يقرأ صحيفة الصباح، فنهض وحيا فريدريكا بأدبه المعتاد ثم قدم لها كرسياً.

شكرته بابتسامة باهتة جداً وجلست. وضعت يديها على ذراعي الكرسي وجلست هناك منتصبة تنظر أمامها مباشرة دون أن تندفع بالكلام، كان في جمودها على ذلك النحو وبرودها شيء ينذر ببعض الخوف. وأخيراً قالت: سيد بوارو، أظن أنه ما من شك أن هذا... هذا العمل المحزن الذي وقع الليلة الماضية كان جزءاً

لا يتجزأ من القضية نفسها... أقصد أن الضحية المقصودة كانت هي مادج في الحقيقة، أليس كذلك؟

- أظن يا سيدتي أنه ما من شك في ذلك أبداً.

عبست فريدريكا قليلاً ثم قالت: إن لحياة مادج قوى تحميها... قوى خارقة.

ظهرت في صوتها نبرة غريبة لم أستطع فهمها. وقال بوارو: يقولون بأن الحظ دَوّار.

- ربما من غير المفيد محاربته.

لم يعد في نبرة صوتها الآن إلا السأم، وبعد لحظات من الصمت أكملت تقول: أرجو أن تعذرني يا سيد بوارو، وأطلبُ الصفح من مادج أيضاً؛ فحتى الليلة الماضية لم أكن أصدق، لم أفكر أبداً أن الخطر حقيقي.

- صحيح يا سيدتي؟

- أرى الآن أن كل شيء يجب أن يتم بحثه بحذر واهتمام، كما أظن أن أصدقاء مادج المقربين لن يكونوا في معزل عن الاشتباه. إنه أمر سخيف بالطبع لكن هذا هو الواقع. هل أنا على حق يا سيد بوارو؟

- أنت ذكية جداً يا سيدتي.

- لقد سألتني بعض الأسئلة عن تافيستوك قبل أيام، وبما أنك ستعرف عاجلاً أو آجلاً فمن الأفضل أن أقول لك الحقيقة الآن؛ أنا لم أكن في تافيستوك.

- صحيح يا سيدتي؟

- لقد رافقت السيد لازاروس بسيارته إلى هذه المنطقة في أوائل الأسبوع الماضي، ولم نشأ أن تُثار الضجة بشأننا فأقمنا في مكان صغير اسمه شيلاكومب.

- أظن أنه موضع يبعد نحو سبعة أميال عن هذه البلدة، أليس كذلك؟

- بلى، نحو ذلك.

- هل يمكن أن أكون وقحاً قليلاً وأطرح عليك سؤالاً آخر؟

- سَلْ ما بدا لك، فما عاد شيء يُدعى وقاحة في هذه الأيام.

- لعلك على حق يا سيدتي. حسناً، منذ متى وأنت والسيد لازاروس صديقان؟

- لقد التقيت به منذ نحو ستة أشهر.

- وهل... تحبينه؟

هزت فريدريكا كتفيها قائلة: إنه ثري على الأقل.

هتف بوارو: آه، إنها طريقة غير ملائمة في التعبير.

- ولِمَ لا؟ من الأفضل أن أقولها بنفسي من أن تقولها عني.

- حسناً، هذا وارد دائماً بالطبع. هل لي أن أكرر يا سيدتي أنك ذكية جداً.

قالت فريدريكا: لن تلبث أن تعطيني شهادة.

ثم نهضت منصرفة، فقال: أليس لديك ما تريدين إخباري به غير هذا يا سيدتي؟

- لا أظن ذلك، لا. سأذهب لآخذ بعض الورود لمادج وأرى كيف حالها.

- هذا عمل جميل جداً، وأشكرك على صراحتك يا سيدتي.

نظرت إليه نظرات حادة وبدت على وشك الكلام، ثم عدلت عن فكرتها تلك وخرجت من الغرفة وهي تبتسم ابتسامة باهتة حين كنت أفتح لها الباب.

قال بوارو: إنها ذكية. نعم، لكن هيركيول بوارو ذكي أيضاً!

- ماذا تقصد؟

- إنه لعمل جيد منها أيضاً أن تجرّعني بالقوة فكرة ثراء السيد لازاروس.

- أما أنا فهذا الأمر أثار اشمئزازي.

- يا عزيزي، دائماً تُظهر رد الفعل الصحيح في المكان الخاطئ؛ المسألة في الوقت الحالي ليست مسألة ذوق جيد أو غير جيد، إن كان للسيدة رايس محب مخلص وغني يستطيع إعطاءها كل ما تريده فمن الواضح أن السيدة رايس لن تحتاج إلى قتل أعز صديقاتها لمجرد حصة زهيدة من الإرث.

- آه!

- تماماً: «آه»!

- لماذا لم تمنعها من الذهاب إلى دار الرعاية؟

- ولماذا أكشف الخيوط التي أمسك بها؟ هل هيركيول بوارو هو الذي يمنع الآنسة مادج من رؤية أصدقائها؟ يا لهذه الفكرة! الأطباء والممرضات هم الذين يفعلون ذلك. يا لأولئك الممرضات المملات! لا تشغلهن سوى القوانين والتعليمات وأوامر الأطباء.

- ألا تخاف أن يدخلنّها إليها على الرغم من كل ذلك؟ فقد تصرّ مادج على إدخالها.

- لن يُسمح لأحد بالدخول يا عزيزي هيستنغز سوانا أنا وأنت، ولهذا السبب كلما أسرعنا إلى هناك كلما كان ذلك أفضل.

في تلك اللحظة فُتح باب غرفة الجلوس بقوة ودخل جورج تشالنجر، كان وجهه المسفوع مليئاً بالسخط. قال: اسمعني يا سيد بوارو، ما معنى هذا؟ لقد اتصلت بدار الرعاية التي فيها مادج وسألتهم عن صحتها وكيف هي وعن الوقت الذي يمكنني أن أذهب فيه لزيارتها، فأخبروني بأن الطبيب لن يسمح لأحد برؤيتها. أريد أن أعرف معنى هذا، وحتى أكون صريحاً معك: هل هذا من عملك أم أن مادج مريضة فعلاً بالصدمة؟

- أؤكد لك أنني لست من يضع قوانين دور الرعاية يا سيدي... لا أجرؤ على هذا. لماذا لا تتصل بالطبيب. ما هو اسمه؟ آه، نعم، الدكتور غراهام؟

- لقد فعلت، فقال لي إنها تتحسن بسرعة أكثر من المتوقع... الكلام المعتاد. لكنني أعرف كل الألاعيب، فعمّي طبيب في شارع هارلي. إنه اختصاصي أعصاب ومحلل نفسي وما إلى ذلك، وهو يصرف الأقارب والأصدقاء بكلمات طمأنة... لقد سمعت عن هذا كله. لا أعتقد أن مادج غير مستعدة لرؤية أحد، بل أعتقد أنك تقف وراء هذا العمل يا سيد بوارو.

ابتسم بوارو ابتسامة لطيفة، والواقع أنني لاحظت دائماً أن بوارو يشعر بتعاطف مع العاشقين. قال: اسمعني يا صديقي، إذا سُمح لضيف واحد بالدخول فلا يمكن منع الآخرين. هل تفهم؟ إما أن نسمح للجميع أو نمنع الجميع. إننا نريد سلامة الآنسة، أنا وأنت، أليس كذلك؟

قال تشالنجر ببطء: أنا أفهمك، ولكن...

- عليك بالصمت! لن نقول أكثر من هذا، سوف ننسى حتى ما قلناه. الحذر، الحذر الشديد هو ما نحتاجه في الوقت الحالي.

قال البحار بهدوء: يمكنني كتمان الأمر.

ثم ذهب إلى الباب وتوقف في أثناء خروجه فقال: لا يوجد حظر على إرسال الورود، أليس كذلك؟ طالما أنها ليست وروداً بيضاء.

ابتسم بوارو، ثم قال بعد أن أغلق تشالنجر العنيف الباب وراءه: والآن بينما يتقابل السيد تشالنجر والسيدة رايس (وربما

السيد لازاروس أيضاً) في محل الزهور نذهب أنا وأنت إلى وجهتنا بهدوء.

قلت: وهل ستطلب إجابة على الأسئلة الثلاثة؟

- نعم؛ سوف نسأل... على الرغم من أنني أعرف الإجابة.

صحت: ماذا؟!

- نعم.

- ولكن، متى عرفت؟

- عندما كنت أتناول الإفطار يا هيستنغز؛ لقد انتصبت الحقيقة واضحة أمام عيني.

- أخبرني

- لا، سأتركك تسمعها من الآنسة.

ثم دفع إليّ برسالة مفتوحة وكأنه يريد إبعاد ذهني عن ذلك الموضوع. كان تقريراً من الخبير الذي أرسله بوارو ليقيّم صورة نيكولاس باكلي، وقد جزم التقرير بأن هذه اللوحة لا تزيد قيمتها على عشرين جنيهاً.

قال بوارو: ها نحن نجد إجابة لإحدى المسائل.

قلت وأنا أتذكر استعارة استخدمها بوارو في إحدى المناسبات الماضية: لا فأر في ذلك الجحر.

- آه، أتذكر هذا؟ نعم، كما تقول، لا يوجد فأر في الجحر.

- عشرون جنيهاً بينما عرض السيد لازاروس خمسين جنيهاً؟ يا له من خطأ في الحكم يرتكبه شاب يبدو ذكياً! حسناً، لنشرع في مهمتنا.

* * *

وجدنا دار الرعاية مقامة على هضبة تطل على الخليج، واستقبلَنا ممرض يرتدي معطفاً أبيض ثم أرسَلَنا إلى غرفة صغيرة في الطابق الأرضي، وسرعان ما جاءت إلينا ممرضة رشيقة المظهر. بدا أن نظرة واحدة إلى بوارو كانت كافية، فمن الواضح أنها تلقت تعليمات من الدكتور غراهام مع وصف دقيق لرجل التحري الضئيل بوارو. حتى إنها أخفت ابتسامة.

قالت: أمضت الآنسة باكلي ليلة هادئة جداً. هل تريدان الصعود معي؟

في غرفة مريحة تدخلها أشعة الشمس وجدنا مادج. بدت على السرير الحديدي الضيق مثل طفلة مرهقة، كان وجهها شاحباً وعيناها محمرتين، وقد بدت ضَجِرة فاترة الهمة. قالت بصوت فاتر: جميل منكما أن تأتيا.

أمسك بوارو يدها بكلتا يديه وقال: تشجّعي يا آنسة، يوجد دائماً شيءٌ يحيا الإنسان من أجله.

أجفلتها تلك الكلمات فرفعت بصرها تنظر إليه وقالت: آه!

- ألن تخبريني الآن عمّا كان يقلقك في الفترة الأخيرة يا آنسة،

أم تريدين مني أن أخمن؟ كما أرجو أن تتقبلي أعمق مشاعر التعاطف معك.

احمرّ وجهُها وقالت: إذن فأنت تعرف. لا يهم مَن الذي يعرف الآن؛ لقد انتهى كل شيء. آه، لن أراه ثانية أبداً.

تهدّج صوتها من شدة الانفعال. قال بوارو: تشجعي يا آنسة.

- لم يبقَ لديّ شجاعة. لقد استخدمت كل ما عندي من شجاعة في الأسابيع الأخيرة الماضية، كانت مليئة بالأمل والرجاء، وفي النهاية بات أملاً غير عقلاني.

حدقت إليها ولم أستطع فهم كلمة واحدة. قال بوارو: انظري إلى هيستنغز المسكين، إنه لا يعرف شيئاً عن الذي نتحدث عنه.

نظرت إليّ بعينيها الحزينتين وقالت: الطيار مايكل ستين... لقد كنا مخطوبين، وقد مات.

* * *

الفصل الحادي عشر
الدافع

وقع عليّ الخبر كالصاعقة. التفتّ إلى بوارو وقلت: هل هذا ما كنت تعنيه؟

- نعم يا صديقي، لقد عرفت هذا الصباح.

- كيف عرفت؟ كيف خمّنت؟ لقد قلت إن الحقيقة قد انتصبت أمام عينيك وقت الإفطار.

- هذا ما حدث يا صديقي؛ من الصفحة الأولى في الصحيفة. تذكرت الحديث الذي دار على مائدة العشاء في الليلة الماضية فعرفت كل شيء.

ثم التفت إلى مادج وقال: لقد سمعت الخبر في الليلة الماضية، أليس كذلك؟

- نعم، في الإذاعة. تذرّعت بالاتصال بالهاتف إذ كنت أريد سماع الخبر وحدي حتى لا... وابتلعت ريقها بصعوبة ثم أضافت: ثم سمعته.

قال وهو يمسك يدها بين يديه: أعرف، أعرف.

- كان... مروّعاً جداً، مع وصول أولئك المدعوين جميعاً، لا أدري كيف تغلبت على الموقف. شعرت أنه حلم، كان بوسعي أن أرى نفسي من الخارج شخصاً آخر... كان إحساساً غريباً بعض الشيء.

- نعم، نعم، أفهم هذا.

- وبعدها، عندما ذهبت لأحضر معطف فريدي... انهرت قليلاً، لكني استجمعت قواي بسرعة. وظلت ماغي تناديني بخصوص معطفها، والظاهر أنها أخذت وشاحي أخيراً وذهبت، ثم خرجت وراءها، وهناك رأيتها... ميتة.

- نعم، نعم، لا بد أنها كانت صدمة رهيبة.

- أنت لا تفهم. لقد كنت غاضبة؛ تمنيت لو أنني كنت الميتة بدلاً منها! أردت الموت... وأنا أقف هناك على قيد الحياة! قد أعيش سنوات، ومايكل مات... غرق بعيداً في المحيط.

- يا طفلتي المسكينة!

صاحت بتمرد: لا أريد الحياة... أقول لك لا أريد الحياة!

- أعرف، أعرف. يأتي على كل منا -يا آنسة- وقت نفضل فيه الموت على الحياة. لكنه يمر... الحزن يمرّ والأسى كذلك. أعرف أنك لا تصدقين هذا الآن، من غير المفيد من رجل عجوز مثلي أن يتكلم بكلمات فارغة... هذا ما تعتقدينه، كلمات فارغة.

- أتظن أنني سأنسى وأتزوج رجلاً آخر؟ أبداً.

قال بوارو بهدوء: لا، لا، لم يخطر ببالي شيء من ذلك. أنت محظوظة جداً يا آنسة، فقد أحبك رجل شجاع بطل. كيف التقيت به؟

- كان ذلك في لوتوكيه في أيلول الماضي، قبل سنة تقريباً.

- ومتى تمت خطوبتكما؟

- بعد عيد الميلاد مباشرة، ولكن توجب علينا إبقاء الأمر سراً.

- ولماذا؟

- لأن عم مايكل، العجوز السير ماثيو ستين، كان يحب الطيور ويكره النساء.

- آه، هذا غير معقول.

- لا أعني ذلك بالضبط، فقد كان معتوهاً تماماً. كان يعتقد أن النساء يحطمن حياة الرجال. وكان مايكل عالة عليه تماماً، كان يفتخر كثيراً بمايكل وهو الذي موّل بناء طائرة ألباتروس ودفع نفقات رحلته حول العالم. كانت تلك الرحلة أكبر حلم في حياته تماماً، كما كانت أغلى حلم في حياة مايكل. وكان الرأي أنه لو قدر لمايكل أن ينجح في رحلته هذه فسيكون بوسعه أن يطلب من عمه أي شيء، حتى لو أظهر السيد ماثيو العجوز غضباً لما كان ذلك مهماً عندئذ لأن من شأن مايكل أن يكون وقتها بطلاً عالمياً، وسيغير العجوز موقفه في النهاية.

- نعم، نعم، أفهم.

- لكن مايكل قال إن أي تسرب لخبر خطوبتنا من شأنه أن يقضي على آمالنا، وطلب مني أن يظل كل شيء سراً دفيناً. وهذا ما فعلته، لم أخبر أحداً أبداً... حتى فريدي.

قال بوارو مزمجراً: لو أنك أخبرتني فقط يا آنسة.

حدقت مادج إليه وقالت: وماذا كان ذلك سيغير؟ لا يمكن أن يكون لذلك أي علاقة بهذه المحاولات الغامضة للاعتداء على حياتي. لقد وعدت مايكل ووفيت بوعدي، لكنه كان شيئاً رهيباً... القلق والتساؤل والعصبية التي كانت تلازمني طوال الوقت، والجميع يقولون إنني عصبية المزاج ولا أستطيع توضيح الأمر.

- نعم، إنني أدرك ذلك.

- لقد فُقد مرة من قبل فيما كان يعبر الصحراء في طريقه إلى الهند. كان ذلك حادثاً رهيباً، ثم تبين بعد ذلك أنه بخير، فقد تعطل محرك الطائرة لكنه أصلحه ثم أكمل طريقه. وقد بقيت أفكر وأقول لنفسي إنه سينجو هذه المرة أيضاً. الكل قال إنه ميت بلا شك وبقيت أنا أحدث نفسي أنه بخير، ثم في الليلة الماضية...

تلاشى صوتها فقال بوارو: بقي الأمل يحدوك حتى ذلك الوقت؟

- لا أدري، أظن أن الحال كانت أقرب إلى رفض التصديق منها إلى الأمل. كان مريعاً أن لا أستطيع الحديث مع أي شخص بهذا الخصوص.

- نعم، أستطيع تخيل هذا. ألم تحدثك نفسك قط بإخبار السيدة رايس على سبيل المثال؟

- شعرت بحاجة ملحّة لإخبارها أحياناً.

- ألا تعتقدين أنها خمنت؟

- لا أظن ذلك.

فكرت مادج بهذه الفكرة تفكيراً متمعناً ثم قالت: لم تقل شيئاً أبداً، وإن تكن قد لمّحت إلى بعض الأمور أحياناً.

- ألم تفكري بإخبارها بعد وفاة عم مايكل ستين؟ تعرفين أنه توفي قبل نحو أسبوع؟

- أعرف، فقد أجرى عملية جراحية. أظن أنه كان بوسعي أن أخبر أي شخص وقتها، ولكن ذلك لم يكن ليعتبر أسلوباً لطيفاً في إشاعة الخبر، أليس كذلك؟ أقصد أنه كان سيبدو نوعاً من المفاخرة والتباهي... أي نشر الخبر في ذلك الوقت وأخبار مايكل تملأ الصحف. كان الصحفيون سيهرعون لإجراء مقابلات معي وكان من شأن ذلك أن يكون تصرفاً رخيصاً، سيكرهه مايكل.

- أتفق معك في هذا يا آنسة؛ لم يكن بوسعك إعلان ذلك على الملأ، ولكن ما قصدته هو أنك كنت تستطيعين مصارحة صديق لك فيما بينكما.

- لقد لمحت بهذا الشيء، ولكني لا أعرف مدى فهمه (أي ذلك الشخص) لما قلته.

أومأ بوارو ثم سألها في تغيير مفاجئ للموضوع: هل علاقتك جيدة بابن خالك السيد فايس؟

- تشارلز؟ ما الذي ذكّرك به؟

- كنت أتساءل فقط، هذا كل ما في الأمر.

- إن تشارلز يحب لي الخير، لكنه ممل جداً، وهو لا يخرج من هذه المنطقة أبداً. وأظنه يستهجن طريقة حياتي.

- آه، لا تتهربي يا آنسة؛ لقد سمعت أنه يذل كل حبه وعواطفه عند قدميك.

- إن استهجان تصرفات شخص لا يمنع المرء من الافتتان به. يعتقد تشارلز أن طريقة حياتي تستحق التوبيخ، وهو يستنكر الحفلات التي أقيمها ويستنكر أسلوبي وأصدقائي وأحاديثي... لكنه يحبني مع ذلك، وأظنه يأمل دائماً في إصلاحي.

سكتت قليلاً ثم قالت: من هو ذلك الشخص الذي كنت «تحلبه» لتحصل على الأخبار المحلية؟

- أرجو أن لا تفضحيني يا آنستي؛ لقد تحادثت قليلاً مع السيدة الأسترالية، السيدة كروفت.

- إنها امرأة لطيفة وعاطفية جداً... إذا ما توفر للمرء وقت يقضيه معها. شغلها الشاغل البيت والأطفال، أنت تعرف هذه الأشياء.

- أنا شخصياً من طراز قديم وعاطفي يا آنسة.

- حقاً؟ كان ظني أن الكابتن هيستنغز هو العاطفي فيكما.

احمرّ وجهي سخطاً، وقال بوارو وهو يراقبني ويلاحظ ما أشعر به بتلذّذ بالغ: إنه غاضب، لكنك على حق يا آنسة. نعم، أنت على حق.

قلت غاضباً: أبداً.

- إن لهيستنغز طبيعة جميلة لا مثيل لها، وقد كانت طبيعته تلك أكبر عقبة تواجهني في بعض الأحيان.

- لا تكن سخيفاً يا بوارو.

- إنه بطيء متردد في رؤية وإدراك وجود الشر في أي مكان، وعندما يرى الشر يصبح سخطه الناشئ عن الاستقامة هائلاً إلى الحد الذي لا يستطيع معه إخفاء السخط. إنه طبيعة نادرة جميلة. لا يا صديقي، لن أسمح لك بنقض أقوالي، فالأمر كما أقوله.

قالت مادج بلطف: لقد كنتما في غاية اللطف معي أنتما الاثنين.

- آه يا آنسة، لم نقم إلا بالواجب، وما زال علينا عمل الكثير. أولاً ستبقين هنا، وسوف تطيعين الأوامر، ستفعلين ما أطلبه منك. يجب أن لا يعيق عملي شيء في هذا الوقت.

تنهدت مادج بضجر وقالت: سأفعل ما تشاء، لا يهمني ما أفعله.

- لن تري أي أصدقاء في الوقت الحالي.

- لا يهم، لا أريد رؤية أحد.

- إن دورك هو الدور السلبي، أما دورنا فهو الدور الإيجابي. والآن سأتركك يا آنسة، لن أقتحم عليك حزنك أكثر من ذلك.

ذهب صوب الباب ووقف ويده على مقبض الباب ليقول وهو يدير رأسه: بالمناسبة، لقد ذكرت لي مرة وصية كنت قد كتبتها، أين هذه الوصية؟

- آه، إنها هناك في مكان ما.

- في «البيت الأخير»؟

- نعم.

- في خزنة أم مقفلاً عليها في أحد أدراج مكتبك؟

قطبت جبينها ثم قالت: الحق أنني لا أعرف. إنها في مكان ما هناك، أنا غير منظمة أبداً وغالباً ما تكون الأوراق وغيرها في طاولة الكتابة في المكتبة. هناك توجد معظم الفواتير والأوراق وقد تكون الوصية معها، أو قد تكون في غرفة نومي.

- هل تأذنين لي بالبحث عنها؟

- إن كنت تريد ذلك... لا بأس. ابحث عن أي شيء تريده.

- شكراً لك يا آنسة، سأستفيد من إذنك هذا.

* * *

الفصل الثاني عشر

إيلين

لم ينبس بوارو ببنت شفة إلى أن خرجنا من دار الرعاية، ثم امسكني من ذراعي وقال: هل ترى يا هيستنغز؟ هل ترى؟ يا إلهي! لقد كنت على حق؛ عرفت منذ البداية أن هناك شيئاً ناقصاً، ولم يكن للأمر كله أي معنى بغياب ذلك الجزء.

كان زهوه الكبير غير مفهوم أبداً بالنسبة لي، فلم أرَ أن شيئاً مهماً قد حدث.

- كان هناك طوال الوقت ولكني لم أستطع رؤيته. وكيف لي أن أراه؟ أن تعرف أن هناك شيئاً ما... نعم، هذا ممكن، ولكن أن تعرف ما هو هذا الشيء... فهذا أمر في غاية الصعوبة.

- هل تعني أن لهذا علاقة مباشرة بالجريمة؟

- يا إلهي، ألا ترى ذلك أنت؟

- الواقع أنني لا أدري.

- هل هذا ممكن؟ إنه يعطينا ما كنا نبحث عنه. الدافع، الدافع الخفي الغامض!

- قد أكون غبياً جداً، لكني لا أستطيع أن أراه. هل تعني دافع الغيرة؟

- الغيرة؟ لا، لا يا صديقي. بل إنه الدافع المعتاد، الدافع المحتوم؛ المال يا صديقي، المال!

حدقت إليه، وأكمل يقول بهدوء أكثر: اسمع يا صديقي، قبل أسبوع فقط توفي السيد ماثيو ستين. وكان السير ماثيو ستين هذا مليونيراً، أحد أغنى الرجال في إنكلترا.

- نعم، ولكن...

- انتظر، لا تتعجل مرة واحدة. كان له ابن أخ يحبه حباً شديداً، ويمكننا أن نفترض بكل يقين أنه ترك له ثروة واسعة.

- ولكن...

- أجل، ربما كانت في الوصية هِباتٌ معينة ومِنَح للمؤسسات التي يشجعها وغير ذلك، هذا صحيح كله، ولكن جل ثروته سيذهب إلى مايكل ستين. وقد أعلنت الصحف يوم الثلاثاء الماضي عن فقدان مايكل ستين، ويوم الأربعاء بدأت الاعتداءات التي استهدفت حياة الآنسة. افترض -يا هيستنغز- أن مايكل ستين كتب وصية قبل انطلاقه في رحلته وترك في هذه الوصية كل ثروته لخطيبته.

- هذا محض افتراض.

- إنه افتراض، نعم، ولكن لا بد أن الأمر كذلك. لأنه لو كان غير ذلك فلا معنى لأي شيء مما حدث. إن الإرث الذي نتحدث عنه ليس مبلغاً تافهاً، إنه ثروة عظيمة.

بقيتُ صامتاً لبعض الوقت وأنا أقلّب المسألة في عقلي، وبدا لي أن بوارو كان يقفز إلى النتائج بطريقة متهورة جداً، ومع ذلك كنت مقتنعاً في قرارة نفسي بأنه على حق. إن ما كان يؤثر فيّ هو حاسة تمييزه الخارقة للموقف الصحيح، ومع ذلك بدا لي أن هناك الكثير مما لا يزال بحاجة إلى برهان. جادلته قائلاً: ولكن إذا لم يكن أحد يعلم عن الخطوبة...

- آه، لقد عرف أحدهم الحقيقة بالتأكيد؛ ففي أحوال كهذه دائماً ما نجد شخصاً يعرف، وإن لم يعرفوا فإنهم يخمّنون. لقد شكّت السيدة رايس بالأمر كما اعترفت للآنسة مادج، وربما كان للسيدة رايس من الوسائل ما تؤكد فيه شكوكها.

- كيف؟

- حسناً، لا بد -مثلاً- من وجود رسائل من مايكل ستين إلى الآنسة مادج، فقد كانا مخطوبين منذ وقت ليس بالقصير، كما أن أفضل صديقة لها لم يكن وصفها تلك الفتاة إلا بالإهمال واللامبالاة. إنها تترك الأشياء هنا وهناك وفي كل مكان، ولا أظن أنها استخدمت القفل والمفتاح يوماً في حياتها. نعم، كانت هناك طرق للتأكد من الشكوك.

- وهل كان من شأن فريدريكا رايس أن تعرف شيئاً عن الوصية التي كتبتها صديقتها؟

- بلا شك. آه، نعم، إن شبهاتنا تصبح أكثر تحديداً الآن. أنت تذكر القائمة التي وضعتها... قائمة الأشخاص المرقّمين من واحد إلى عشرة؟ لقد ضاقت وانحصرت في شخصين اثنين فقط، فقد استبعدت الخدم واستبعدت القبطان تشالنجر... رغم أنه استغرق ساعة ونصف الساعة للوصل إلى هنا من بلايموث في مسافة لا تتعدى الثلاثين ميلاً. وقد استبعدت صاحب الأنف الطويل السيد لازاروس الذي عرض خمسين جنيهاً مقابل شراء لوحة لا تستحق أكثر من عشرين جنيهاً (تبدو غريبة عندما تفكر فيها، وهي تناقض تماماً طبائع أبناء مهنته)، واستبعدت الأستراليين الودودين المرحين. لكني أبقيت اثنين على قائمتي.

قلت ببطء: أحدهما فريدريكا رايس؟ (وتخيلت وجهها وشعرها الذهبي وملامحها البيضاء الهزيلة).

- نعم، إن المؤشرات تدل عليها بوضوح تام، ومهما اتسمت وصية الآنسة باللامبالاة في صياغتها إلا أنها تشير بوضوح بلا شك إلى أن السيدة رايس سترث ما يتبقّى من التركة، أي أن كل شيء (باستثناء البيت الأخير) يُفترض بوضوح أن يؤول إليها. ولو أن الآنسة مادج قُتلت بدلاً من الآنسة ماغي الليلة الماضية لكانت السيدة رايس امرأة غنية اليوم.

- لا أكاد أصدق ذلك.

- أتقصد أنك لا تكاد تصدق أن امرأة جميلة يمكن أن تكون قاتلة؟ إننا نواجه في الغالب بعض الصعوبات في إقناع المحلفين بهذا الأمر. قد تكون على حق، فما زال لدينا مشتبه آخر.

- من هو؟

- تشارلز فايس.

- لكنه لا يرث إلا البيت فقط.

- نعم، لكنه قد لا يعرف ذلك. هل هو الذي كتب للآنسة وصيتها؟ لا أظن ذلك، فلو أنه كتبها لكانت بحوزته وليست «ملقاة في مكان ما» كما وصفتها الآنسة مادج. إذن فأنت ترى يا هيستنغز أنه من المحتمل تماماً أن فايس لا يعرف تماماً عن تلك الوصية. ربما يظن أنها لم تكتب وصية أبداً، وفي هذه الحالة سوف يرثها بصفته أقرب أقربائها.

قلت: أتدري يا بوارو، يبدو لي حقاً أن هذا هو الاحتمال الأقوى.

- بل هو تفكيرك الرومانسي يا هيستنغز، إذ قفزت إلى ذهنك صورة المحامي الشرير، وهي الصورة الشائعة في القصص. فإذا أضفنا إلى مهنته حقيقة أن له وجهاً لا ينم عن مشاعر أو عواطف تصبح القضية شبه مؤكدة وقتها! الصحيح أنه أكثر اطلاعاً من السيدة رايس إلى حد ما ويرجَّح أنه أكثر معرفة بأمر المسدس وهو الأقدر على استخدامه.

- وعلى دحرجة الصخرة عن المنحدر.

- ربما، رغم أن الأثقال يمكن رفعها بسهولة عن طريق مبدأ الرافعة كما أخبرتك. وحقيقة أن الصخرة قد تحركت في اللحظة غير المناسبة وبالتالي لم تصب الآنسة يرجّح أن يكون الفاعل أنثى.

وفكرة العبث بكوابح السيارة تبدو عملاً من أعمال الرجال حسب المفهوم السائد، رغم أن كثيراً من نساء اليوم يفهمن في ميكانيك السيارات مثل كثير من الرجال. ومن ناحية أخرى يوجد بعض الثغرات في فرضية الاشتباه بالسيد فايس.

- مثل ماذا؟

- إن فرصة معرفته بموضوع الخطوبة أضعف من فرصة السيدة رايس، كما أن هناك نقطة أخرى؛ فقد كان تصرفه متعجلاً متهوراً بعض الشيء.

- ماذا تقصد؟

- حتى الليلة الماضية لم يكن موت ستين مؤكداً، ولذلك فإن العمل بطريقة متهورة ومندفعة دون التأكد من المطلوب يبدو متناقضاً مع عقلية رجل قانون مثله.

قلت: نعم، المرأة يمكن أن تقفز إلى النتائج دون دراسة أو تفكير.

- بالضبط؛ لا يفكرن أبعد من أنوفهن أحياناً. هذا هو الموقف.

- الحق أن الطريقة التي نجت بها مادج من الموت مذهلة، يبدو أمراً لا يصدَّق.

وفجأة تذكرت نبرة فريدريكا عندما قالت: "إن لحياة مادج قوى خارقة تحميها"، وارتعدت أوصالي قليلاً.

قال بوارو متأملاً: نعم، ولا يمكنني أن أعزو شيئاً من الفضل إلى نفسي، وهذا شيء مذل.

قلت متمتماً: إنها العناية الإلهية.

كنا نمشي ببطء في الطريق المتعرج الذي يصعد قمة المنحدر، وعند هذه النقطة من الحديث كنا نعبر البوابة الصغيرة وندخل حديقة «البيت الأخير».

قال بوارو: آه، إنه صعود بالغ الحدة... أشعر بالحر وقد تهدّل شاربي. نعم، كما أقول دوماً: أنا إلى جانب البريء، فأنا منحاز إلى الآنسة مادج لأنه أُعتدي عليها وأنا في صف الآنسة ماغي لأنها قتلت.

- وأنت ضد فريدريكا رايس وتشارلز فايس.

- لا، لا يا هيستنغز... إنني متفتح العقل. كل ما قلته هو أن الدلائل تشير إلى أحد الاثنين في الوقت الحالي، وكفى.

كنا قد وصلنا إلى المرجة القريبة من البيت، وكان هناك رجل يعمل في آلة جز الأعشاب. كان له وجه طويل غبي وعينان تفتقدان إلى الحيوية، وكان إلى جانبه ولد صغير في العاشرة من عمره قبيح المنظر لكنه يبدو ذكياً. وقد خطر ببالي أن نسمع آلة جز الأعشاب تعمل لكني افترضت أن البستاني لم يكن يريد إجهاد نفسه في العمل، فربما كان يستريح من عمله، إلا أنه قد أسرع إلى العمل عند سماعه أصواتنا تقترب منه.

قال بوارو: صباح الخير.

- صباح الخير يا سيدي.

- أظن أنك البستاني، زوج السيدة التي تعمل في البيت.

قال الولد الصغير: إنه أبي.

قال الرجل: هذا صحيح يا سيدي، أظن أنك الرجل الأجنبي الذي هو في الحقيقة رجل تحر. هل من أخبار عن سيدتي الشابة يا سيدي؟

- لقد عدت من زيارتها للتو، وقد أمضت ليلة مريحة.

قال الولد الصغير: لقد جاء رجال الشرطة إلى هنا. هنا قتلت السيدة، هنا قرب الدرج. لقد رأيت خنزيراً يُقتل ذات مرة، أليس كذلك يا أبي؟

- قال الأب ببرود: نعم.

- اعتاد أبي قتل الخنازير عندما كان يعمل في مزرعة، أليس كذلك يا أبي؟ لقد شاهدت خنزيراً يقتل وقد أعجبني ذلك.

قال الرجل وكأنه يقدر إحدى حقائق الطبيعة: الصغار يحبون رؤية قتل الخنازير.

أكمل الولد يقول: لقد قُتلت السيدة بمسدس ولم تذبح ذبحاً من رقبتها، أليس كذلك؟

دخلنا إلى البيت وأحسست بالراحة لأننا هربنا من هذا الطفل المتلذذ بموضوع الجثث. دخل بوارو غرفة الاستقبال حيث كانت

أبوابها الزجاجية مفتوحة وقرع الجرس، فجاءت إيلين وهي ترتدي ثوباً أسود أنيقاً لترد على الجرس ولم تظهر أي مفاجأة عند رؤيتنا.

أوضح لها بوارو أننا جئنا بإذن الآنسة باكلي فقالت: حسناً يا سيدي.

- هل انتهى رجال الشرطة من عملهم؟

- قالوا إنهم رأوا كل شيء يريدونه يا سيدي. كانوا في الحديقة منذ وقت مبكر من صباح اليوم، ولا أدري إن كانوا قد وجدوا شيئاً أم لا.

كانت على وشك الخروج من الغرفة عندما أوقفها بوارو بسؤال منه: هل دهشت كثيراً عندما سمعت في الليلة الماضية أن الآنسة باكلي قد قتلت؟

- نعم يا سيدي، دهشت كثيراً، فالآنسة ماغي كانت فتاة لطيفة ولا أتخيل أن يصل الشر بأحدٍ إلى حد إيقاع الأذى بها.

- لو كانت الضحية شخصاً آخر غيرها فإنك ما كنت لتفاجئي، أليس كذلك؟

- لا أدري ما الذي تقصده يا سيدي؟

- عندما دخلت الصالة الليلة الماضية سألتِني على الفور إن كان أحد قد أصيب بأذى. هل كنت تتوقعين أن يصاب أحدٌ بشيء؟

بقيت صامتة فيما أصابعها تعبث بطرف مريولها، ثم هزّت رأسها قائلة: أنتم -معشر الرجال- لا يمكن أن تفهموا.

- بلى، بلى، إنني أفهم. أفهم ما ستقولينه حتى لو كان أمراً غريباً.

نظرت إليه نظرات ارتياب وكأنها قررت الوثوق فيه، وقالت: هذا البيت ليس بيتاً جيداً يا سيدي.

فوجئت بردها هذا وأحسست بشيء من الازدراء، ومع ذلك بدا بوارو وكأنه لم يجد في هذه الملاحظة ما هو غريب.

- تقصدين أنه بيت قديم؟

- نعم يا سيدي، ليس بيتاً جيداً.

- هل تعملين هنا منذ مدة طويلة؟

- ست سنوات يا سيدي، لكني عشت هنا عندما كنت فتاة. كنت أعمل في المطبخ، خادمة مطبخ. كان ذلك في زمن السير نيكولاس، وكان الشيء نفسه في ذلك الوقت.

نظر إليها بوارو بإمعان ثم قال: يوجد في البيت القديم جو من الشر أحياناً.

قالت إيلين بلهفة: هذا صحيح يا سيدي... الشر، أفكار سيئة وأعمال سيئة أيضاً. إنه كالنخر الذي يصيب البيوت يا سيدي، لا يمكنك القضاء عليه. إنه نوع من الإحساس موجود في الجو العام للبيت؛ عرفت دوماً أن أمراً سيئاً سيحدث يوماً ما في هذا البيت.

- وقد ثبت ذلك وكان ظنك في محله.

- نعم يا سيدي.

دلت نبرة صوتها على إحساس لا يكاد يظهر بالرضا، رضا امرأة تثبت صحة تكهناتها المتشائمة.

- لكنك لم تحسبي أنها ستكون الآنسة ماغي؟

- نعم، الواقع أنني لم أحسب ذلك يا سيدي. لا أحد كان يكرهها... أنا متأكدة من ذلك.

بدا لي وجود مفتاح لحل اللغز في تلك الكلمات، وتوقعت أن يركّز بوارو على هذه النقطة، ولكنه -لدهشتي- انتقل إلى موضوع مختلف تماماً. قال: ألم تسمعي صوت الطلقات؟

- لم أكن لأتبينها مع إطلاق الألعاب النارية، كان المكان يعج بالأصوات والضوضاء.

- ألم تكوني في الخارج تراقبين تلك الألعاب النارية؟

- لم أكن قد انتهيت من رفع الصحون عن المائدة.

- هل كان الساقي يساعدك؟

- لا يا سيدي، كان قد خرج إلى الحديقة لينظر إلى الألعاب النارية.

- لكنك لم تذهبي؟

- نعم يا سيدي.

- لماذا؟

- أردت الانتهاء من عملي.

- ألا تهتمين بالألعاب النارية؟

- آه، بلى يا سيدي، لم يكن هذا هو السبب ولكن هناك ليلتين من الألعاب النارية، وأنا ووليام نحصل على إجازة مساء الغد وسوف نذهب إلى البلدة لنراها من هناك.

- مفهوم. وهل سمعتِ الآنسة ماغي تسأل عن معطفها دون أن تستطيع الحصول عليه؟

- سمعت الآنسة مادج تهرع إلى الطابق العلوي يا سيدي، ونداء الآنسة باكلي من الصالة الأمامية وهي تقول إنها لم تعثر على شيء ما... وسمعتها تقول: "حسناً، سآخذ الوشاح".

قاطعها بوارو: أرجو المعذرة، ألم تحاولي البحث عن معطفها أو أن تحضريه لها من السيارة حيث تركته هناك؟

- كان لديّ ما أقوم به يا سيدي.

- صحيح. ولا شك أن أياً من الفتاتين لم تطلب منك ذلك لأنهما ظنتا أنك في الخارج تنظرين إلى الألعاب النارية؟

- نعم يا سيدي.

- إذن كنت في السنوات السابقة تخرجين لتراقبي الألعاب النارية؟

احمرّت وجنتاها الشاحبتان فجأة وقالت: لا أدري ما الذي تعنيه يا سيدي. دائماً كان مسموحاً لنا بالخروج إلى الحديقة، وإذا

شعرت بعدم رغبة في مشاهدتها هذه السنة أو فضلت القيام بعملي فأظن أن هذا أمرٌ يخصني.

- نعم، نعم، لم يكن قصدي أن أسيء إليك. أنت حرة فيما تريدين القيام به والتغيير أمر مريح.

وسكت قليلاً ثم أضاف: توجد مسألة أخرى صغيرة لا أدري إن كنت تستطيعين مساعدتي فيها أم لا. هذا بيت قديم، فهل تعرفين إن كانت فيه أية غرفٍ سرية؟

- يوجد ما يشبه اللوح المتحرك في هذه الغرفة بالذات. أذكر أنني رأيته وأنا فتاة لكنني لا أتذكر الآن أين هو... أم أنه كان في المكتبة؟ لست متأكدة من مكانه.

- هل هو كبير بحيث يمكن لأي شخص أن يختبئ فيه؟

- لا يا سيدي؛ إنه خزانة حائط صغيرة... نوع من الكوّة الصغيرة في الجدار مساحتها نحو قدم مربع ليس أكثر.

- آه، ليس هذا ما قصدته أبداً.

احمرّت وجنتاها ثانية وقالت: إن كنت تظن أنني كنت مختبئة في مكان ما فاعلم بأنني لم أكن كذلك. سمعت الآنسة مادج وهي تنزل الدرج مَرِحةً ثم خرجتُ، وبعد ذلك سمعت صرختها، فجئت إلى الصالة لأرى إن كان... إن كان قد حدث شيء. وهذه حقيقة لا ريب فيها يا سيدي، هذه هي الحقيقة المؤكدة.

* * *

الفصل الثالث عشر

رسائل

بعد نجاح بوارو في التخلص من إيلين التفت إليّ وهو مستغرق في التفكير وقال: لا أدري... هل سمعَت إيلين تلك الطلقات؟ أظن أنها سمعتها. لقد سمعتها وفتحت باب المطبخ، سمعت مادج وهي تنزل مسرعة على الدرج ثم تخرج، وهي نفسها جاءت إلى الصالة لتعرف ماذا حدث. هذا طبيعي، ولكن لماذا لم تخرج وتراقب الألعاب النارية في تلك الليلة؟ هذا ما أريد معرفته يا هيستنغز.

- ماذا كنت تريد بسؤالك إياها عن وجود مخبأ في البيت؟

- مجرد فكرة خيالية، لأننا يجب أن لا نستبعد «١٠».

- «١٠»؟

- نعم، آخر شخص على قائمتي؛ الدخيل المشكوك فيه. لنفترض أنه (ولنتكلم عنه مجازاً بصيغة الذكر) قد جاء إلى البيت في الليلة الماضية بسبب يتعلق بإيلين وأنه اختبأ في مكان سري في هذه الغرفة، ثم تعبر فتاة يظن أنها مادج يتبعها إلى الخارج ثم يقتلها.

لا... هذه فكرة سخيفة! وعلى أية حال نعرف أنه لا يوجد مخبأ سري، وقد كان قرار إيلين بالبقاء داخل المطبخ في الليلة الماضية مجرد مصادفة. هيا، لنبحث عن وصية الآنسة مادج.

لم نجد في غرفة الاستقبال أية أوراق، فانتقلنا إلى المكتبة، وهي غرفة مظلمة تطل على ممشى الحديقة المؤدي إلى البوابة الخارجية. كان فيها طاولة كتابة ذات أدراج كبيرة ومن طراز قديم جداً، واستغرق تفتيشها وقتاً طويلاً. كان كل شيء في حالة من الفوضى وعدم الترتيب؛ فواتير و إيصالات مختلط بعضها ببعض، وبطاقات دعوة ورسائل رسمية تحث على ضرورة تسديد الفواتير والحسابات ورسائل من الأصدقاء.

قال بوارو عابساً: سوف نرتب هذه الأوراق بنظام ومنهجية.

وقد كان في مستوى كلمته بالفعل؛ فبعد نصف ساعة من العمل جلس مسترخياً وعلامات الرضا بادية على وجهه. كان كل شيء مفروزاً ومصنفاً بشكل دقيق، وقال: هذا جيد، ثمة شيء واحد على الأقل جيد، إذ كان علينا أن نفتش كل شيء بشكل تام ودقيق بحيث لم تبقَ فرصة لإضاعة أية وثيقة أو إهمالها.

- نعم، رغم عدم وجود الكثير مما يمكن أن نكتشفه.

- باستثناء هذه.

ثم دفع إليّ رسالة. كانت مكتوبة بخط اليد وبكلمات كبيرة الحجم لا تكاد تقرأ، وكانت تقول:

عزيزتي،

كانت الحفلة رائعة جداً، جداً. أشعر اليوم وكأنني مجرد حشرة. كنتِ ذكية عندما لم تلمسي المادة. إياكِ أن تبدئي أبداً يا عزيزتي، فمن الصعب جداً تركها. إنني أكتب إلى الصديق لكي يسرع في تجهيزنا بالمؤونة. الحياة تعيسة بائسة.

صديقتك المخلصة: فريدي

قال بوارو متأملاً: مؤرخة في شباط الماضي. إنها تتعاطى المخدرات بالطبع، لقد عرفت ذلك من أول مرة رأيتها فيها.

- حقاً؟ لم أشكّ في مثل هذا الأمر أبداً.

- إنه واضح جداً؛ انظر إلى عينيها فقط. ومزاجها المتقلب بشكل غريب، أحياناً تكون منفعلة ومتوترة وأحياناً تكون هادئة ساكنة خاملة.

- إن تعاطي المخدرات يؤثر على المزاج الأخلاقي للمدمن، أليس كذلك؟

- بالتأكيد، لكني لا أظن أن السيدة رايس مدمنة إدماناً حقيقياً؛ إنها في بداية تعاطيها للمخدر وليس في نهايته.

- وماذا عن مادج؟

- لا علامات على ذلك؛ قد تكون حضرت حفلة تعاطي مخدرات من وقت لآخر لمجرد التسلية لكنها لا تتعاطى المخدرات.

- أنا سعيد بذلك.

تذكرت فجأة ما قالته مادج عن فريدريكا بأنها لا تكون طبيعية دائماً. وأومأ بوارو برأسه ونقر على الرسالة التي كانت بيده وقال: هذا ما كانت تشير إليه بلا شك. حسناً، لم نجد شيئاً هنا، هيا نصعد إلى غرفة الآنسة.

كان في غرفة مادج مكتب أيضاً ولكن الأوراق التي كانت فيه قليلة نسبياً، وهنا أيضاً لم يعثر بوارو على أي أثر للوصية. وجدنا دفتر ملكية سيارتها وإشعاراً بتوزيع أرباح جيدة قبل شهر، وفيما عدا ذلك لم نجد أي شيء مهم.

تنهد بوارو وقال: ياللفتيات الصغيرات! إنهن غير مدربات تدريباً صحيحاً هذه الأيام... النظام والمنهج ليس من مفردات تربيتهن. الآنسة مادج هذه جميلة لكنها مغفلة، لا شك أنها مغفلة.

راح يتفحص محتويات خزانة الأدراج فقلت شاعراً ببعض الضيق: إنها ملابسها الخاصة يا بوارو.

توقف دَهِشاً وقال: ولِمَ لا يا صديقي؟

- ألا تعتقد... أقصد أنه لا حاجة للتفتيش فيها.

- اسمعني يا صديقي. واضح أن مادج لا تقفل أدراجها بالمفاتيح، فإن أرادت إخفاء أي شيء عن نظر الآخرين فأين يمكن أن تخفيه؟ تحت الجوارب والملابس الداخلية بالطبع. آه، ماذا لدينا هنا؟

كان يمسك برزمة من الرسائل ملفوفة بشريط وردي باهت،

وقال: إنها الرسائل الغرامية من السيد مايكل ستين إن لم أكن مخطئاً.

ثم قام بفك الشريط وبدأ بتفحص الرسائل، فصحت بأعلى صوتي: بوارو، لا يمكنك أن تفعل ذلك؛ إنه تصرف ليس من ضمن قواعد اللعبة.

قال بوارو بصوت أجش صلب: أنا لا ألعب لعبة بل أتعقب مجرماً.

- نعم، ولكن الرسائل الخاصة...

- قد لا توصلني إلى شيء... لكنها قد توصلني من جهة أخرى. يجب أن أستفيد من كل فرصة يا صديقي. هيا، يمكنك أن تقرأها معي، فأربع عيون أفضل من عينين. ربما استطعت أن تواسي نفسك إن فكرت أن إيلين المخلصة ربما كانت تحفظ هذه الرسائل عن ظهر قلب.

لم يرق لي الموقف، ومع ذلك أدركت أن أحداً في موقع بوارو لا يمكنه أن يكون محتشماً متحفظاً... كما واسيت نفسي بحقيقة أن آخر كلمة من كلمات مادج لنا كانت: "ابحث عن أي شيء تريد".

كانت الرسائل موزعة على تواريخ بدءاً من الشتاء الماضي.

رأس السنة الميلادية

عزيزتي، ها قد حلّت السنة الجديدة وأنا أحقق نتائج جيدة. يبدو حبك لي رائعاً بحيث يصعب عليّ

تصديقه، لقد غيرت مجرى حياتي تغييراً كلياً. أظن أن كلانا يعرف ذلك من أول لحظة تقابلنا فيها، أتمنى لك عاماً جديداً سعيداً يا حبيبتي.

حبيبك إلى الأبد: مايكل

٨ شباط

حبيبتي، لكم أتمنى أن أراك أكثر. إنه لأمر كريه جداً وأمقته أن نضطر إلى هذا التخفي البغيض، ولكني أوضحت لك الأمور. أعلم مقدار كراهيتك للكذب وإخفاء الحقيقة، أنا لا أحب ذلك أيضاً ولكن كشف الحقيقة قد يفسد خططنا كلها. إن العم ماثيو يتوجس بشكل مرضي من الزواج المبكر ويعتبره مدمراً لحياة الرجل العملية، وكأنك ستحطمين حياتي العملية يا ملاكي العزيز!

ابتهجي يا عزيزتي، كل شيء سيسير على ما يرام.

المخلص: مايكل

٢ آذار

أعرف أنه لا ينبغي لي أن أكتب لك كل يومين، ولكن لا بد من الكتابة. عندما حلّقت بطائرتي بالأمس فكرت فيك. طرت فوق سكاربورو، سكاربورو المباركة... أروع مكان في العالم. لا تعلمين مقدار حبي لك يا حبيبتي.

المخلص: مايكل

١٨ نيسان

حبيبتي، تم تحديد الأمر كله بشكل نهائي. إذا ما نجحت في هذا العمل فسأكون قادراً على اتخاذ موقف صلب مع العم ماثيو... ولو لم يعجبه الأمر فماذا يهمني؟ جميل منك أن تكوني مهتمة بوصفي الطويل لطائرة ألباتروس. كم أشتاق لأخذك معي فيها يوماً ما! أرجوك أن لا تقلقي عليّ، فليس في الأمر مغامرةٌ خطيرة كما يبدو. إنني ببساطة لم أسمح بأن أُقتل لأنني أعرف مقدار اهتمامك بي، سيكون كل شيء على ما يرام يا حبيبتي، ثقي في حبيبك مايكل.

المخلص: مايكل

٢٠ نيسان

أيتها الملاك، كل كلمة تقولينها صحيحة، وسوف أدخر رسالتك هذه وأحتفظ بها. إنني أقل من أن أصلح لك، فأنت مختلفة تماماً عن أي شخص آخر. أحبك.

حبيبك: مايكل

كانت الرسالة الأخيرة غير مؤرخة، وكانت تقول:

حبيبتي، أنا راحل غداً. أشعر بالحماسة والإثارة وبالثقة الكبيرة في النجاح. ابتهجي يا حبيبتي ولا تقلقي، ثمة مغامرة بالطبع، لكن الحياة كلها مغامرة. بالمناسبة: أشار عليّ أحدهم بضرورة كتابة وصيتي، ولذلك كتبتها على نصف ورقة من أوراق الملاحظات وأرسلتها إلى العجوز ويتفيك، فليس عندي الوقت لأذهب إلى

هناك. أخبرني شخص ذات مرة بأن رجلاً كتب وصية من ثلاث كلمات فقط: "كل شيء لأمي" وكانت وصية قانونية تماماً لا غبار عليها. وكانت وصيتي التي كتبتها مثلها، وقد كتبتها باسمك الصحيح؛ فقد تذكرت أن اسمك الأصلي هو «ماغدالا»، وهو عمل ذكي مني! وقد شهد على الوصية رفيقان.

لا تفكري جدياً بخصوص هذا الحديث عن الوصايا، أرجوك. سأكون بخير، سأبعث إليك برقيات من الهند وأستراليا وهكذا. تشجّعي، كل شيء سيكون على ما يرام. أترين؟ طابت ليلتك وبارك الله فيك.

مايكل

ربط الرسائل مرة أخرى وقال: هل ترى يا هيستنغز؟ كان عليّ أن أقرأها كلها حتى أتأكد، الأمر كما أخبرتك.

- كنت تستطيع العثور على وسيلة أخرى غيرها؟

- لا يا صاحبي، هذا ما لم أكن أستطيع عمله. كان ينبغي للأمر أن يكون بهذه الطريقة. لدينا الآن دليلٌ قيّمٌ جداً.

- كيف؟

نعرف الآن أن حقيقة قيام مايكل بكتابة وصية لصالح الآنسة مادج مسجلة في الواقع كتابياً. إن أي شخص قرأ هذه الرسائل سوف يعرف الحقيقة، وبوجود الرسائل مخبّأة بهذه الطريقة المهملة فإن أي شخص يستطيع قراءتها.

- إيلين؟

- أعتقد أن إيلين تستطيع ذلك بالتأكيد. سوف نقوم باختبارها اختباراً صغيراً قبل ذهابنا.

- لا أثر للوصية.

- نعم، وهذا غريب. ستكون ملقاة غالباً فوق أحد رفوف الكتب أو في آنية فخارية ما... لا بد أن نحاول حث الآنسة على تذكر مكانها. على أية حال لا يوجد هنا ما يمكن العثور عليه غير هذا.

عندما نزلنا الدرج كانت إيلين تنظف الصالة. ودّعها بوارو عندما مررنا بجانبها، ثم التفت وراءه وهو عند الباب يقول: أظن أنك كنت تعرفين بأن الآنسة باكلي مخطوبة إلى الطيار مايكل ستين؟

حدقت إليه وقالت: ماذا؟ الرجل الذي تحدثت عنه الصحف؟

- نعم.

- أبداً. غريب! خطيب الآنسة مادج؟

عندما خرجنا قال بوارو: دهشة ومفاجأة تامة لا شك فيها.

- نعم؛ تبدو دهشة حقيقية.

- ربما كانت حقيقية فعلاً.

- مع هذه الرزمة من الرسائل ملقاة منذ أشهر تحت تلك الملابس؟ لا يا صاحبي.

فكرت في نفسي قائلاً: حسناً، ولكننا لسنا جميعاً مثل هيركيول بوارو، إننا لا ندس أنوفنا جميعاً فيما لا يعنينا.

ولكني لم أقل شيئاً.

قال بوارو: إيلين هذه لغز غامض. لا أحب ذلك، يوجد هنا شيء لا أفهمه.

* * *

الفصل الرابع عشر

لغز الوصية المفقودة

عدنا إلى دار الرعاية فوراً، وبدا أن مادج قد فوجئت برؤيتنا. قال بوارو وكأنه يجيب على نظراتها: نعم يا آنسة، لقد عدت ثانية. أولاً أريد أن أخبرك أنني قد نظمت أمورك، كل شيء الآن مرتب ومنظم بدقة.

قالت مادج وهي تبتسم رغماً عنها: حسناً، أظن أن الوقت قد حان لتنظيمها. هل أنت مرتب جداً يا سيد بوارو؟

- اسألي صديقي هيستنغز.

التفتت الفتاة إليّ بنظرات متسائلة فشرحت لها بعض عادات بوارو الغريبة الصغيرة: الخبز المحمَّص الذي ينبغي أن يصنع من خبز مربع الشكل، البيض المتشابه بالحجم، معارضته للغولف كلعبة «لا شكل لها وتعتمد على الصدفة»، ثم انتهيت بأن قصصت عليها القضية الشهيرة التي حلها بوارو بواسطة عادته في صفّ وتعديل التحف على رفوف المواقد.

جلس بوارو وهو يبتسم، وعندما انتهيت قال: لقد جعل منها قصة جيدة، نعم، لكنها صحيحة بشكل عام. تصوري -يا آنسة- إنني لا أنوقف عن محاولة إقناع هيستنغز بأن يفرق شعره من منتصفه بدلاً من الجانب. لاحظي مظهره وكيف لا يوجد توازن ولا تناسق في شكله.

قالت مادج: إذن لا بد أن شكلي لا يعجبك يا سيد بوارو، فأنا أفرق شعري من الجانب. كما يجب أن تعجب بفريدي التي تفرق شعرها من منتصفه.

تدخلت قائلاً بأسلوب ماكر: لقد كان معجباً بها بالتأكيد في ذلك المساء، لقد عرفت السبب الآن.

قال بوارو: كفى، أنا هنا في عمل جاد! لم أعثر على وصيتك يا آنسة.

- آه، وهل تهمك كثيراً؟ أنا لم أمت بعد، والوصايا لا تكون مهمة إلا بعد وفاة أصحابها، أليس كذلك؟

- هذا صحيح، ومع ذلك فوصيتك هذه تثير اهتمامي. عندي أفكار صغيرة متنوعة بخصوصها. فكري يا آنسة، حاولي أن تتذكري أين وضعتها... أين رأيتها آخر مرة؟

- لا أظن أنني وضعتها في مكان محدد، أنا لا أضع الأشياء في أماكنها. ربما ألقيتها في أحد الأدراج.

- ألم تخبئيها خلف اللوح السري مثلاً؟

- خلف ماذا؟

- خادمتك إيلين تقول إن في غرفة الاستقبال أو في المكتبة لوحاً سرياً.

- هراء، لم أسمع بهذا من قبل. إيلين هي التي قالت؟

- نعم، ويبدو أنها كانت تعمل في الخدمة في بيتكم هذا عندما كانت فتاة صغيرة. قالت إن الطاهية السابقة أرتها هذا المكان.

- هذه أول مرة أسمع به. لا أظن أن جدي كان يعرف عنه، فلو كان يعرف عنه لأخبرني... أنا واثقة من أنه سيخبرني لو كان صحيحاً. هل أنت متأكد من أن إيلين لم تلفّق هذا الكلام يا سيد بوارو؟

- لا يا آنسة، لست متأكداً أبداً. الظاهر أن في الأمر شيئاً... يوجد شيءٌ غريب بخصوص خادمتك إيلين هذه.

- آه، إنها ليست كذلك. وليام أحمق مغفل والطفل متوحش قذر، ولكن إيلين على ما يرام، إنها جديرة بالاحترام تماماً.

- هل أعطيتها إذناً لتخرج وترى الألعاب النارية في الليلة الماضية يا آنسة؟

- بالطبع، إنهم يخرجون دائماً ثم ينظفون المكان بعد ذلك.

- ومع ذلك لم تخرج.

- بل خرجت.

- وكيف عرفت يا آنسة؟

- إنني... أظن أنني لا أعرف. لقد أخبرتها أن تخرج وشكرتني، وهكذا افترضت أنها خرجت بالفعل.

- بالعكس، لقد بقيت في البيت.

- ولكنه... إنه أمر غريب.

- تعتقدين أنه غريب حقاً؟

- نعم، أنا واثقة من أنها لم تفعل مثل ذلك من قبل. وهل ذكرت السبب.

- لم تخبرني عن السبب الحقيقي... هذا ما أنا واثق منه.

نظرت مادج إليه محتارة وقالت: هل هذا أمر مهم؟

ألقى بوارو يديه في الهواء وقال: هذا ما لا أعرفه يا آنسة. إنه أمر غريب، ولذلك سأتركه هكذا.

قالت مادج بردّة فعل فورية: وهذا الباب السري الذي تتحدث عنه... إنه لأمر غريب وغير مقنع. وهل قالت لك أين يوجد؟

- قالت إنها لا تتذكر مكانه.

- لا أصدق بوجود شيء من هذا القبيل، لا شك أنها تتخيل.

- ربما تأثرت بالروايات التاريخية! وقالت أيضاً إن «البيت الأخير» لم يكن بالمكان الجيد للعيش.

هزت مادج كتفيها وقالت ببطء: لعلها مصيبة في رأيها هذا؛

فأنا نفسي أحسست بشيء من ذلك في بعض الأوقات. ثمة إحساس غريب ينتابني في هذا البيت.

بدا عليها شيء من التأثر فغيّر بوارو الموضوع قائلاً: لنعد إلى موضوعنا يا آنسة... الوصية، ماذا كانت الوصية الأخيرة لماغدالا باكلي؟

قالت مادج بشيء من الفخر: نعم، أذكر أنني كتبت فيها ما يلي: "بعد سداد ديوني وخصم نفقات الدفن..."، أذكر أنني قرأت هذه العبارة ذات مرة في كتاب.

- أنت لم تستعملي نموذجاً جاهزاً إذن؟

- نعم، لم يكن عندي وقت؛ فقد كنت في طريقي إلى المشفى، كما أن السيد كروفت قال إن كتابة وصية بسيطة أفضل من كتابة وصية قانونية معقدة.

- السيد كروفت؟ وهل كان حاضراً؟

- نعم، وكان هو مَن اقترح عليّ كتابة الوصية؛ فما كنت لأفكر بها أنا نفسي لولا ذلك. وقال إنني إذا متّ دون وصية فإن الحكومة ستستولي على جزء كبير من التركة، وهو أمر يؤسف له.

- يبدو أن السيد كروفت هذا خَدوم جداً؟

قالت مادج بحرارة: نعم، بالفعل. وقد جاء بإيلين وزوجها للشهادة... آه، يا لي من غبية بالفعل!

نظرنا إليها بتساؤل فقالت: كنت غبية تماماً وأنا أقترح عليك

البحث عن الوصية في البيت؛ فهي مودَعة لدى تشارلز، ابن خالي تشارلز فايس.

- آه، إذن هذا هو التفسير؟

- نعم، فقد قال السيد كروفت إن المحامي هو أفضل شخص يتولى مسؤوليتها.

- دقيق تماماً هذا السيد كروفت.

قالت مادج: الرجال مفيدون أحياناً. قال كروفت إن عليّ وضعها عند محام أو لدى المصرف، وقلت له إن تشارلز هو الأفضل، ولذلك وضعناها في مغلف مغلق وأرسلناها إليه على الفور.

وضعت رأسها على الوسادة وتنهدت قائلة: أنا آسفة، لقد كنت غبية جداً لكن الأمر واضح الآن. تشارلز استلمها، وإن كنت تريد رؤيتها حقاً فإنه سيريك إياها بالطبع.

قال بوارو مبتسماً: لن يفعل ذلك دون إذن منك.

- ما أسخف ذلك!

- لا يا آنسة، بل هو التعقل.

- رغم ذلك أظن أنه سخيف.

ثم أخذت ورقة من مجموعة أوراق صغيرة كانت بجانب سريرها وقالت: ماذا أكتب؟

أملى عليها بضع كلمات فكتبتها مادج طائعة، وقال بوارو وهو يأخذها منها: شكراً يا آنسة.

- آسفة لأنني تسببت لك بالمتاعب، ولكني نسيت حقاً. أنت تعرف كيف ينسى الإنسان الأشياء على الفور؟

- مع وجود النظام والمنهجية في العقل لا ينسى الإنسان.

- لا بد أن آخذ دورة معينة، إنك تسبب لي عقدة نقص في الحقيقة.

- هذا مستحيل، وداعاً يا آنسة.

نظر حوله في الغرفة وقال: أزهارها جميلة.

- صحيح؟ القرنفل من فريدي والورود من جورج والليلك من جيم لازاروس. ثم انظر هنا...

نزعت ورقة من سلة كبيرة من العنب كانت بجانبها فتغير وجه بوارو، ثم تقدم إلى الأمام منفعلاً وقال: هل أكلت منها شيئاً؟

- لا، ليس بعد.

- لا تفعلي هذا. يجب أن لا تأكلي شيئاً يأتي من الخارج يا آنسة، لا شيء، هل تفهمين؟

حدقت إليه وقد أخذ التورد يذوي عن وجهها شيئاً فشيئاً وقالت: فهمت. أنت تعتقد... تعتقد أن الأمر لم ينته بعد. هل تعتقد أنهم ما زالوا يحاولون؟

أمسك بيدها وقال: لا تفكري في هذا الأمر، فأنت في مأمن هنا. ولكن تذكري... لا تقتربي من أي شيء يأتيك من الخارج.

رأيت كيف كان وجهها شاحباً خائفاً ونحن نغادر الغرفة. ونظر بوارو إلى ساعته وقال: جيد، لدينا الوقت الكافي لرؤية السيد فايس في مكتبه قل أن يغادره إلى الغداء.

* * *

عندما وصلنا أدخلونا إلى مكتب السيد تشارلز فايس دون تأخير. ونهض المحامي الشاب من مقعده لتحيتنا، كان يتصرف معنا تصرفاً رسمياً بارداً كما هي عادته وقال: صباح الخير يا سيد بوارو، ما الذي يمكنني عمله لك؟

سلّمه بوارو الرسالة التي كتبتها مادج بلا مقدمات، فأخذها وقرأها، ثم حدق إلى أعلى الورقة وعلامات الحيرة بادية على وجهه وقال: أرجو المعذرة، الواقع أنني لم أفهم شيئاً.

- ألم توضح الآنسة باكلي غرضها؟

قال وهو يضرب الرسالة بأصابعه: إنها تطلب مني في هذه الرسالة تسليمك وصية كتبتها هي ووضعتها في حوزتي في شهر شباط الماضي.

- نعم يا سيدي.

- ولكن ما من وصية وُضعت لديّ يا سيدي العزيز.

- ماذا؟

- حسب علمي فإن ابنة عمتي لم تكتب وصيةً أبداً. أنا واثق من أنني لم أعدّ لها وصية.

- علمت منها أنها كتبتها بنفسها على ورقة ملاحظات وأرسلتها لك بالبريد.

هز المحامي رأسه نافياً وقال: في تلك الحالة كل ما أستطيع قوله لك إنني لم أستلمها أبداً.

- الحق يا سيد فايس...

- لم أستلم أي شيء كهذا يا سيد بوارو.

سكت الاثنان، ثم وقف بوارو وقال: في هذه الحالة لا شيء عندي لقوله يا سيد فايس، لا بد أن في الأمر خطأً ما.

- ثمة خطأ بالتأكيد.

نهض هو الآخر فقال بوارو: طاب يومك يا سيد فايس.

- طاب يومك يا سيد بوارو.

* * *

قلت عندما خرجنا إلى الشارع مرة أخرى: هذا كل ما في الأمر إذن؟

- بالضبط.

- هل تظن أنه يكذب؟

- من المستحيل الجزم، فوجهه غير معبّر أبداً. ولكن أمراً واحداً أصبح واضحاً، وهو أنه لم يتزحزح عن موقفه الذي اتخذه. إنه لم يستلم الوصية أبداً، ذلك هو موقفه.

- لا بد أن لدى مادج رسالة إقرار باستلامها.

- هذه الصغيرة لن تقلق نفسها بشيء كهذا. لقد خرجت القضية من عقلها بمجرد إرسال الرسالة، كما أنها في ذلك اليوم نفسه دخلت أحد المستشفيات لاستئصال الزائدة الدودية.

- حسناً، ماذا نفعل الآن؟

- سنذهب لرؤية السيد كروفت بالطبع؛ نريد أن نرى ما يمكن أن يتذكره بخصوص هذا الأمر. يبدو أن هذا العمل كان بمبادرة منه إلى حد بعيد.

قلت: إنه لا يستفيد شيئاً منه.

- نعم، أنا لا أرى فيه أي شيء. قد يكون مجرد شخص فضولي من أولئك الناس الذين يحبون شؤون جيرانهم.

شعرت أن مثل ذلك الموقف كان ينسجم حقاً مع طبيعة السيد كروفت، إذ كان من النوع اللطيف المتعاون العارف بكل الأمور، وهو النوع الذي يتسبب في إثارة السخط في عالمنا هذا.

وجدناه مشغولاً في ثني أكمام قميص في المطبخ وهو يراقب إبريق ماء يغلي، وكانت رائحة الزعتر البري تملأ البيت الصغير. ترك نشاطه المطبخي، وكان واضحاً توقه الشديد للحديث عن جريمة

القتل. قال: لحظة واحدة فقط، هيا نصعد إلى الطابق العلوي. زوجتي تحب أن تشارك في الحديث ولن تغفر لنا أبداً إن تحدثنا هنا وتركناها، كووي... ميلي، صديقان قادمان إليك.

حيّتنا السيدة كروفت بحرارة وأبدت تلهّفها لسماع أخبار عن مادج، وأحسست بالتعاطف معها أكثر من تعاطفي مع زوجها.

قالت: تلك الفتاة المسكينة! هل قلت إنها في إحدى دور الرعاية؟ لا عجب أن تصاب بانهيار تام. عمل رهيب يا سيد بوارو، رهيب جداً. فتاة بريئة كهذه تقتل! لا أحد يمكنه تصديق ذلك، لا أحد. ويحدث ذلك في بلد متمدّن يحكمه القانون أيضاً، هنا في قلب هذا البلد؟ لقد جعلتني تلك الجريمة لا أنام طول الليل.

قال زوجها الذي ارتدى معطفه وانضمّ إلينا: وقد جعلتني لا أطمئن للخروج وتركك وحيدة يا عزيزتي. لا أحب أن أتذكر أبداً كيف تركتك وحيدة هنا مساء الأمس... إن ذلك يصيبني بالصدمة.

قالت السيدة كروفت: لن تخرج وتتركني وحدي بعد الآن، بعد حلول الظلام على الأقل. كما أنني أصبحت أفكر بالرحيل من هنا في أسرع وقت ممكن. لقد تغير شعوري تماماً إزاء هذه المنطقة، ولا أظن أن المسكينة مادج باكلي سوف تطيق النوم في ذلك البيت بعد الآن.

كان من الصعب بعض الشيء التطرق إلى الغرض من زيارتنا، فقد كان كل من السيد كروفت وزوجته يتحدثان كثيراً وكانا متلهفين إلى معرفة كل شيء: هل سيأتي أقارب الفتاة المسكينة القتيلة؟ متى ستكون الجنازة؟ هل سيجري تحقيق؟ ماذا يعتقد رجال الشرطة؟

هل توصلوا إلى أي مفتاح لحل لغز الجريمة؟ هل صحيح أن رجلاً قد تم اعتقاله في باليموث؟

وبعد أن أجبنا عن كل هذه الأسئلة أصرّا على دعوتنا لتناول الغداء، ولم ينقذنا إلا تصريح بوارو الكاذب بأننا مضطران للعودة وتناول الغداء مع رئيس الشرطة. وأخيراً ظهرت لحظة سكوت فتدخل بوارو بسؤاله الذي كان ينتظر طرحه.

قال السيد كروفت: بالطبع.

وسحب حبل الستارة إلى أعلى ثم أسفل مرتين وهو يعبس شارد الذهن، ثم قال: أتذكّر كل شيء عن ذلك الأمر، لا بد أنه حدث عند أول مجيئنا إلى هنا. أتذكّر... التهاب الزائدة الدودية... هذا ما قاله الطبيب.

قاطعته السيدة كروفت قائلة: وقد لا يكون التهاب الزائدة الدودية أبداً. أمرهم عجيب هؤلاء الأطباء، إنهم يحبون دائماً تمزيق جسدك بقدر ما يستطيعون! لم يكن مرضها مما يتطلب عملية جراحية، كانت تعاني من عسر هضم وأمور بسيطة أخرى وصوّروها بالأشعة وقالوا إن من الأفضل دخولها إلى المستشفى. وهكذا أخذوا تلك المسكينة إلى إحدى دور الشفاء البغيضة تلك.

قال السيد كروفت: سألتها إن كانت قد كتبت وصية أو لا، وكان سؤالي أقرب من المزاح منه إلى أي شيء آخر.

- نعم؟

- فكتبتها على الفور. تحدثت عن إحضار نموذج وصية من

مكتب البريد لكنني نصحتها بأن لا تفعل ذلك، فقد أخبرني رجل ذات مرة بأن هذه النماذج تسبّب كثيراً من المشكلات في بعض الأحيان. على أية حال فإن ابن خالها محام وكان بوسعه كتابة وصية صحيحة لها بعد نهاية عمليتها بسلام، وهذا ما كنت أعرف طبعاً أنه سيحدث، كان ذلك مجرد إجراء احترازي.

- مَن الذي شهد عليها؟

- إيلين الخادمة وزوجها.

- وبعد ذلك؟ ماذا حدث بها؟

- أرسلناها إلى فايس بالبريد.

- هل تعرف أنها أرسلت بالبريد؟

- يا سيد بوارو، أنا الذي أرسلتها بنفسي بالبريد. وضعتها هنا في هذا الصندوق عند بوابة البيت.

- وماذا لو قال السيد فايس إنه لم يستلمها أبداً؟

حدق كروفت إليه وقال: هل تعني أنها ضاعت بالبريد؟ آه، هذا مستحيل.

- على أي حال فأنت متأكد من أنك أرسلتها بالبريد؟

- متأكد جداً، إنني مستعد لأن أقسم على ذلك.

- آه، جيد، لحسن الحظ أن هذا غير مهم؛ فمن غير المحتمل وفاة الآنسة في وقت قريب.

* * *

عندما خرجنا وبدأنا نسير نحو الفندق قال بوارو: هكذا إذن! مَن الذي يكذب؟ السيد كروفت أم السيد تشارلز فايس؟ لا بد أن أعترف بأنني لا أجد سبباً يجعل السيد كروفت يكذب، فليس في إخفاء الوصية أية مصلحة له... وخصوصاً عندما يكون مساعداً في إعدادها. إن كلامه واضح ويتطابق تماماً مع ما أخبرتنا به الآنسة مادج، ومع ذلك...

- نعم؟

- ومع ذلك فإنني سعيد لأن السيد كروفت كان يطهو الطعام عندما وصلنا؛ لقد ترك بصمة ممتازة بإبهامه وسبابته المخضبتين بالزيت على طرف صحيفة كانت تغطي طاولة المكتب، ونجحت في قص ذلك الجزء دون أن يلاحظني. سوف نرسلها إلى صديقنا الطيّب جاب في إدارة سكوتلانديارد، وثمة فرصة في أن يكون يعرف شيئاً بخصوص هذا الأمر.

- نعم؟

- أتعرف يا هيستنغز؟ لا أملك إلا أن أشعر بأن صاحبنا اللطيف كروفت يبدو أكثر طيبة من أن نصدقه.

ثم أضاف: والآن إلى الغداء، فأنا أتضوّر جوعاً.

* * *

الفصل الخامس عشر

سلوك غريب من فريدريكا

ثبت أن كذبة بوارو حول موعده مع رئيس الشرطة لم تكن كاذبة جداً في النهاية، فقد زارنا الكولونيل ويستن بعد الغداء مباشرة. كان رجلاً طويل القامة عسكري البنية حسن الملامح، وكان يكِنّ لبوارو وإنجازاته احتراماً كبيراً إذ بدا أنه مطّلع تماماً على تلك الإنجازات. كان يقول ويكرر عبارته: حظنا رائع لوجودك بيننا هنا يا سيد بوارو.

كان خوفه الوحيد أن يُجبَر على طلب المساعدة من المركز الرئيسي لشرطة سكوتلانديارد، وكان متلهفاً على أن يحل لغز الجريمة ويمسك بالمجرم دون مساعدة المركز، ومن هنا جاءت غبطته وفرحته بوجود بوارو في المنطقة. وقد أفضى إليه بوارو -حسب تقديري- بكل معلوماته.

قال الكولونيل: عمل غريب جداً، لم أسمع بمثل هذا الشيء أبداً. حسناً، كان يجب وضع الفتاة في دار رعاية لتأمين الحماية لها، ولكن لا يمكنك إبقاؤها هناك إلى الأبد.

- هنا تكمن الصعوبة أيها الكولونيل، ثمة طريقة واحدة فقط لحل هذا الإشكال.

- ما هي؟

- يجب أن نمسك بالشخص المسؤول.

- إن كان ما تشك فيه صحيحاً فلن يكون هذا سهلاً.

- آه، أعلم هذا.

- الدليل، الحصول على الدليل سيكون المشكلة الكبرى.

قطب بوارو جبينه وهو يفكر بعيداً: هذه القضايا صعبة دائماً حيث لا يوجد إجراء روتيني. لو نمسك بالمسدس... إنه في أكثر الاحتمالات في قاع البحر، هذا إن كان القاتل عاقلاً مدركاً.

قال الكولونيل ويستون: آه، لكنهم في الغالب لا يملكون عقلاً، سوف تشعر بالدهشة إن أنت رأيت الأعمال الحمقاء التي يقوم بها الناس. أنا لا أتحدث عن جرائم القتل... فليس عندنا في هذه المناطق كثير من جرائم القتل والحمد لله، ولكني أقصد قضايا المحاكم العادية. إن حماقة هؤلاء الناس تبعث على الدهشة.

- ومع ذلك فإن عقولهم مختلفة.

- نعم، ربما. إن كان فايس هو المجرم فسيواجه عملنا طريقاً مسدوداً؛ فهو رجل حذر ومحامٍ عاقل، ولن يكشف نفسه. أما المرأة... فسيكون الأمل أكبر، لأنها ستكرر عملها مرة أخرى بالتأكيد. النساء لا يملكن الصبر.

نهض من مجلسه ثم قال: التحقيق صباح الغد، وسوف يعمل قاضي التحقيق بالتعاون معنا ولن يكشف إلا قليلاً من الأمور قدر الإمكان. نريد أن نُبقي الأمور طي الكتمان في الوقت الحالي.

بعدما التفت ليتجه صوب الباب عاد فجأة وقال: لقد نسيت الأمر الذي سيثير أقصى اهتمامك، وهو ما أريد رأيك بخصوصه.

جلس رئيس الشرطة ثانية وأخرج من جيبه ورقة ممزقة عليها بعض الكتابة وسلمها إلى بوارو. قال: وجد شرطي هذه الورقة عندما كان يبحث خارج البيت في مكان ليس بعيداً عن المكان الذي كنتم تجلسون فيه تراقبون الألعاب النارية. إنه الشيء الوحيد الذي وجدوه مما قد يحمل دلالة معينة.

فتحها بوارو، وكان خط الكتابة كبيراً ومن غير نظام، وفيها: «أحتاج مالاً على الفور، وفي حالة عدم... فإن شيئاً سيحدث. إنني أحذرك».

قطب بوارو جبينه، وقرأها مرة تلو أخرى ثم قال: إنها مثيرة، هل يمكنني الاحتفاظ بها؟

- بالتأكيد، لا يوجد عليها بصمات أحد. سأكون مسروراً إذا توصلت إلى شيء منها.

- نهض الكولونيل ويستون ثانية وقال: لا بد أن أذهب الآن. كما قلت فإن التحقيق سيكون غداً، وبالمناسبة فلن يتم استدعاؤك شاهداً؛ سوف نستدعي الكابتن هيستنغز فقط فلا نريد أن يعلم رجال الصحافة أنك تتولى العمل.

- أفهم هذا، وماذا عن أقارب الشابة المسكينة؟

- سيأتي أبوها وأمها من يوركشير اليوم، سيصلان في الساعة الخامسة والنصف تقريباً. المسكينان، أنا آسف جداً لحالهما، سوف يعيدان الجثة معهما في اليوم التالي.

ثم هزّ رأسه وهو يقول: عمل بغيض. إنني لا أستمتع بهذا العمل يا سيد بوارو.

- ومن يستمتع به يا سيدي الكولونيل؟ إنه عمل بغيض كما تقول.

عندما ذهب تفحص بوارو قطعة الورق مرة أخرى، وسألته: هل فيها مؤشر مهم؟

هزّ كتفيه حيرة وقال: وكيف لي أن أعرف؟ فيها تلميح على وجود ابتزاز. أحد أفراد مجموعتنا في تلك الليلة يتعرض لضغط بشع بغية أخذ أموال منه، وقد يكون واحداً من الغرباء بالطبع.

ونظر إلى الكتابة من خلال عدسة تكبير ثم قال: هل تبدو لك هذه الكتابة مألوفة يا هيستنغز؟

- إنها تذكرني بشيء إلى حد ما... آه، لقد عرفت؛ رسالة السيدة رايس تلك.

قال بوارو ببطء: نعم، ثمة تشابه، يوجد تشابه دون شك. أمر غريب. لكن لا أظن أن هذا خط السيدة رايس.

ثم قال عندما سمعنا طرقات على الباب: تفضل.

كان القادم هو القبطان تشالنجر الذي قال موضحاً: مجرد زيارة قصيرة، أردت أن أعرف إن كنتم قد حققتم أي تقدم.

قال بوارو: في هذه اللحظة أشعر أنني عدت كثيراً إلى الوراء، يبدو أنني أتقدم إلى الخلف!

- هذا أمر سيء، ولكني لا أصدق ذلك حقاً يا سيد بوارو. سمعت عنك كل شيء وعن مدى كفاءتك، ويقولون إنك لم تفشل أبداً.

- هذا ليس صحيحاً؛ فقد فشلت فشلاً ذريعاً في بلجيكا عام ١٩٨٣. هل تذكر يا هيستنغز؟ لقد سردت القصة عليك، قضية علبة الحلوى.

قلت: "أذكرها". ثم ابتسمت، لأنه عندما أخبرني بتلك القصة طلب مني أن أقول له «علبة الحلوى» كما خيل إليّ أن غروره بدأ يزداد، رغم أنه شعر بإساءة بالغة عندما استخدمت هذه العبارة الساخرة بعد دقيقة وربع الدقيقة فقط من طلبه الآنف الذكر!

قال تشالنجر: آه، لقد مضى على ذلك وقت طويل بحيث لا تكاد تلك القضية تُحسَب. سوف تكشف هذا الأمر، أليس كذلك؟

- هذا ما أقسم عليه، ولك على ذلك كلمة هيركيول بوارو؛ فأنا الكلب الذي يبقى مقتفياً أثر طريدته ولا يغادرها.

- هذا جيد. هل لديك أية أفكار؟

- أشتبه في اثنين.

- أظن أنني يجب أن لا أسأل مَن هما؟

- وأنا لن أخبرك، فقد أكون مخطئاً.

قال تشالنجر وعيناه تطرفان: أعتقد أن دفعي بالغيبة عن مكان الجريمة مقنع، أليس كذلك؟

ابتسم بوارو لصاحب الوجه البرونزي أمامه وقال: أنت غادرت ديفينبورت بعد الثامنة والنصف ببضع دقائق ووصلت إلى هنا في العاشرة وخمس دقائق... بعد عشرين دقيقة من ارتكاب الجريمة، لكن المسافة من ديفينبورت لا تزيد على ثلاثين ميلاً فقط، وقد كان ينبغي أن تقطع هذه المسافة في ساعة واحدة فالطريق جيد، وهكذا ترى أن دفعك بالغيبة عن مكان الجريمة ليس جيداً أبداً.

- حسناً، إنني...

- لقد تحريت عن كل شيء. كما قلت لك فإن دفعك بالغيبة ليس قوياً، لكن ثمة أشياء أخرى غير الدفع بالغيبة. أظن أنك ترغب بالزواج بالآنسة مادج؟

احمرّ وجه البحار وقال بصوت أجش: لقد أردت الزواج بها دوماً.

- بالضبط. جيد، وكانت الآنسة مادج مخطوبة لرجل آخر، وهذا قد يكون سبباً لقتل الرجل الآخر. لكن هذا غير ضروري... لأنه مات ميتة الأبطال.

- إذن فالأمر صحيح؟ لقد كانت مادج مخطوبة إذن لمايكل ستين؟ إشاعة بهذا المعنى دارت في المدينة هذا الصباح.

- نعم، مثيرة طريقة انتشار الأخبار بهذه السرعة. ألم تشتبه بذلك من قبل؟

- كنت أعرف أن مادج كانت مخطوبة لرجل، فقد أخبرتني بنفسها قبل يومين. لكنها لم تخبرني مَن كان ذلك الرجل.

- إنه مايكل ستين، وأظن أنه قد ترك لها ثروة كبيرة جداً. آه، إنها بالتأكيد ليست اللحظة المناسبة لقتل الآنسة مادج... من وجهة نظرك أنت. إنها تبكي حبيبها الآن ولكن القلب يواسي نفسه، إنها فتاة شابة وأظن أنها تحبك كثيراً يا سيدي.

صمت تشالنجر لبعض الوقت ثم قال: لو كان...

عندئذ سُمعت طرقة على الباب. كانت فريدريكا رايس هي القادمة، وقالت تخاطب تشالنجر: كنت أبحث عنك وأخبروني أنك هنا. أردت أن أعرف إن كنت قد أعدت ساعتي.

- آه، نعم، ذهبت لإحضارها صباح اليوم.

ثم أخرج الساعة من جيبه وسلمها إياها. كانت الساعة من نوع غريب؛ مكوّرة مثل الكرة الأرضية ومثبتة على سوار من الجلد الأسود المتموج. وتذكرت أنني رأيت مثلها على يد مادج باكلي.

- آمل أن توقيتها سيكون مضبوطاً الآن.

- إنه عمل مضجر، دائماً يحدث فيها شيء غير طبيعي.

قال بوارو: إنها ساعة للزينة يا سيدتي وليس للاستخدام.

قالت: أليس بوسع المرء أن يجمع الاثنين معاً؟

ثم نظرت إلى كل واحد فينا وهي تقول: هل قطعت عليكم اجتماعكم؟

- لا يا سيدتي، إننا نتحدث كلاماً عادياً وليس عن الجريمة. كنّا نتحدث عن الأخبار كيف تنتشر بسرعة وكيف أن الجميع الآن على علم بأن الآنسة مادج كانت مخطوبة لذلك الطيار الشجاع الذي اختفت آثاره.

صاحت فريدريكا: إذن فقد كانت مادج مخطوبة لمايكل ستين؟

- وهل فاجأك هذا الخبر يا سيدتي؟

- بعض الشيء، ولا أعرف لماذا؛ فقد اعتقدت فعلاً أنه كان مأخوذاً بها في الخريف الماضي. كانا يخرجان معاً كثيراً ثم بدا وكأن العلاقة قد خمدت بعد عيد الميلاد، حيث لم يلتقيا كثيراً حسب علمي.

- لقد احتفظا بالسر جيداً.

- أظن أن ذلك بسبب العجوز السير ماثيو، أعتقد أنه كان حقاً مجنوناً بعض الشيء.

- ألم تكن لديك شكوك يا سيدتي؟ لقد كانت الآنسة صديقة حميمة لك.

قالت فريدريكا: مادج صديقة حميمة عندما تريد هي ذلك، ولكني أفهم الآن سبب العصبية الشديدة التي ظهرت عليها في الفترة الأخيرة. آه! وكان يجب أن أخمن ذلك من شيء قالته لي قبل أيام فقط.

- صديقتك الصغيرة جذابة جداً يا سيدتي.

قال تشالنجر بضحكته العالية الخرقاء: جيم لازاروس كان يرى ذلك في وقت من الأوقات.

قالت: آه، جيم...

ثم هزت كتفيها وكأنها لا تبالي، ولكنني اعتقدت أنها انزعجت. التفتَتْ إلى بوارو وقالت: قل لي يا سيد بوارو، هل...

ثم سكتت، وترنّحت قليلاً بقامتها الطويلة وانقلب وجهها شاحباً. كانت عيناها مركزتين على وسط الطاولة، وقال بوارو: هل أنت بخير يا آنسة؟

دفعت لها كرسياً وساعدتها على الجلوس عليه، فهزّت رأسها وقالت: أنا بخير.

ثم مالت إلى الأمام ووجهها بين يديها، وراقبناها عن كثب. بعد دقيقة انتصبت في جلستها وقالت: يا للسخف! يا عزيزي جورج، لا تظهر كل هذا القلق. فلنتحدث عن الجرائم، إنها شيء مثير. أريد أن أعرف إن كان السيد بوارو يسير في الطريق الصحيح.

قال بوارو بأسلوب لا ينمّ عن موقف: ما زال الوقت مبكراً على ذلك يا سيدتي.

- ولكنك تملك أفكاراً، أليس كذلك؟

- ربما، لكنني أحتاج إلى مزيد من الأدلة.

- آه.

بدت مرتابة، وفجأة نهضت وقالت: إنني مصابة بالصداع، سأذهب لأستلقي قليلاً. ربما سمحوا لي برؤية مادج غداً.

ثم غادرت الغرفة بسرعة. قطب تشالنجر جبينه وقال: لا أحد يعرف ما الذي تريده هذه المرأة، ربما كانت مادج تحبها لكنني لا أظن أنها تحب مادج... ولكن لا أحد يعرف أمر النساء؛ يقلن لك طول الوقت «حبيبي، حبيبي» وربما كانت عبارة «تباً لك» تعبّر عن مشاعرهن بصورة أفضل! هل أنت خارج يا سيد بوارو؟

كان بوارو قد وقف وبدأ يمسح ذرة غبار عن قبعته، قال: نعم، إنني ذاهب إلى المدينة.

- ليس لديّ شيء أعمله، هل آتي معك؟

- بالتأكيد، سيسعدني هذا.

ثم غادرنا الغرفة، وما لبث بوار أن اعتذر وعاد إلى الغرفة، وعندما انضم إلينا ثانية قال: لقد نسيت عصاي.

استغرب تشالنجر قليلاً، وقد كانت العصا بالفعل تحفة جميلة مزينة بشريط مذهب.

كانت زيارة بوارو الأولى إلى بائع زهور، وأوضح يقول: يجب أن أرسل طاقة من الزهور إلى الآنسة مادج.

وثبت أنه صعب الإرضاء، وفي نهاية الأمر اختار سلة ذهبية مزخرفة لتملأ بأزهار القرنفل، ثم ربطت الزهور والسلة بشريط كبير. أعطته البائعة بطاقة فكتب عليها بخط متأنق: «مع تحيات هيركيول بوارو».

قال تشالنجر: لقد أرسلت لها بعض الأزهار صباح اليوم، وقد أرسل لها بعض الفواكه.

قال بوارو: غير مفيد.

- ماذا؟

- قلت إنه غير مفيد؛ فغير مسموح بإرسال المأكولات.

- من يقول هذا؟

- أنا الذي أقول. أنا الذي وضعت القانون، وقد اقتنعت به الآنسة مادج وتفهمت الموقف.

- يا إلهي!

بدا مذعوراً تماماً، وحدق إلى بوارو بفضول وقال: هكذا إذن؟ إنك لا تزال... خائفاً؟

* * *

الفصل السادس عشر
مقابلة مع السيد وايتفيلد

كانت جلسة التحقيق بسيطة ليس فيها شيء مثير، وجرى فيها تحديد هوية الضحية، ثم أدليت بشهادتي بالعثور على الجثة وتبع ذلك تقرير الطبيب الشرعي. وتم تأجيل التحقيق مدة أسبوع.

احتلت جريمة «سينت لو» عناوين بارزة في الصحف اليومية، والواقع أنها أعقبت عناوين مثل «ستين مازال مفقوداً» و«مصير الطيار المفقود مجهول»، وبما أن ستين قد مات الآن وقيلت فيه عبارات الإجلال والثناء فقد ظهر موضوع مثير جديد، حيث جاء موضوع لغز سينت لو منحة إلهية للصحف اليائسة بحثاً عن الأخبار في شهر آب حيث يصيب الركود الحياة السياسية.

وبعد انتهاء جلسة التحقيق ونجاحي في التملص من الصحفيين الفضوليين التقيت ببوارو وتقابلنا مع غايلز باكلي وزوجته، وهما والدا ماغي. كان والدا ماغي زوجين ساحرين وبسيطين، وكانت السيدة باكلي امرأة قوية الشخصية بيضاء طويلة القامة وتظهر بوضوح

انتمائها إلى سلالة شمالية أرستقراطية، أما زوجها فكان رجلاً صغير الجسم أشيب الشعر ذا خُلُق حيّ يروق لمن يعاشره.

بدا المسكينان مبهورين مشدوهين تماماً بسبب الجريمة المؤسفة التي وقعت وسلبتهما ابنتهما الغالية. قال السيد باكلي: لا أستطيع إدراك ما حدث حتى الآن... فتاة محبوبة يا سيد بوارو، كانت هادئة جداً وغير أنانية وتفكر بالآخرين دائماً. مَن هذا الذي يريد أن يؤذيها؟

قالت السيدة باكلي: لم أكد أفهم البرقية، لم يكن قد مرّ على توديعنا لها إلا يوم واحد.

قال زوجها: الموت يأتينا ونحن في عنفوان الحياة.

قالت السيدة باكلي: كان الكولونيل ويستون طيباً جداً، لقد أفادنا أن كل شيء يجري عمله للعثور على الرجل الذي قتلها. لا بد أنه مجنون، لا محل لأي تفسير آخر.

قال بوارو: لا أستطيع أن أعبّر عن مدى تعاطفي معكما على خسارتكما هذه... ومدى إعجابي بشجاعتكما.

قالت السيدة باكلي بحزن: إن الجزع والانهيار لا يمكنهما إعادة ماغي لنا.

وقال زوجها: زوجتي رائعة، إيمانها وشجاعتها أعظم مني. الأمر محيّر، محير جداً يا سيد بوارو.

- أعرف، أعرف يا سيدي.

قالت السيدة باكلي: سمعت أنك رجل تحر عظيم يا سيد بوارو؟

- هكذا يقال يا سيدتي.

- آه، أعرف؛ حتى في قريتنا الريفية البعيدة سمعنا عنك. هل ستبحث عن الحقيقة يا سيد بوارو؟

- لن يهدأ لي بال حتى أعرف الحقيقة يا سيدتي.

ارتعش الزوج وقال: سيكشفها الله لك يا سيد بوارو؛ لا يمكن للشر أن يبقى دون عقاب.

- الشر لا يفلت من العقاب يا سيدي، لكن العقاب يكون سراً أحياناً.

- ماذا تقصد بهذا يا سيد بوارو؟

هز بوارو رأسه ولم يزد على ذلك، وقالت السيدة باكلي: مسكينة مادج! إنني أشعر بالحزن على حالها، لقد تلقيت منها رسالة تثير الشفقة، تقول إنها تشعر بأنها طلبت من ماغي المجيء إلى هنا لتلقى حتفها. إنني أعرف شعورها. ليتهم يسمحون لي برؤيتها، يبدو غريباً أن لا يسمحوا لعائلتها بزيارتها.

قال بوارو في محاولة للتملص: الأطباء والممرضات متشددون جداً؛ إنهم يضعون القوانين... ولا أحد يمكنه تغييرها. ولا شك أنهم يخشون عليها من عواطفها، عواطفها الطبيعية التي يمكن أن تظهر عند رؤيتها لكما.

قالت السيدة باكلي بارتياب: ربما، لكني لا أوافق على وجودها في دار الرعاية. ستتحسن حالة مادج كثيراً لو تركوها تعود معي... بعيداً عن هذا المكان.

- هذا ممكن، لكن أخشى أن لا يوافقوا. هل مضت فترة طويلة على رؤيتك للآنسة باكلي؟

- لم أرها منذ الخريف الماضي. كانت في سكاربورو، وذهبت ماغي إليها وقضت معها النهار ثم عادت وأمضت عندنا ليلة. إنها مخلوقة طيبة رائعة... على الرغم من عدم حبي لأصدقائها، كما لا تعجبني الحياة التي تحياها، ولكن الخطأ ليس خطأ هذه الطفلة المسكينة. إنها لم تتلقَّ أي تربية.

قال بوارو متأملاً: إنه بيت غريب... البيت الأخير هذا.

قالت السيدة باكلي: لا أحبه ولم أحبه أبداً، في ذلك البيت خطأ ما. كنت أكره السير نيكولاس العجوز كرهاً شديداً، كنت أرتعش منه.

قال زوجها: لم يكن رجلاً طيباً لكنه كان يملك سحراً غريباً.

قالت السيدة باكلي: لم أشعر بسحره هذا أبداً، أشعر بالشر يحوم حول هذا البيت. ليتنا لم نسمح لابنتنا ماغي بالذهاب إليه.

قال السيد باكلي وهو يهز رأسه أسفاً: آه، أمنيات!

قال بوارو: حسناً، لا أريد أن أتطفل عليكم أكثر. أردت فقط تقديم مواساتي العميقة لكما.

- كنت لطيفاً جداً معنا يا سيد بوارو، كما أننا ممتنان جداً لكل ما تقوم به.

- متى ستعودان إلى يوركشاير؟

- غداً... رحلة حزينة. وداعاً يا سيد بوارو، ونشكرك ثانية.

قلت بعد أن غادرونا: أناس بسطاء مريحون.

أومأ بوارو برأسه وقال: هذا ما يجعل المرء يتفطر ألماً، أليس كذلك يا صديقي؟ مأساة عديمة الجدوى ليس لها غرض، فتاة مسكينة... آه! لكني ألوم نفسي لوماً شديداً، أنا هيركيول بوارو في المكان ولم أمنع الجريمة!

- ما كان بوسع أحد أن يمنعها.

- أنت تتكلم بلا تفكير يا هيستنغز. لا يوجد شخص عادي يمكنه منع تلك الجريمة... ولكن ما فائدة وجود هيركيول بوارو بخلاياه الرمادية الصغيرة المتفوقة إذا لم يستطع القيام بما لا يستطيعه الناس العاديون؟

- بالطبع، إن كنت تعني هذا.

- نعم، إنني محبط مهان، مهان تماماً.

وفكرت بأن شعور بوارو بالهوان كان يشبه بشكل غريب غرور الآخرين، لكني أحجمت عن الإدلاء بأية ملاحظة.

قال: والآن هيا بسرعة إلى لندن.

- لندن؟

- نعم، سنلحق بقطار الساعة الثانية على مهلنا. كل شيء هادئ هنا؛ الآنسة آمنة في دار الرعاية ولا أحد يستطيع إيذاءها، لذلك يمكن للحراس أخذ إجازة. أحتاج إلى بعض المعلومات الصغيرة فقط.

* * *

عندما وصلنا إلى لندن كان أول عمل لنا زيارة محامي الكابتن الراحل ستين، شركة «وايتفيلد وباجينار». كان بوارو قد رتب لنا موعداً مسبقاً، وعلى الرغم من أن الساعة تجاوزت السادسة إلا أننا اختلينا بالسيد وايتفيلد رئيس شركة المحاماة في الحال.

كان رجلاً متحضراً جداً ويثير الإعجاب، وكانت أمامه رسالة من رئيس الشرطة وواحدة أخرى من مسؤول رفيع في شرطة سكوتلانديارد. قال وهو يمسح نظارته: هذا كله عمل غير طبيعي وغير عادي يا سيد بوارو.

- تماماً يا سيد وايتفيلد، ولكن جريمة القتل عمل غير طبيعي أيضاً، ويسعدني أن أقول أيضا إنها ليست مسألة عادية شائعة.

- صحيح، صحيح. لكنه أمر مستبعد... وجود صلة بين هذه الجريمة وبين ميراث موكّلي الراحل، أليس كذلك؟

- لا أظن ذلك.

- آه، لا تظن ذلك. حسناً، طالما الحال كذلك... ولا بد أن

أعترف بأن السير هنري من سكوتلانديارد قد شدّد على الأمر في رسالته، فيسعدني القيام بأي شيء أستطيعه.

- هل عملت مستشاراً قانونياً للكابتن الراحل ستين؟

- كنت مستشاراً قانونياً لعائلة ستين كلها يا سيدي العزيز، لقد قمنا بذلك... أقصد أن شركتنا قامت بذلك منذ مئة عام.

- حسناً، هل كتب السير ماثيو ستين الراحل وصية؟

- نحن كتبناها له.

- وكيف وزع ثروته؟

- جعلها عدة حصص خُصِّصت إحداها لمتحف التاريخ الطبيعي، إلخ. لكن جل ثروته الضخمة، بل الضخمة جداً، تركها للكابتن مايكل ستين. لم يكن له أي قريب آخر.

- هل قلت إنها ثروة كبيرة جداً؟

رد السيد وايتفيلد بهدوء: كان السير ماثيو الراحل ثاني أغنى رجل في إنكلترا.

- كانت له آراء غريبة جداً، أليس كذلك؟

نظر السيد وايتفيلد بحدة وقال: من حق المليونير أن يكون غريب الأطوار يا سيد بوارو، بل يكاد ذلك يكون متوقعاً منه.

تلقى بوارو عبارته الصحيحة بإذعان وسأله سؤالاً آخر: علمت أن وفاته كانت غير متوقعة؟

- غير متوقعة أبداً. كان السير ماثيو يتمتع بصحة جيدة، ثم أصيب بورم داخلي لم يكن أحد يتوقعه، وقد وصل الورم إلى الأنسجة الحيوية في جسمه فاحتاج إلى عملية فورية. كانت العملية ناجحة تماماً كما هي العادة في مثل هذه الأحوال، لكن السير ماثيو توفي.

- وذهبت ثروته إلى الكابتن ستين؟

- هذا صحيح.

- علمت أن الكابتن ستين كتب وصية قبل مغادرته إنكلترا؟

قال السيد وايتفيلد باستياء شديد: نعم، إن جاز لنا أن نسميها وصية.

- هل هي قانونية؟

- إنها قانونية تماماً. كانت نية الموصي واضحة وصريحة وشهد عليها شهود عدول. آه، نعم، إنها قانونية.

- لكنك لا تستسيغها؟

- يا سيدي العزيز، ولماذا نحن موجودون؟

- ولطالما تساءلت أنا عن ذلك؛ إذ صادفتني مناسبة اقتضت أن أكتب وصية بسيطة جداً، وقد روعتني كثرة التفاصيل والحشو في الكلام في الوصية التي كتبها لي مكتب المحاماة الذي أتعامل معه.

أكمل السيد وايتفيلد قائلاً: حقيقة الأمر أن الكابتن ستين عندما كتبها لم يكن يملك إلا القليل ليوصي به، أو لم يكن يمتلك شيئاً.

كان يعتمد على الراتب الذي يتقاضاه من عمه، وأظن أنه شعر بأن أية صيغة للوصية تؤدي الغرض.

همست في نفسي بأن شعوره كان صحيحاً وفي محله. وسأله بوارو: وما هي بنود هذه الوصية؟

- إنه يترك أي شيء يمتلكه وقت وفاته لخطيبته الآنسة ماغدالا باكلي، وقد سمّاني منفّذاً لوصيته.

- إذن فالآنسة باكلي ترثه؟

- الآنسة باكلي ترثه بالتأكيد.

- ولو حدث أن الآنسة باكلي ماتت يوم الإثنين الماضي؟

- في حال وفاة الكابتن قبلها تذهب الأموال إلى أي شخص تسميه هي في وصيتها وريثاً، وفي حال عدم وجود وصية تذهب الثروة إلى أقرب المقربين إليها.

ثم أضاف السيد وايتفيلد بشيء من الاستمتاع: أعتقد أن ضرائب الإرث ستكون كبيرة جداً، ضخمة! تذكّر، ثلاث وفيات في تعاقب سريع.

هز رأسه وقال: ضخمة جداً!

تمتم بوارو بهدوء: ولكن سيبقى منها شيء؟

- كما قلت لك يا سيدي العزيز، لقد كان السير ماثيو ثاني أغنى رجل في إنكلترا.

نهض بوارو وقال: أشكرك يا سيد وايتفيلد كثيراً على المعلومات التي أعطيتني إياها.

- أبداً، أبداً. أعتقد أنني سأكون على اتصال بالآنسة باكلي... أعتقد أن الرسالة قد ذهبت، وسأكون سعيداً لو قدّمتُ لها أي خدمة أستطيعها.

قال بوارو: إنها شابة صغيرة يمكنها الاستفادة من نصيحة قانونية معقولة.

قال السيد وايتفيلد وهو يهز رأسه أسفاً: أخشى أن يركض خلفها صيّادو الثروات.

وافقه بوارو قائلاً: هذا ما تشير الدلائل إليه. وداعاً يا سيدي.

- وداعاً يا سيد بوارو، أنا سعيد بخدمتك. إن اسمك... اسمك مألوف لديّ.

قالها بلطف وكأنه يدلي باعتراف قيم.

* * *

قلت عندما خرجنا: كل شيء كما كنت تظنه تماماً يا بوارو.

- لا بد أن يكون الأمر كذلك يا صديقي؛ فما كان يمكن للأمور أن تكون خلاف ذلك. سنذهب الآن إلى تشيشاير تشيز حيث سنلتقي جاب هناك لتناول العشاء.

وجدنا المفتش جاب من سكوتلانديارد في انتظارنا في الموعد

المحدد، ورحّب ببوارو بحرارة بالغة قائلاً: لقد مرت سنوات على آخر مرة رأيتك فيها يا سيد بوارو، وكنت أظن أنك تفرّغت لزراعة الكوسا في الريف.

- حاولت يا جاب، حاولت. ولكن حتى عندما تنشغل في زراعة الكوسا لا يمكنك الهروب من جرائم القتل!

تنهد، وعرفت ما كان يفكر فيه، تلك القضية الغريبة في ميرلني بارك. كم شعرت بالأسف لكوني بعيداً عن أحداث تلك القضية في ذلك الوقت.

قال جاب: والكابتن هيستنغز أيضاً، كيف صحتك يا سيدي؟

قلت: بخير شكراً لك.

أكمل جاب مازحاً: وهل في جعبتكما الآن المزيد من جرائم القتل؟

- كما تقول... المزيد من جرائم القتل.

قال جاب: لا تقنط أيها العجوز حتى لو لم تستطع رؤية طريقك واضحاً. إنك لا تستطيع أن تعمل في مثل سنك هذا وتتوقع أن تحقق النجاح الذي اعتدت على تحقيقه، فنحن جميعاً نفقد قوتنا وحماستنا مع مرور الزمن. يجب أن نعطي الشباب فرصة.

قال بوارو: ومع ذلك فالكلب العجوز هو الذي يجمع الخدع كلها. إنه ماكرٌ ذكي ولا يترك أثر فريسته.

- آه، جيد. نحن نتحدث عن البشر وليس عن الكلاب!

- وهل يوجد فرق كبير؟

- هذا يعتمد على طريقة نظرتك إلى الأمور. ولكنك شخص مدهش، أليس كذلك يا كابتن هيستنغز؟ كنت دائماً هكذا، تبدو كما كنت تماماً... خفَّ شعرُك قليلاً من الأعلى ولكن شعر وجهك أضخم من أي وقت مضى.

- إيه؟ ما هذا؟

قلت محاولاً تهدئته: إنه يهنئك على شاربك.

قال بوارو وهو يتحسسه بغرور: نعم، إنه في أبهى حلة له.

انفجر جاب ضاحكاً، ثم قال بعد قليل: حسناً، لقد قمت لك بالعمل المطلوب. تلك البصمات التي أرسلتها إليّ...

قال بوارو بحماسة: نعم؟

- ليس فيها شيء؛ أيّاً كان صاحب تلك البصمات فإنه لم يمرّ بين أيدينا من قبل. ومن ناحية أخرى فقد أرسلت برقية إلى ميلبورن فأخبروني أنهم لا يعرفون أحداً هناك بتلك الأوصاف وذلك الاسم.

- آه.

- ولذلك فقد تكون هناك شبهة ما في نهاية المطاف، ولكنه ليس واحداً من «الجماعة». أما بالنسبة للأمر الآخر...

- نعم؟

- لازاروس وابنه لهما سمعة جيدة؛ مستقيمان وشريفان في صفاتهما، وهما ذكيان «شاطران» بالطبع لكن هذه مسألة أخرى، إذ لا بد من «الشطارة» في عالم الأعمال. ولكن لا يوجد ما يعيبهما... ومع ذلك فهما في وضع سيء، أقصد من الناحية المالية.

- آه، هل هما كذلك؟

- نعم، إن ركود سوق اللوحات قد أصابهما إصابة بالغة، وكذلك سوق قطع الأثاث الأثري. أصبحت الموضة الآن هي هذا الأثاث العصري الأوروبي، لقد أقاموا مصنعاً جديداً في العام الماضي، ولكن كما قلت فإنهم في وضع سيء.

- أنا ممتنّ جداً لك.

- لا شكر على واجب. إن هذا النوع من العمل ليس من اختصاصي كما تعلم، لكني اكتشفت لك ما كنت تريد؛ يمكننا دائماً الحصول على المعلومات.

- يا عزيزي جاب، ماذا كنت سأفعل دون مساعداتك؟

- آه، لا بأس؛ إنني أسعد دائماً بتقديم المعروف لصديق حميم. لقد أشركتك في بعض القضايا الجيدة في الماضي، أليس كذلك؟

كنت أدرك أن هذه هي طريقة جاب في الإقرار بأنه مدين لبوارو الذي حل كثيراً من القضايا التي حيرت المفتش. قال بوارو: كانت تلك أياماً جيدة.

- لا بأس في التشاور معك من وقت لآخر حتى في هذه الأيام. قد تكون أساليبك قديمة ولكن عقلك مبرمج في الاتجاه الصحيح يا سيد بوارو.

- ماذا عن سؤالي الأخير، الدكتور ماكاليستر؟

- آه، هذا؟ إنه طبيب مختص بالسيدات. لا أقصد أنه طبيب توليد وإنما طبيب أعصاب، يطلب منك أن تنام في غرفة جدرانها أرجوانية وسقفها برتقالي ويتحدث إليك حديثاً مملاً... إنه طبيب دجّال إن أردت رأيي، لكنه يستولي على عقول النساء دون شك فيأتين إليه جماعات. وهو يسافر إلى الخارج كثيراً... أظن أنه يقوم ببعض الأعمال الطبية في باريس.

سألته محتاراً (فلم أكن قد سمعت به أو باسمه أبداً): ولماذا الدكتور ماكاليستر؟ ما علاقته بالموضوع؟

قال بوارو: الدكتور ماكاليستر هو خال القبطان تشالنجر. هل تذكر إشارته إلى عم له طبيب؟

قلت: كم أنت متمكن! هل ظننت أنه هو الذي أجرى العملية الجراحية للسير ماثيو؟

قال جاب: إنه ليس جراحاً.

قال بوارو: يا صديقي، إنني أحب أن أتحرى عن كل شيء. هيركيول بوارو كلب أثر جيد، وكلب الأثر الجيد يتبع الرائحة وإذا لم تكن هناك رائحة ليتبعها فإنه يتأسف لذلك ويبدأ يشم ما حوله...

يبحث دائماً عن رائحة غير جميلة، وهكذا هيركيول بوارو دائماً. وفي الغالب الأعم يجد ما يبحث عنه!

قال جاب: إن مهنتنا ليست مهنة جيدة، ومهنتك أسوأ من مهنتي لأنها ليست رسمية، ولذلك تضطر كثيراً للدخول في أماكن بطرق سرية متنكرة.

- أنا لا أتنكر أو أخفي نفسي يا جاب، لم أتنكر أبداً.

قال جاب: لا يمكنك ذلك، فأنت فريد من نوعك ولا يمكن لمن يراك أن ينساك أبداً.

نظر بوارو إليه بارتياب، فقال جاب: مجرد مزاح، لا تؤاخذني.

أصبحت الأمسية رائعة وشاعرية تماماً، وسرعان ما وجدنا أنفسنا في بحر من الذكريات: هذه القضية وتلك القضية وتلك... ولا بد من القول بأنني استمتعت أنا أيضاً في الحديث عن الماضي. كانت تلك أياماً جيدة، ولكم شعرت الآن بأنني كبرت واكتسبت خبرة واسعة.

مسكين بوارو! لقد حيرته هذه القضية؛ أستطيع أن أرى ذلك في وجهه. لم تعد قواه كما كانت، وانتابني إحساس بأنه سيفشل وأن قاتل ماغي باكلي لن ينال عقابه أبداً.

قال بوارو وهو يضربني على كتفي: تشجع يا صديقي، لم نخسر أي شيء فلا تُرِني وجهاً ممتعضاً، أرجوك.

- حسناً، أنا بخير.

- وكذلك أنا، وكذلك جاب.

قال جاب مرحاً: كلنا بخير.

وعند هذه الملاحظة افترقنا.

* * *

في صباح اليوم التالي عدنا إلى سينت لو، وعندما وصلنا إلى الفندق اتصل بوارو بدار الرعاية وطلب الحديث مع مادج. وفجأة رأيت وجهه تغير وكاد يُسقط السماعة وهو يهتف: ماذا؟ ما هذا؟ قوليها مرة أخرى، أرجوك.

انتظر دقيقة أو دقيقتين مصغياً ثم قال: نعم، نعم، سآتي على الفور.

التفت إليّ بوجه شاحب وقال: لماذا سافرتُ من هنا؟ يا إلهي! لماذا سافرت؟

- ماذا حدث؟

- الآنسة مادج مريضة مرضاً خطيراً؛ تسمم بمادة الكوكايين. ها قد وصلوا إليها في نهاية المطاف. يا إلهي، يا إلهي! لماذا سافرت؟

* * *

الفصل السابع عشر

علبة حلوى

كان بوارو يهمس ويتمتم وهو يحدث نفسه طول الطريق إلى دار الرعاية، كان يشعر بتأنيب الضمير. قال متأوّهاً: كان عليّ أن أعرف، كان عليّ أن أعرف! لكن ما الذي كنت أستطيع عمله؟ لقد اتخذت كل الإجراءات الاحترازية. مستحيل، مستحيل، مستحيل. لا أحد يمكنه أن يصل إليها! مَن هذا الذي عصى أوامري؟

في دار الرعاية أشاروا إلينا بدخول غرفة صغيرة في الطابق السفلي، وبعد دقائق معدودة جاءنا الدكتور غراهام. بدا منهمكاً شاحباً وقال: ستتعافى، ستكون على ما يرام. كانت المشكلة هي معرفة المقدار الذي تناولته من تلك المادة اللعينة.

- وماذا كانت؟

- الكوكايين.

- هل ستعيش؟

- نعم، نعم، ستعيش.

- ولكن كيف حدث ذلك؟ كيف وصلوا إليها؟ مَن الذي سُمح له بالدخول إليها؟

كان بوارو يهتزّ من شدة الانفعال والدهشة. قال الطبيب: لم يدخل عليها أحد.

- مستحيل.

- هذا صحيح.

- ولكن...

- كانت علبة حلوى.

- آه، هكذا إذن؟ لقد أوصيتها أن لا تأكل شيئاً... أي شيء يأتيها من الخارج.

- لا علم لي بذلك. من الصعب أن تمنع فتاة عن علبة شُكلاتة، والحمد لله أنها لم تتناول إلا واحدة.

- وهل كان الكوكايين في جميع حبّات الشكلاتة في العلبة؟

- كان الكوكايين في الطبقة العليا من العلبة، أما بقية الحبات فلا شيء فيها.

- وكيف حدث ذلك؟

- كانت طريقة غير متقنَة. قُطعت حبة الشكلاتة نصفين وخُلط الكوكايين بالحشوة، ثم ألصق نصفاها مرة أخرى. أسلوب هواة، يمكنك أن تسميه عملاً بيتياً.

صاح بوارو متأوهاً: آه، لو كنت أعرف، لو كنت أعرف! هل أستطيع رؤية الآنسة؟

- أظن أن بوسعك أن تراها إذا عدت بعد ساعة من الآن. تصبّر أيها الرجل فهي لن تموت.

* * *

سرنا في شوارع سينت لو لقضاء ساعة من الزمن، وحاولت جهدي تشتيت ذهن بوارو مشيراً إليه أن كل شيء على ما يرام وأنه لم يقع عليها في النهاية أي أذى، لكنه كان يهز رأسه ويكرر من فترة لأخرى قائلاً: أنا خائف يا هيستنغز، خائف...

وقد جعلتني الطريقة التي يقول بها ذلك خائفاً أنا الآخر. وأمسك بي في إحدى المرات من ذراعي ليقول: اسمع يا صديقي، إنني مخطئ تماماً منذ البداية.

- تقصد أنه ليس المال...

- لا، لا، أنا مصيب في هذا. آه، نعم، ولكن بخصوص الشك بذينك الشخصين. إنها مسالة بسيطة جداً، سهلة جداً. ثمة خدعة أخرى، نعم، في الأمر شيء! ثم قال في نوبة سخط: آه من هذه الصغيرة! ألم أحظر عليها؟ ألم أقل لها أن لا تلمس أي شيء يأتيها من الخارج؟ وقد عصتني أنا... هيركيول بوارو. ألم تكفها أربع مرات نجت فيها بأعجوبة؟ أكان عليها أن تجازف في الخامسة؟ آه، أمر غريب.

ثم عدنا أخيراً أدراجنا، وبعد فترة انتظار قصيرة صعدنا إلى الطابق العلوي. كانت مادج تجلس على سريرها وقد اتسعت عيناها وبدت محمومة فيما كانت يداها ترتعشان بقوة، قالت متمتمة: لقد فعلوها مرة أخرى.

أظهر بوارو عاطفة حقيقية عند رؤيته لها، تنحنح وأمسك بيدها وقال: آه يا آنستي!

قالت بتحد: ما كنت لأهتم لو أنهم تمكنوا مني هذه المرة. لقد سئمت كل هذا، سئمت منه!

- يا لك من طفلة مسكينة!

- في داخلي شيء لا يرغب بالإقرار بتفوقهم علي.

- هذه هي الروح المعنوية، يجب أن تكون معنوياتك مرتفعة يا آنسة.

- إن دار رعايتكم القديمة هذه لم تكن آمنة جداً في نهاية المطاف.

- لو أنك أطعت التعليمات يا آنسة...

بدت مندهشة قليلاً وقالت: ولكني أطعتها.

- ألم أشدد عليك أن لا تأكلي أي شيء يأتيك من الخارج؟

- لم أفعل ذلك.

- ولكن هذه الشكلاتة...

- لم يكن بها شيء؛ أنت الذي أرسلتها إليّ.

- ما هذا الذي تقولينه يا آنسة؟

- أنت الذي أرسلتها.

- أنا؟ أبداً، لم أفعل ذلك أبداً.

- بل فعلت، كانت بطاقتك في العلبة.

- ماذا؟

أشارت مادج باتجاه طاولة بجانب السرير، فتقدمت الممرضة وقالت: هل تريدين البطاقة التي كانت في العلبة؟

- نعم، أرجوك أيتها الممرضة.

سكت الجميع لحظة، ثم عادت الممرضة إلى الغرفة وهي تحمل البطاقة وقالت: ها هي. فتحت فمي دهشة وكذلك فعل بوارو، حيث كان مكتوباً على البطاقة وبخط يد مزخرف وجميل نفس الكلمات التي كان بوارو قد كتبها على البطاقة التي أُرفقت مع سلة الورود: «مع تحيات هيركيول بوارو».

- يا إلهي!

قالت مادج عاتبة: أرأيت؟

صاح بوارو: أنا لم أكتب هذا.

- ماذا؟

- ولكن... ولكن هذا خط يدي.

- أعرف، إنها نفس البطاقة التي أرسلتها مع الورود البرتقالية.

لم أشكّ أبداً أنك أنت الذي أرسلت علبة الحلوى.

هز بوارو رأسه وقال: وكيف لك أن تشكّي؟ آه، ذلك الشيطان! ذلك الشيطان الذكي المتوحش! كيف يفكر في هذا؟ آه، مجرم عبقري، إنه مجرم عبقري! «مع تحيات هيركيول بوارو»... بكل هذه البساطة؟ نعم، ولكن كان عليّ أن أفكر في هذا. لكنني لم... لم أفكر، لقد أغفلت استشراف هذه الحركة.

تحركت مادج في جلستها متململة. قال بوارو: لا تثيري نفسك يا آنسة، لا لوم عليك، لا لوم عليك. أنا الذي يقع عليه اللوم، أنا الأحمق البائس! كان عليّ أن أتنبأ بهذه الحركة. نعم، كان عليّ أن أتوقعها.

كان فمه مفتوحاً من الدهشة وبدا بائساً حزيناً. قالت الممرضة: أعتقد حقاً...

كانت تحوم حول المكان وعلامات الاستياء بادية على وجهها. قال بوارو: إيه؟ نعم، نعم، سوف أذهب. تشجعي يا آنسة، هذا آخر خطأ أرتكبه. إنني أشعر بالخزي والبؤس. لقد خُدعت، كان هناك مَن هو أفطن مني وكأنني تلميذ صغير، ولكن ذلك لن يحدث ثانية. نعم، أعدك بذلك. هيا يا هيستنغز.

كان الإجراء الأول الذي قام به بوارو هو التحقيق مع مديرة دار الرعاية. كان طبيعياً أن تكون متضايقة ومنزعجة جداً مما حدث، وقالت: لا أصدق ما حدث يا سيد بوارو، لا أصدق أبداً... أن يحدث مثل هذا الأمر عندي في دار الرعاية.

أبدى بوارو تعاطفه بلباقة، وبعد أن هدّأها وطمأنها بدأ يسألها عن ظروف وصول علبة الحلوى القاتلة. وأخبرته مديرة الدار بأنه من الأفضل له في هذه الحالة أن يقابل حارس الأمن وقت وصول الطرد.

كان اسم الشاب هود وكان شاباً في الثانية والعشرين من عمره، أحمق رغم مظهره الصادق النزيه. بدا عصبياً خائفاً إلاّ أن بوارو طمأنه قائلاً: لن يقع عليك أي لوم، لكن أريد منك أن تخبرني بالضبط متى وصل هذا الطرد؟

بدا الحارس محتاراً وقال ببطء: من الصعب أن أخبرك يا سيدي؛ فكثير من الناس يأتون ويسألون ويتركون أشياء للمرضى الكثيرين.

قلت: تقول الممرضة إن هذا الطرد وصل في الليلة الماضية، في الساعة السادسة تقريباً.

أشرق وجه الشاب وقال: تذكرت الآن يا سيدي، لقد أحضره رجل.

- رجل بوجه نحيف... أشقر الشعر؟

- كان أشقر الشعر، لكني لا أعرف إن كان وجهه نحيفاً أو غير ذلك.

قلت هامساً في أذن بوارو: أيقدم تشارلز فايس على إحضاره بنفسه؟

كنت قد نسيت أن الشاب ربما كان يعرف الاسم باعتباره من منطقته، قال: لم يكن السيد فايس فأنا أعرفه، كان رجلاً ذا جسم أضخم وسيم الهيئة، وجاء في سيارة كبيرة.

صحت: لازاروس.

نظر بوارو إليّ نظرة تحذير، وندمت على تسرعي. سأله بوارو: جاء في سيارة كبيرة وترك هذا الطرد. هل كان موجَّهاً إلى الآنسة باكلي؟

- نعم يا سيدي.

- وماذا فعلت به؟

- لم ألمسه يا سيدي، فقد أخذته الممرضة إلى الطابق العلوي.

- صحيح، لكنك لمسته عندما أخذته من الرجل، أليس كذلك؟

- آه بالنسبة لهذا، صحيح. بالطبع يا سيدي. أخذته منه ووضعته على الطاولة.

- أي طاولة؟ أرني إياها من فضلك.

أخذَنا الحارس إلى داخل الصالة، وكان الباب الأمامي مفتوحاً وقريباً منه في داخل الصالة طاولة من الرخام كان عليها رسائل وطرود. قال: كل شيء يأتي يوضع هنا يا سيدي، ثم تقوم الممرضات بأخذه إلى المرضى.

- ألا تذكر الوقت الذي وصل فيه الطرد إلى هنا؟

- لا بد أنه كان في الساعة الخامسة والنصف تقريباً أو بعد ذلك بقليل. أعرف أن البريد كان قد وصل لتوه وهو ما يكون في العادة الساعة الخامسة والنصف تقريباً، وكانت الدار مشغولة كثيراً بالزوار في ذلك المساء وكثير من الناس كانوا يتركون طروداً أو يأتون لزيارة المرضى.

- شكراً لك. أعتقد أننا لا بد أن نرى الممرضة التي أخذت الطرد وسلمته لها.

ظهر أن هذه الممرضة كانت تخضع للتجربة، وكانت صغيرة الجسم رقيقة وكانت ذاهلة. تذكرت أنها أخذت الطرد إلى الطابق العلوي في الساعة السادسة عندما بدأت نوبتها ذلك المساء.

قال بوارو: الساعة السادسة؟ إذن فقد ظل الطرد على الطاولة في الطابق السفلي مدة عشرين دقيقة تقريباً.

- عذراً؟

- لا شيء يا آنسة، أكملي. هل أخذت الطرد إلى الآنسة باكلي؟

- نعم، كانت توجد لها أشياء كثيرة. كانت هناك هذه العلبة وبعض الورود... من شخص يدعى السيد كروفت وزوجته على ما أظن. أخذتها كلها إليها في وقت واحد، وكان هناك طرد وصل بالبريد والغريب أنه كان أيضاً عبارة عن شُكلاتة من نوع فولر.

- ماذا؟ علبة ثانية؟!

- نعم، كانت مصادفة. فتحتهما الآنسة باكلي معاً وقالت: "آه، يا للعار! غير مسموح لي بأن آكلها". ثم فتحت الغطاءين لتنظر ما بداخلهما وترى إن كانا من النوع نفسه، وكانت بطاقتك في واحدة منهما فقالت: "خذي العلبة الأخرى بعيداً حتى لا أخلط بينهما". آه، مَن كان يفكر في مثل هذا العمل؟

قاطعها بوارو قائلاً: هل قلتِ إنهما كانتا علبتين؟ مَن الذي أرسل العلبة الثانية؟

- لم يكن بداخلها أي اسم.

- وأي علبة هي التي جاءت... أو ظهر أنها قد جاءت مني؟ العلبة التي جاءت بالبريد أم الأخرى؟

- أعترف بأنني لا أتذكر، هل أذهب وأسأل الآنسة باكلي؟

- سيكون ذلك لطفاً منك.

ركضت تصعد الدرج، وقال بوارو متمتماً: علبتان؟ إن ذلك يشوش تفكيري.

عادت الممرضة لاهثة وقالت: الآنسة باكلي غير متأكدة، فقد فتحتهما معاً قبل أن تنظر ما بداخلهما، لكنها تعتقد أنها لم تكن العلبة التي جاءت بالبريد.

قال بوارو مرتبكاً بعض الشيء: إيه؟

- العلبة التي جاءت منك هي التي لم تأتِ عن طريق البريد، على الأقل هذا ما تعتقده هي لكنها غير متأكدة تماماً.

* * *

قال بوارو ونحن نسير مبتعدين: تباً! أليس ثمة من يتأكد من شيء؟ في الروايات البوليسية نعم، ولكن في الحياة، الحياة الواقعية... دائماً تكون مليئة بالحيرة.

- ولكن أنت أيضاً غير متأكد من شيء ما؟

- لا، لا... لا و ألف لا.

قلت: لازاروس.

- نعم، إنها مفاجأة، أليس كذلك؟

- هل ستقول له أي شيء عن هذا الأمر؟

- بالتأكيد، يهمني أن أرى كيف سيكون رد الفعل. بالمناسبة، ربما نبالغ أمامه في خطورة حالة الآنسة. ما من ضرر في إشاعة أنها تصارع الموت، هل فهمت؟ نحتاج إلى وجه مكتئب... نعم، ممتاز؛ صرتَ كالحانوتي تماماً.

كنا محظوظَين لأننا وجدنا لازاروس. كان ينحني وهو يتفحص غطاء محرك السيارة خارج الفندق، وذهب بوارو إليه مباشرة وبدأ الكلام بدون مقدمات: مساء الأمس يا سيد لازاروس تركت علبة حلوى للآنسة.

بدا لازاروس مندهشاً وقال: نعم؟

- كان ذلك تصرفاً لطيفاً منك.

- الواقع أنها كانت فريدي، السيدة رايس. هي التي طلبت مني إرسال العلبة.

- آه، فهمت.

- أخذتها معي بالسيارة.

- فهمت.

سكت لبعض الوقت فسأله بوارو: والسيدة رايس، أين هي؟

- أظن أنها في الردهة.

وجدنا فريدريكا تشرب الشاي، رفعت بصرها إلينا بلهفة وقالت: ما هذا الذي سمعته عن مرض مادج؟

- إنها مسألة غامضة للغاية يا سيدتي. أخبريني، هل أرسلت لها علبة حلوى بالأمس؟

- نعم، أو بالأحرى هي التي طلبت مني أن أحضرها لها.

- هي التي طلبت منك إحضارها لها؟!

- نعم.

- لكن لم يكن مسموحاً لها برؤية أحد، فكيف رأيتها؟

- لم أرَها، خابرتني بالهاتف.

- آه، وماذا قالت لك؟

- سألتني أن أحضر لها علبة شُكلاتة من نوع فولر.

- وكيف بدا صوتها... ضعيفاً؟

- لا، أبداً؛ بل قوياً جداً. لكنه كان مختلفاً إلى حد ما، فلم أدرك أنها هي التي كانت تكلمني في البداية.

- إلى أن أخبرتك من تكون؟

- نعم.

- هل أنت واثقة أنها كانت حقاً صديقتك يا سيدتي؟

بدت فريدريكا مذعورة وقالت: أنا، أنا... كانت هي بالطبع، ومَن غيرها يمكن أن تكون؟

- هذا سؤال مثير يا سيدتي.

- هل تعني...؟

- أيمكنك أن تقسمي أنه صوت صديقتك يا سيدتي... بغض النظر عما قالته؟

قالت فريدريكا ببطء: لا، لا أستطيع؛ كان صوتها مختلفاً بالتأكيد. ظننت أنه بسبب الهاتف أو بسبب مرضها.

- لو لم تخبرك من تكون لما عرفتها؟

- نعم، لا أظن أنني كنت سأعرفها. مَن كانت يا سيد بوارو؟ من كانت؟

- هذا ما أريد معرفته يا سيدتي.

بدا أن جدية قسماته قد أيقظت شكوكها، فسألته لاهثة: هل مادج... هل حدث أي شيء؟

أومأ بوارو برأسه وقال: إنها مريضة، مريضة مرضاً خطيراً. حبات الشُّكلاتة تلك كانت مسمومة يا سيدتي.

- الشُّكلاتة التي أرسلتها أنا؟ مستحيل، مستحيل!

- ليس مستحيلاً يا سيدتي لأن الآنسة على وشك الموت.

أخفت وجهها بين يديها وهي تقول: آه، يا إلهي!

ثم رفعت وجهها شاحباً وهي ترتعش وتقول: لا أفهم، لا أفهم. الأخرى نعم، ولكن ليس هذه. لا يمكن أن تكون مسمومة، لا أحد لمسها سواي وجيم. إنك ترتكب خطأ شنيعاً يا سيد بوارو.

- لست أنا من يرتكب الخطأ... رغم أن اسمي كان في داخل العلبة.

حدقت فيه لا تدري ما تقول، ثم قال وهو يلوح بيده مهدداً: إذا ماتت الآنسة مادج...

صرخت صرخة ضعيفة، أما هو فاستدار بعيداً وهو يشدني من ذراعي وصعدنا إلى غرفة الجلوس. ألقى بقبعته على الطاولة وقال: لا أفهم شيئاً، لاشيء؛ إنني في الظلام. أنا طفل صغير! من هو المستفيد من وفاة الآنسة؟ السيدة رايس. مَن الذي اشترى الحلوى واعترف بهذا واخترع قصة تلقّي مكالمة هاتفية، وهي قصة لا يمكن

أن تصدَّق؟ السيدة رايس. قصة بسيطة جداً وغبية جداً، لكنها ليست غبية... نعم.

- إذن؟

- لكنها تتعاطى الكوكايين يا هيستنغز، أنا متأكد من أنها تتعاطى الكوكايين، ليس في هذا أي خطأ. وكان في حبات الحلوى هذه كوكايين. وماذا عنت بقولها "الأخرى نعم ولكن ليس هذه"، هذه بحاجة إلى تفسير. و لازاروس هذا صاحب اللسان المعسول... ما علاقته بكل ذلك؟ ما الذي تعرفه السيدة رايس؟ إنها تعرف شيئاً، لكني لا أستطيع حملها على الكلام. لكنها تعرف شيئاً يا هيستنغز. هل قصتها عن المكالمة الهاتفية صحيحة أم أنها اخترعتها؟ وإن كانت صحيحة فصوتُ مَن يكون؟ إنني أقول لك يا هيستنغز: الأمر يلفه الظلام.

قلت مطَمْئناً: الظلام يعقبه الفجر دائماً.

هزّ رأسه وقال: إذن العلبة الأخرى... التي جاءت بالبريد، هل يمكننا استبعادها؟ لا، لا أستطيع لأن الآنسة ليست متأكدة. هذا أمر مزعج تماماً.

أخذ يدمدم، وكنت على وشك الكلام عندما أوقفني وهو يقول: لا، لا، لا تلقِ على مسامعي مثلاً آخر فلن أطيقه. إذا كنت صديقاً طيباً، الصديق الطيب المساعد...

قلت بحماسة: نعم؟

- فاخرج أرجوك واشترِ لي بعض أوراق اللعب.

حدقت إليه ذاهلاً، ثم قلت بفتور: حسناً.

لم أستطع إلا الاشتباه بأنه كان يتعمد تلفيق عذر للتخلص مني، ولكنني أسأت الحكم عليه في ذلك؛ ففي تلك الليلة عندما دخلت غرفة الجلوس في الساعة العاشرة تقريباً وجدت بوارو يبني بيوتاً بأوراق اللعب بحذر شديد... وتذكرت.

كانت حيلة قديمة له لتهدئة أعصابه، وابتسم لي وهو يقول: نعم، أنت تذكر. أحتاج إلى الدقة في التفكير. ورقة على أخرى، هكذا... في المكان الصحيح بالضبط، وتلك تسند وزن التي في الأعلى وهكذا، أعلى ثم أعلى. اذهب إلى النوم يا هيستنغز. اتركني هنا مع بيت الورقي، إنني أصفّي ذهني.

كانت الساعة الخامسة صباحاً عندما استيقظت على هزات عنيفة، كان بوارو يقف بجانب سرير ويبدو سعيداً مسروراً وقال: الأمر كما قلت بالضبط يا صديقي، آه، كما قلته تماماً. لقد كان تعبيراً ذكياً.

طرفت عيني وأنا أنظر إليه ولم أكن قد استيقظت تماماً. قال: دائماً الظلام يعقبه... هذا ما قلته. كان ظلاماً شديداً، والآن جاء الفجر.

نظرت من النافذة، وكان كلامه صحيحاً تماماً. لكنه قال: لا، لا يا هيستنغز. في الرأس، في العقل... الخلايا الرمادية الصغيرة!

سكت قليلاً ثم أضاف بهدوء: لقد ماتت الآنسة يا هيستنغز.

صحوت وقد طار النوم من عيني فجأة وصحت: ماذا؟

- صه، صه! إنه كما أقول لك. ليس ذلك حقيقة بالطبع، ولكن يمكن تدبيره لمدة أربع وعشرين ساعة. لقد دبرت ذلك مع الطبيب والممرضات. هل تعي ما أقوله يا هيستنغز؟ لقد كان المجرم ناجحاً. حاول أربع مرات وفشل وفي الخامسة نجح. والآن سنرى ما سيحدث بعد ذلك، سيكون شيئاً مثيراً جداً.

* * *

الفصل الثامن عشر

وجه في النافذة

أحداث اليوم التالي غامضة جداً في ذاكرتي. كان من سوء حظي أن استيقظت في ذلك اليوم محموماً، وقد كنت تعرضت منذ وقت طويل لمثل هذه النوبات من الحمى في أوقات غير مناسبة منذ أن أصبت بالملاريا ذات مرة. ونتيجة لذلك اتخذت أحداث ذلك اليوم في ذاكرتي شكل كابوس مع مجيء بوارو وذهابه وكأنه مهرجٌ غريب يظهر في سيرك على فترات منتظمة.

أظن أنه كان يسلّي نفسه إلى أقصى درجة؛ كان منظره بائساً محتاراً يثير الشفقة، ولا أدري كيف توصل إلى الغاية التي كان يريدها والتي كشفها لي في ساعات الصباح الأولى، لكنه توصل إليها بالفعل.

لم يكن من شأن تلك العملية أن تكون سهلة، فمقدار الخداع والتظاهر الكاذب الذي كانت تنطوي عليه كان كبيراً دون شك. إن الشخصية الإنكليزية تميل إلى النفور من الكذب بشكل عام، الأمر الذي كانت خطة بوارو تتطلبه دون غيره. كان عليه أولاً أن يقنع

الدكتور غراهام بالخطة، ومع وجود الدكتور غراهام إلى جانبه كان عليه أن يقنع مديرة الدار وبعض الممرضات ليعملنَ وفقاً لخطته. وفي هذا أيضاً لا بد أن الصعوبات كانت ضخمة وربما كان نفوذ الدكتور غراهام هو الذي حسم الأمر، ثم كان هناك رئيس الشرطة والشرطة. وهنا ربما وجد بوارو نفسه في مواجهة الشكليات الرسمية، ومع ذلك فقد انتزع أخيراً موافقة من الكولونيل ويستن على مضض منه. وقد أوضح الكولونيل أن ذلك ليس مسؤوليته بأي حال من الأحوال؛ فبوارو، بوارو وحده، هو المسؤول عن نشر تلك التقارير الكاذبة نشراً واسعاً. وقد وافقه بوارو على ذلك. كان مستعداً للموافقة على أي شيء ما دام قد سُمح له بتنفيذ خطته.

قضيت معظم النهار نائماً في كرسي كبير والدثار على ركبتي. وكان بوارو يدخل كل ساعتين أو ثلاث ساعات ويخبرني بحدوث تقدم.

قال ذات مرة: كيف حالك يا صديقي؟ إنني أرثي لحالك، ولكن ربما كان ذلك جيداً أيضاً؛ فأنت لا تتقن تقديم وصلة تهريج كما أتقنه أنا. لقد عدت لتوي بعد أن طلبت إكليلاً كبيراً ضخماً من أزهار الزنبق يا صديقي... إكليلاً كبيراً كتبت عليه «مع خالص العزاء، من هيركيول بوارو». آه، يا لها من مسرحية هزلية!

ثم غادر مرة أخرى، وبعد فترة عاد ليقول: جئتك بعد حديث مؤثر جداً مع السيدة رايس. كانت ترتدي ثوباً أسود جميلاً، إنها صديقتها المسكينة. يا لها من مأساة! كنت أتأوه تعاطفاً، وقالت إن

مادج كانت مرحة جداً تتفجر حيوية وإنه يستحيل عليها أن تفكر بأنها قد ماتت.

قلت بصوت واهن: أنت تستمتع بهذا.

- أبداً، إنما هو جزء من خطتي ليس إلاّ. إن تمثيل مسرحية هزلية بنجاح يلزمك أن تؤديها من كل قلبك. ثم انتهت التعبيرات التقليدية عن الأسف والحزن وتحدثت السيدة عن أمور أكثر خصوصية، قالت إنها جلست صاحية طول الليل تتساءل بخصوص تلك الحلوى، وقالت إن ذلك مستحيل، مستحيل. قلت لها: "ليس مستحيلاً يا سيدتي، يمكنك أن تقرئي تقرير التحليل". ثم قالت بصوت مرتجف: "هل قلت إنه بسبب الكوكايين؟"، قلت لها: "نعم"، فردت عليّ: "يا إلهي! إنني لا أفهم".

- ربما كان ذلك صحيحاً.

- إنها تفهم بما فيه الكفاية بأنها في خطر. إنها ذكية، قلت لك ذلك من قبل. نعم، إنها في خطر وهي تعرف هذا.

- ومع ذلك يبدو لي لأول مرة أنك لا تصدق أنها مذنبة.

قطب بوارو جبينه وخفّت الحماسة في سلوكه وقال: إن ما تقوله هذا عميق يا هيستنغز. نعم، يبدو لي -إلى حد ما- بأن الحقائق لم تعد منسجمة. هذه الجرائم... أكثر ما يميزها حتى الآن هو الحذق والبراعة، أليس كذلك؟ وهنا لا يوجد أي حذق أو براعة، بل مجرد الفجاجة ليس إلاّ. نعم، لا يوجد انسجام.

ثم جلس على الطاولة وقال: هيا، دعنا نتدارس الحقائق.

أمامنا ثلاثة احتمالات؛ الأول أن السيدة رايس هي التي اشترت الحلوى والذي سلمها هو السيد لازاروس، وفي هذه الحالة يقع الذنب على واحد منهما أو كليهما معاً، والمكالمة الهاتفية التي من المفترض أن تكون من الآنسة مادج مجرد اختراع لا أكثر ولا أقل. هذا هو الحل الواضح المباشر. الحل رقم ٢: علبة الحلوى الثانية التي وصلت بالبريد: بوسع أي شخص أن يرسلها، أي شخص من ضمن قائمة المشتبه بهم، ولكن إن كانت تلك هي العلبة التي احتوت على السم فما هو المغزى من المكالمة الهاتفية؟ لماذا تعقيد الأمور بعلبة ثانية؟

هززت رأسي هزة ضعيفة، فمع ارتفاع حرارتي إلى ٣٩ درجة بدا أن أي تعقيد للمسائل إنما هو أمر تافه ولا حاجة له.

أكمل بوارو: الحل رقم ٣: استُبدلت بعلبة الحلوى «البريئة» التي اشترتها السيدة رايس علبة أخرى مسمومة. وفي تلك الحالة فإن المكالمة الهاتفية حركة ذكية ومفهومة، إذ يراد للسيدة رايس أن تكون ما يمكن أن نسميه «رأس الحربة»؛ يُراد لها أن تُخرج بأصابعها الجوزَ المشوي من النار. ولذلك فإن الحل «٣» هو الأكثر منطقية، ولكنه أكثرها صعوبة للأسف. كيف يمكن التأكد من استبدال العلبة في اللحظة المناسبة؟ فربما أخذ الحارس العلبة إلى الطابق العلوي مباشرة... احتمالات عديدة قد تمنع من حدوث الاستبدال. لا، لا يبدو أن ذلك منطقي.

- ما لم يكن لازاروس...

نظر بوارو إليّ وقال: أنت مصاب بالحمى يا صديقي. إنها ترتفع، أليس كذلك؟

أومأت برأسي موافقاً.

- غريب كيف أن بضع درجات من الحرارة يمكن أن تحفز العقل. لقد نطقت الآن بملاحظة بسيطة وعميقة للغاية، بسيطة لدرجة أنني لم آخذها بالحسبان، لكنها يمكن أن تفترض وضعاً غريباً جداً. السيد لازاروس الصديق العزيز للسيدة رايس يبذل جهده ليعلقها على حبل المشنقة. إنها تفتح احتمالات غريبة جداً، لكنها معقدة... معقدة جداً.

- أغمضت عيني. كنت سعيداً لأنني أظهرت ذكاء، لكنني لا أريد التفكير بأي شيء معقد، أردت النوم فقط. أظن أن بوارو واصل حديثه لكني لم أصغِ إليه، كان صوته يهدأ ويخف... لقد نمت.

كان الوقت متأخراً بعد الظهر عندما رأيته في المرة التالية. قال بصوت عال: خطتي الصغيرة جلبت ثروة لمحلات الزهور، الكل يطلب أكاليل الزهور؛ السيدة كروفت، والسيد فايس. والقبطان تشالنجر...

أيقظ الاسم الأخير وخز الضمير في نفسي، فقلت: اسمع يا بوارو، يجب أن تصارحه بهذا. مسكين، سيفقد عقله حزناً، هذا ليس عدلاً.

- أنت تشفق عليه دائماً يا هيستنغز.

- لأنني أحبه، فهو شخص شريف جداً. لا بد أن تصارحه بهذا السر.

هز بوارو رأسه وقال: لا يا صديقي، إنني لا أستثني أحداً.

- لكنك لا تشك في أن له علاقة بما حدث؟

- بالعكس، إنني أفضل التفكير في المفاجأة السارة التي أعدها له. أن تعتقد بأن المحبوبة ماتت ثم تجد أنها على قيد الحياة، إنه إحساس فريد... فريد جداً.

- يا لك من عجوز عنيد! إنه سيبقي الأمر سراً.

- لست واثقاً تماماً.

- إنه مثال للشرف، أنا متأكد من ذلك.

- هذا يجعل كتمان السر أكثر صعوبة. إن كتمان السر فن يتطلب أن تقول الكثير من الأكاذيب بشكل جميل ويتطلب قابلية كبيرة لتمثيل مسرحية والاستمتاع بها، هل يستطيع القبطان تشالنجر التمثيل وإخفاء الحقيقة؟ إن كان كما تقول عنه فإنه لا يستطيع ذلك بالتأكيد.

- إذن فأنت لن تخبره؟

- أنا أرفض بالتأكيد تعريض فكرتي الصغيرة للخطر من أجل العاطفة؛ إننا نتعامل مع الموت والحياة يا عزيزي. على أية حال فإن المعاناة مفيدة للشخصية!

ثم أحاول ثنيه عن قراره أكثر من ذلك، فقد أدركت أنه قد

عزم أمره. قال: لن أغير ثيابي لتناول العشاء؛ إنني رجل عجوز مكسور الفؤاد... هذا هو دوري. لقد تحطمت ثقتي بنفسي كلها، أنا مكسور الفؤاد، لقد فشلت... لن آكل إلا القليل جداً، إذ أرى أن طبقاً لم تمتد إليه يد صاحبه هو الموقف المطلوب الآن. وفي شقتي الخاصة سوف آكل بعض الخبز المحلّى الذي أوحت لي حصافتي أن أشتريه من الحلواني قبل ذلك. وأنت؟

قلت بحزن: أظن أنني سأشرب قليلاً من ماء الكينين.

- للأسف أيها المسكين هيستنغز! ولكن تشجع، كل شيء سيكون على ما يرام في الغد.

- محتمل جداً. في الغالب تدوم هذه النوبات أربعاً وعشرين ساعة فقط.

لم أسمعه عندما عاد إلى الغرفة، ولا بد أنني كنت نائماً. عندما استيقظت كان جالساً وراء الطاولة يكتب، وكانت أمامه قطعة ورقة ممتدة بعد أن كانت مكوّرة كما يبدو، وعرفت أنها الورقة التي كان قد كتب عليها قائمة الأسماء من «١» إلى «١٠» والتي كوّرها سابقاً ورماها.

أومأ برأسه إجابة على فكرتي التي لم أقلها وقال: نعم يا صديقي، لقد أحييتها من جديد، وأنا أعمل عليها من زاوية مختلفة الآن. إنني أجمع قائمة الأسئلة التي تتعلق بكل شخص. قد لا يكون للأسئلة أي صلة بالجريمة، إنها مجرد أشياء لا أعرفها، أشياء بقيت دون تفسير وأحاول العثور على أجوبة لها أضعها في عقلي.

- وإلى أي حد وصلت؟

- لقد انتهيت. هل تحب أن تسمع؟ هل أنت قوي بما فيه الكفاية؟

- نعم، الواقع أنني أشعر بتحسن كبير.

- هذا خبر جيد. حسناً، سأقرؤها عليك. سنعتبر بعضها ملاحظات صبيانية دون شك. تنحنح وقال:

(١) إيلين:
لماذا ظلت في البيت ولم تخرج لرؤية الألعاب النارية؟ (أمر غير عادي وفق شهادة الآنسة مادج التي أبدت دهشتها عندما سمعت ذلك). ما الذي ظنت أو شكّت أنه حدث؟ هل أدخلت أي شخص إلى البيت؟ هل تقول الحقيقة عن المخبأ السري؟ إن كان هناك مثل هذا الشيء فلماذا لا تستطيع أن تتذكر مكانه؟ (يبدو أن الآنسة متأكدة تماماً من عدم وجود مثل هذا الشيء، ولو كان موجوداً لعرفت بالتأكيد). إن كانت قد لفقته فلماذا فعلت ذلك؟ هل قرأت رسائل الحب التي كتبها مايكل ستين أم كانت دهشتها تجاه خبر خطوبة الآنسة مادج حقيقية؟

(٢) زوجها:
هل هو على ما يبدو عليه من غباء؟ هل يعرف ما تعرفه إيلين (مهما كان الذي تعرفه) أم لا؟ هل هو مريض عقلياً؟

(٣) الطفل:
هل بهجته لذكر الدم غريزة طبيعية معروفة عمّن هم في مثل عمره أم أنها حالة مرَضية؟ وهل تلك الحالة المرضية موروثة من أحد الوالدين؟ هل استخدم مسدس لعبة من قبل؟

(٤) السيد كروفت:
من هو؟ من أين جاء حقاً؟ هل أرسل الوصية بالبريد كما يزعم؟ ما هو دافعه لعدم إرسالها بالبريد؟

(٥) السيدة كروفت:
نفس الأمر أعلاه. من هما السيد كروفت وزوجته؟ هل هما مختبآن لسبب معين؟ وإذا كان ذلك صحيحاً فما هو السبب؟ هل لهما أي صلة بعائلة باكلي؟

(٦) السيدة رايس:
هل كانت تعرف حقاً بالخطوبة بين مادج ومايكل ستين؟ هل كان مجرد تخمين منها أم أنها قرأت الرسائل المتبادلة بينهما؟ (في تلك الحالة كانت ستعرف أن الآنسة هي وريثة مايكل ستين). هل كانت تعرف أنها هي التي سترث ما سيتبقى من ثروة الآنسة؟ (أظن أن هذا أمر محتمل. ربما أخبرتها الآنسة بهذا وربما أضافت إلى ذلك أنها لن تحصل على الكثير من إرثها). هل هناك أية حقيقة في إشارة القبطان تشالنجر إلى أن لازاروس كان مفتوناً بالآنسة مادج؟ (قد يفسر هذا نقصاً معيناً في درجة الود بين الصديقتين الذي

ظهر على ما يبدو في الأشهر القليلة الماضية). مَن هو الذي ذُكر في رسالتها أنه يورّد المخدرات؟ لماذا أغمي عليها في أحد الأيام في هذه الغرفة؟ هل كان بسبب شيء قالته أم أنه شيء رأته؟ هل روايتها حول الرسالة الهاتفية التي تطلب منها شراء علبة الحلوى صحيحة أم أنها كذبة متعمدة؟ ما الذي كانت تعنيه بقولها: "أستطيع أن أفهم الأخرى، ولكن ليس هذه"؟ إن لم تكن هي نفسها مذنبة فما الذي تعرفه وتحتفظ به لنفسها؟

قال بوارو وقد توقف فجأة عن القراءة: كما ترى فإن الأسئلة المتعلقة بالسيدة رايس لا تُعَد ولا تحصى. إنها امرأة غامضة من البداية وحتى النهاية، وهذا يدفعني إلى نتيجة، إما أن السيدة رايس مذنبة أو أنها تعرف... أو لنقل تظن أنها تعرف المجرم. ولكن هل هي مصيبة فيما تراه؟ هل تعرف أم أنها تشكّ فقط؟ وكيف يمكن حملها على الكلام؟

تنهد ثم قال: حسناً، سأواصل قراءة قائمة الأسئلة التي وضعتها:

(٧) السيد لازاروس:
غريب، لا توجد -في الواقع- أية أسئلة يمكن توجيهها تتعلق به ما عدا السؤال المباشر الصريح: هل قام باستبدال الحلوى المسمومة؟ وفيما عدا ذلك فإنني أجد سؤالاً واحداً لا علاقة له بالمسألة: لماذا عرض السيد لازاروس خمسين جنيهاً مقابل لوحة لا تساوي أكثر من عشرين؟

قلت له: لعله يريد تقديم خدمة لمادج.

- ما كان ليفعلها بتلك الطريقة. إنه تاجر، لا يشتري لكي يبيع بخسارة. لو كان يريد إظهار وده ولطفه لأقرضها المال شخصاً لشخص.

- على أية حال لا يمكن أن يكون لهذا الموضوع أية صلة بالجريمة.

- صحيح، ولكن أريد أن أعرف؛ فإن لي شغفاً بعلم النفس كما تعلم. والآن نكمل:

(٨) القبطان تشالنجر:
لماذا أخبرته الآنسة مادج بأنها كانت مخطوبة لشخص آخر؟ ما الذي اضطرها إلى إخباره بذلك، فهي لم تخبر أي شخصٍ آخر؟ هل تقدم لخطبتها؟ ما هي علاقته بخاله؟

- خالُه يا بوارو؟

- نعم، الطبيب، وهي شخصية مثيرة للشكوك. هل وصل أي خبر خاص عن وفاة مايكل ستين إلى سلاح البحرية قبل أن يعلن الخبر للملأ؟

- لا أفهم تماماً ما تريد الوصول إليه يا بوارو. حتى لو كان تشالنجر يعرف مسبقاً عن وفاة ستين فإن ذلك لا يقودنا إلى أي شيء محتمل، إنه لا يعطينا أي دافع حقيقي لقتل الفتاة التي أحبها.

- أوافقك الرأي تماماً. ما تقوله معقول تماماً، لكنها مجرد أشياء أريد معرفتها. ما زلت كالكلب الذي يتشمم بحثاً عن الزلات والأخطاء.

(٩) السيد فايس:
لماذا قال ما قاله عن حب ابنة عمته الجنوني للبيت الأخير؟ ما هو الدافع الذي يمكن أن يقف وراء قوله هذا؟ هل استلم الوصية أم لا؟ هل هو رجل نزيه فعلاً أم أنه غير نزيه؟

والآن إلى «١٠». هو ما كتبته من قبل، علامة استفهام كبيرة. هل يوجد مثل هذا الشخص أم لا يوجد؟ يا إلهي! ماذا دهاك؟

كنت جفلت على مقعدي بصرخة مفاجئة، وأشرت إلى النافذة بيد مرتعشة. صحت قائلاً: وجه يا بوارو! وجه كان ملتصقاً بالزجاج، وجه مرعب! لقد ذهب الآن، لكني رأيته.

تحرك بوارو صوب النافذة وفتحها، وأخرج رأسه منها وقال متأملاً: لا يوجد أحد هنا. هل أنت واثق من أنك لم تتخيله يا هيستنغز؟

- أنا متأكد تماماً، كان وجهه مرعباً.

هناك الشرفة بالطبع، وبوسع أي شخص الوصول إليها بسهولة إن أراد أن يسمع ما نقوله. عندما تقول «وجه مرعب» يا هيستنغز، فماذا تقصد بالضبط؟

- وجه شاحب محدّق، لا يكاد يكون بشرياً.

- إنها الحمى يا صديقي. وجه؟

- نعم، وجه كريه، نعم. ولكن لا يكاد يكون بشرياً!

- إن ما رأيته كان أثر وجه انضغط تماماً على زجاج النافذة، وهذا مرتبط بالصدمة لأنك لم تكن تتوقع رؤيته.

قلت بعناد: كان وجهاً مخيفاً.

- أكان وجه... شخص تعرفه؟

- لا.

- إيه، ومع ذلك قد يكون! أشك في أنك كنت ستميزه وأنت في هذه الظروف. إنني أتساءل الآن... نعم، أتساءل كثيراً.

جمع أوراقه وهو مستغرق في التفكير ثم قال: شيء واحد على الأقل يفيد. إن كان صاحب ذلك الوجه قد سمع حديثنا فنحن لم نذكر أن الآنسة مادج على قيد الحياة وبصحة جيدة، ومهما يكن ما سمعه زائرنا غير ذلك فقد فاتته تلك المعلومة الهامة.

- ولكن المؤكد أن نتائج هذه المناورة الذكية التي قمت بها مخيبة للآمال بعض الشيء حتى هذه اللحظة؛ فمادج ميتة ولم تقع تطورات مثيرة.

- أنا لم أتوقع هذه الأحداث بهذه السرعة، لقد قلت بعد أربع وعشرين ساعة. غداً يا صديقي (إن لم أخطئ) ستبرز أشياء معينة، وإلا... وإلا فإنني مخطئ من البداية وحتى النهاية. البريد، أملي معقود على بريد الغد.

* * *

استيقظت في الصباح وأنا أشعر بالضعف لكن الحمى قد زالت، وأحسست أيضاً بالجوع. تناولت مع بوارو طعام الإفطار في غرفة الجلوس، وقلت بمكر وهو يفرز رسائله: حسناً؟ هل فعل البريد ما توقعته منه؟

لم يجبني بوارو الذي كان قد فتح ظرفين، وبدا واضحاً أنهما كان يحتويان على فواتير. رأيت أنه بدا كئيباً محبطاً بعض الشيء وليس «منفوش الريش» كعادته.

فتحت بريدي الخاص. كانت الرسالة الأولى إشعاراً حول جلسة لتحضير الأرواح، وقلت: إذا فشل كل شيء فيجب أن نذهب إلى محضّري الأرواح. كثيراً ما أتساءل عن السبب في عدم إجراء المزيد من التجارب في هذا الحقل. إن روح الضحية تعود وتسمّي قاتلها، ومن شأن ذلك أن يقدّم دليلاً.

قال بوارو بذهن شارد: حتى هذا لا يكاد يساعدنا بشيء؛ أشك في أن ماغي باكلي قد عرفت اليد التي أطلقت عليها النار. وحتى لو استطاعت الكلام فلن تخبرنا بشيء ذي قيمة... هذا غريب!

- ما هو؟

- أنت تتكلم عن كلام الموتى وفي نفس اللحظة فتحت هذه الرسالة.

ألقاها إلي، كانت من السيدة باكلي وفيها:

عزيزي السيد بوارو،

عند عودتي إلى هنا وجدت رسالة كتبتها ابنتي المسكينة

عند وصولها إلى سينت لو. أخشى أن لا يكون فيها ما يثير اهتمامك، لكني ظننت أنك ربما كنت مهتماً برؤيتها. أشكرك على لطفك.

المخلصة: جين باكلي

تأثرت كثيراً لدى رؤيتي الرسالة المرفقة، فقد كانت رسالة مألوفة جداً وعادية ولم يكن فيها ما يدل على إدراك صاحبتها لمأساة ستقع لها:

أمي العزيزة،

وصلت بالسلامة. كانت رحلة مريحة جداً، وكان معي شخصان فقط في العربة نفسها طول الطريق إلى إيكسيتر. الجو رائع هنا ومادج تبدو بصحة جيدة مرحة، وربما كانت قلقة قليلاً لكني لا أفهم لماذا أبرقت في طلبي بتلك الطريقة، فلو سافرت إليها يوم الثلاثاء بدل يوم الإثنين لما اختلف الأمر في شيء. لا مزيد عندي الآن، سنتناول الشاي مع بعض الجيران. إنهم عائلة أسترالية وقد استأجروا بيت الحراسة، وتقول مادج إنهم لطفاء رغم إزعاجهم. السيدة رايس والسيد لازاروس قادمان للإقامة، إنه تاجر اللوحات الفنية. سأضع هذه الرسالة في الصندوق القريب من البوابة حتى تذهب مع البريد العادي، سأكتب لك في الغد.

ابنتك المحبة: ماغي

ملاحظة: تقول مادج إن لبرقيتها سبباً، وستخبرني بعد موعد الشاي. إنها غريبة جداً وعصبية.

قال بوارو بهدوء: صوت الميت، وهو لا يقول لنا شيئاً.

قلت: الصندوق القريب من البوابة. إنه الصندوق الذي قال كروفت إنه وضع فيه الوصية.

- قال ذلك... نعم. أنا محتار، كم أنا محتار!

- ألا يوجد بين رسائلك أي شيء مهم آخر؟

- لا شيء يا هيستنغز! أنا حزين جداً ولا أعرف شيئاً، لا زلت في الظلام، لا أفهم أي شيء.

في تلك اللحظة رنّ جرس الهاتف، فذهب بوارو إليه، وعلى الفور رأيت ملامح وجهه قد تغيرت. كان يحاول كبح انفعالاته، ومع ذلك لم يستطع أن يخفي عن نظراتي انفعاله الشديد. كانت إجابته على الهاتف غامضة تماماً ولذلك لم أستطع معرفة موضوع المكالمة. وعلى الفور شكر محدثه وأعاد السماعة إلى مكانها وعاد إلى حيث كنت جالساً. كانت عيناه تشعّان بالانفعال وقال: يا صديقي، ماذا قلت؟ لقد بدأت الأشياء تحدث.

- وما هي؟

- كان السيد تشارلز فايس هو الذي يتحدث معي على الهاتف، وقد أبلغني أنه تلقى في هذا الصباح بواسطة البريد وصية وقعتها ابنة عمته الآنسة باكلي مؤرّخة في ٢٥ فبراير الماضي.

- ماذا؟ الوصية؟

- بالتأكيد.

- ظهرت؟

- في اللحظة المناسبة تماماً، أليس كذلك؟

- هل تعتقد أنه يقول الحقيقة؟

- أم هل أعتقد أنه كان يحتفظ بالوصية منذ البداية؟ أهذا ما كنت تريد أن تقوله؟ حسناً، الأمر كله غريب بعض الشيء، ولكن يوجد شيء واحد أكيد وقد قلته لك: إذا ساد الافتراض بأن الآنسة مادج ميتة فسوف تحدث تطورات... وها هي تحدث بالتأكيد.

- أمر غريب، كنتَ على حق. أعتقد أن هذه الوصية التي تجعل فريدريكا رايس الوريثة لبقية الإرث؟

- لم يقل السيد فايس أي شيء عن محتويات الوصية، كان أكثر دقة من أن يصرح بذلك. ولكن لا يبدو أن هناك سبباً وجيهاً للشك في أن هذه هي نفس الوصية، وقد أخبرني بأن الذين شهدوا عليها هما إيلين ويلسون وزوجها.

- إذن فقد عدنا إلى المشكلة القديمة، فريدريكا رايس.

- الإنسانة الغامضة!

قلت مبتعداً عن الموضوع: فريدريكا رايس، إنه اسم جميل؛ أجمل من الاسم الذي يدعوها به أصدقاؤها: فريدي.

قطب جبينه وقال: إنه ليس اسماً جميلاً لسيدة شابة.

قلت: لا توجد أسماء مختصرة كثيرة لاسم فريدريكا، فهو

ليس مثل «مارغريت» حيث توجد له نصف دستة من الأسماء المختصرة: ماغي، مارغورث، مارج، بيغي...

- هذا صحيح. حسناً يا هيستنغز، هل أنت الآن أكثر سعادة إذ بدأت الأمور تحدث؟

- نعم، بالطبع. قل لي، هل توقعت حدوث هذا الأمر؟

- لا، ليس تماماً؛ إذ إنني لم أضع في ذهني صيغة محددة لما سيحدث. كل ما قلته هو أنه إذا سلّمنا بنتيجة معينة فإن أسباب تلك النتيجة لا بد أن تتضح.

قلت باحترام: نعم.

- ما الذي كنت أريد قوله في اللحظة التي رنّ فيها جرس الهاتف؟ آه، نعم؛ الرسالة التي أرسلتها الآنسة ماغي. أردت أن ألقي عليها نظرة أخرى، فلديّ إحساس في أعماقي بأن فيها شيئاً أثار انتباهي كونه غريباً بعض الشيء.

أخذتها من حيث كنت ألقيتها وسلمتها له، فقرأها في نفسه ثانية. تجولت في أرجاء الغرفة وأطللت من النافذة لأنظر إلى القوارب وهي تتسابق في الخليج، وفجأة جفلت من صرخة تعجب. والتفتّ فرأيت بوارو ممسكاً برأسه في يديه ويهز نفسه يمنة وشمالاً وكأنه يعاني من نوبة ألم شديدة، ثم صاح متأوّهاً: آه، لقد كنت أعمى، أعمى!

- ما الأمر؟

- هل قلت إنها معقدة؟ معقدة؟ لا، إنها في منتهى البساطة، في منتهى البساطة. ولشد ما كنت شخصاً بائساً، لم أفهم أي شيء... أي شيء.

- يا إلهي، ما الذي عرفته فجأة يا بوارو؟

- انتظر، انتظر، لا تتكلم؛ عليّ أن أرتب أفكاري... أن أعيد ترتيبها في ضوء هذا الاكتشاف المذهل.

أمسك بقائمة الأسئلة التي كان قد كتبها وقرأها بصمت وشفتاه تتحركان، وهزّ رأسه مرة أو مرتين كأنه يؤكد أمراً ما، ثم وضع الورقة على الطاولة وأسند ظهره إلى الكرسي وأغمض عينيه. ظننت أخيراً أنه أخلد إلى النوم، وفجأة تنهد وفتح عينيه وقال: نعم، كل الأمور تأخذ مكانها الصحيح. كل الأشياء التي حيرتني، كل الأشياء التي بدت لي غريبة بعض الشيء... كلها تأخذ مكانها الآن.

- هل تقصد أنك عرفت كل شيء؟

- تقريباً كل شيء، كل ما هو ضروري. كنت محقاً في استنتاجاتي في بعض النواحي، وفي نواح أخرى كنت بعيداً عن الحقيقة إلى درجة مضحكة. ولكن الآن كل شيء واضح، سأبعث اليوم برقية أسأل فيها سؤالين... لكن الإجابة عليهما أعرفها أصلاً، أعرفها هنا.

ونقر على جبينه بإصبعه، فسألته بفضول: وعندما تتلقى الإجابات؟

قفز واقفاً وقال: يا صديقي، هل تذكر أن الآنسة مادج قالت إنها تريد تمثيل مسرحية في «البيت الأخير»؟ هذه الليلة ستمثل مسرحية في «البيت الأخير»، لكنها ستكون مسرحية يخرجها هيركيول بوارو، وسيكون للآنسة مادج دور تلعبه فيها.

ابتسم فجأة وقال: هل تفهم يا هيستنغز؟ سيكون في هذه المسرحية شبح، نعم، شبح. «البيت الأخير» لم يشهد شبحاً أبداً، ولكنه سيشهده هذه الليلة.

وفيما كنت أحاول أن أوجه إليه سؤالاً بادرني قائلاً: لا، لن أقول أكثر من ذلك. الليلة يا هيستنغز سوف نُخرج مسرحيتنا الكوميدية ونكشف الحقيقة. أما الآن فأمامنا الكثير من العمل... الكثير جداً.

ثم خرج من الغرفة مسرعاً.

* * *

الفصل التاسع عشر
بوارو يُخرج مسرحية

كان اجتماعاً غريباً ذلك الذي جرى في «البيت الأخير» في تلك الليلة. لم أكد أرى بوارو طوال ذلك اليوم، وقد خرج لتناول العشاء لكنه ترك لي رسالة يطلب مني فيها الحضور إلى البيت الأخير في الساعة التاسعة مساء قائلاً إن ثياب السهرة غير ضرورية.

عندما وصلت إلى هناك أشير إليّ بدخول غرفة الطعام، وعندما نظرت حولي أدركت أن كل شخص في قائمة بوارو كان حاضراً باستثناء «١٠»، إذ لم يكن ثمة شخص كهذا.

حتى السيدة كروفت كانت تجلس هناك على كرسي المقعدين، وابتسمت وأشارت إليّ برأسها وقالت بابتهاج: توجد مفاجأة، أليس كذلك؟ إن ذلك يغير نمط حياتي. أظن أنني يجب أن أحاول الخروج من منزلي من وقت لآخر. هذا كله فكرة السيد بوارو، تعال اجلس بجانبي يا كابتن هيستنغز، عندي إحساس بأن هذا عمل مخيفٌ ولكن السيد فايس أصر عليه.

- السيد فايس؟

وقف تشارلز قرب المدفأة وإلى جانبه بوارو يتحدث معه حديثاً خافتاً وحاداً، ونظرت حولي في الغرفة فرأيتهم جميعاً هناك، فبعد دخولي متأخراً دقيقة أو دقيقتين أخذت إيلين مكانها على كرسي قرب الباب، وعلى كرسي آخر كان زوجها يجلس منتصباً وعلامات الألم بادية عليه وكان يتنفس بصعوبة، أما الطفل الفريد فقد انحشر على مضض بين أبيه وأمه.

وجلس البقية حول طاولة الطعام؛ فريدريكا في ثوبها الأسود وإلى جانبها لازاروس، وجورج تشالنجر وكروفت على الطاولة مقابلها. جلست بعيداً عن الطاولة بعض الشيء قرب السيدة كروفت، وأومأ تشارلز فايس بإشارة نهائية من رأسه وأخذ مكانه عند رأس الطاولة وانسلّ بوارو بهدوء إلى مقعد بجانب لازاروس.

كان واضحاً أن المخرج (كما سمى بوارو نفسه) لم يكن يعتزم القيام بدور بارز في المسرحية، وبدا أن تشارلز فايس هو المسؤول عن مجريات اللقاء. وتساءلت عن المفاجآت التي يخبئها بوارو.

تنحنح المحامي الشاب ووقف على قدميه، وبدا كعادته رسمياً طبيعياً غير منفعل. قال: هذا اجتماع غير تقليدي نعقده هذه الليلة، ظروف انعقاده خاصة جداً. أقصد بالطبع الظروف التي تحيط بوفاة ابنة عمتي الآنسة باكلي. سوف تشرّح جثتها بالطبع، ويبدو أنه ما من شك في أن وفاتها حدثت بفعل السم وأن ذلك السم كان قد وُضع لها بنيّة القتل. إن هذا الأمر من شأن الشرطة ولذلك لا حاجة للخوض فيه، ولا شك أن الشرطة لا يريدوننا أن نخوض في هذا الأمر. في الحالات العادية تُقرَأ وصية المتوفى بعد

الجنازة، ولكن نزولاً عند رغبة السيد بوارو الخاصة أعتزم قراءتها قبل الجنازة. والواقع أنني أعتزم قراءتها الآن هنا، ولهذا طلبنا من الجميع الحضور هنا. وكما قلت الآن فإن الظروف غير عادية، وهي بذلك تبرّر الخروج عن المألوف في مثل هذه الأحوال. لقد وصلتني الوصية نفسها بطريقة غير عادية بعض الشيء، فرغم أنها مؤرَّخة في شهر شباط الماضي إلا أنها لم تصلني في البريد إلا صباح هذا اليوم. ومع ذلك فلا شك أنها بخط يد ابنة عمتي... ليس لديّ أي شك في هذه النقطة، ورغم أنها وثيقة بعيدة كلياً عن الأصول الرسمية إلا أنه شهد عليها شهود بطريقة صحيحة.

توقف وتنحنح مرة أخرى، وكانت العيون كلها مركزة عليه. أخرج من مغلف طويل كان يحمله ورقة، كانت -حسبما رأينا- ورقة عادية من أوراق الملاحظات وقد كتب عليها بعض العبارات.
قال فايس: إنها قصيرةٌ جداً.

سكت لفترة قصيرة ثم بدأ يقرأ:

> هذه هي الوصية الأخيرة الخاصة بماغدالا باكلي. آمر بأن تُدفَع جميع نفقات جنازتي وأعيّن ابن خالي السيد تشارلز فايس منفذاً لوصيتي. أترك كل شيء يكون بحوزتي عند وفاتي إلى ميلدريد كروفت اعترافاً مني بالخدمات التي قدمتها لوالدي فيليب باكلي، تلك الخدمات التي لا يمكن لشيء أن يفي حقها.
>
> توقيع: ماغدالا باكلي.
>
> شهود: إيلين ويلسون، ويليام ويلسون.

صعقتني الوصية، وأعتقد أن الجميع صُعقوا مثلي. وحدها السيدة كروفت أومأت برأسها بتفهم هادئ وقالت: هذا صحيح، رغم أنني لم أكن أعتزم أبداً البوح بذلك. كان فيليب باكلي في أستراليا ولولاي لما... حسناً، لا أريد الخوض في هذا. كان ذلك سراً ومن الأفضل أن يظل سراً، وقد عرفت هي بهذا الأمر بالرغم من كل شيء، أقصد مادج. لا بد أن والدها أخبرها. جئنا إلى هنا لأننا أردنا أن نرى هذا المكان، فقد كنت دائماً شديدة التوق لرؤية «البيت الأخير» الذي كان فيليب باكلي يتحدث عنه، وعرفت تلك الفتاة الغالية كل شيء عن الأمر ولم تستطع أن توفّي لنا حقنا. أرادت منا أن نأتي ونعيش معها ولكننا لم نوافق، ولذلك أصرّت على أن نأخذ الكوخ دون أن تأخذ منا فلساً واحداً أجرة له. وقد تظاهرنا طبعاً بدفع أجرته حتى لا تكثر الأقاويل من حولنا، لكنها كانت تعيد لنا الأجرة. و ها هي الآن تترك هذه الوصية. إنني أقول لمن يزعم أن الوفاء قد انقطع في هذه الدنيا: إنك مخطئ، وهذه الوصية تثبت ذلك.

ساد الصمت المذهل الغرفة. ونظر بوارو إلى فايس وقال: هل كنت تعرف شيئاً عن هذا الأمر؟

هز فايس رأسه وقال: أعرف أن فيليب باكلي ذهب إلى أستراليا، لكني لم أسمع أبداً أية إشاعات عن خدمة تلقّاها هناك.

نظر إلى السيدة كروفت متسائلاً فهزّت رأسها وقالت: لا، لن تأخذ مني كلمة واحدة؛ أنا لم أقل كلمة واحدة من قبل ولن أفعل، سيُدفَن السر معي في القبر.

لم يقل فايس شيئاً، بل جلس هادئاً ينقر على الطاولة بقلم

رصاص كان معه. ومال بوارو إلى الأمام وهو يقول: أظن أن بوسعك يا سيد فايس (وأنت أقرب أقرباء الآنسة) أن تطعن بصحة هذه الوصية. أليس كذلك؟ فكما فهمت توجد ثروة طائلة هي موضوع النزاع، الأمر الذي لم يكن وارداً عند كتابة الوصية.

نظر فايس إليه ببرود وقال: الوصية صحيحة تماماً، وما كنت لأطعن في الطريقة التي اختارتها ابنة عمتي لتوزيع إرثها.

قالت السيدة كروفت باستحسان: أنت رجل شريف، وسوف أهتم بأن لا أراك تخسر جراء شرفك.

شعر تشارلز بالحرج من هذه الملاحظة المحرجة بعض الشيء رغم سلامة القصد منها.

قال السيد كروفت بلهجة تغلب على نبرته: حسناً يا عزيزتي، هذه حقاً مفاجأة؛ فلم تقل مادج شيئاً عمّا كانت تفعله.

تمتمت السيدة كروفت وهي تضع منديلها على عينيها: يا لتلك الفتاة الغالية الرقيقة! ليتها تستطيع النظر من عليائها لترانا الآن، ربما هي ترانا... مَن يدري؟

وافقها بوارو قائلاً: ربما.

وفجأة بدا وكأن فكرة خرجت بباله، فنظر حوله وقال: يا لها من فكرة! كلنا نجلس هنا حول طاولة، دعونا نجعلها جلسة تحضير أرواح.

قالت السيدة كروفت وقد بدت مصدومة إلى حد ما: جلسة تحضير أرواح؟ ولكن المؤكد أن...

- نعم، نعم، سيكون الأمر مثيراً. هيستنغز ظهرت لديه قدرات على التوسط بغية الحصول على رسالة من العالم الآخر. (تساءلت لماذا يلبسني هذا الأمر). الفرصة فريدة، أشعر أن الظروف ملائمة. أنت تشعر بالشعور نفسه يا هيستنغز، أليس كذلك.

قلت من باب التمثيل: بلى. أعرف هذا. بسرعة، الأضواء.

وخلال دقيقة واحدة قام من كرسيه وأطفأها. كان كل شيء سريعاً بالنسبة للحضور بشكل لم يتح لهم مجالاً للاحتجاج إن كانوا يريدون الاحتجاج، والحقيقة أنهم كانوا مشدوهين بعد بأمر الوصية كما أظن. لم تكن الغرفة مظلمة تماماً، فقد كانت الستائر مفتوحة وكذلك النافذة حيث كانت ليلة حارة، ومن خلال تلك النافذة كان يأتي ضوء خافت. وبعد دقيقة أو دقيقتين وبينما كنا نجلس في صمت بدأت أتمكن من تمييز الخطوط العامة للأثاث من حولي، وتساءلت كثيراً عمّا كان ينبغي عليّ فعله وشتمت بوارو في نفسي لأنه لم يعطني أية تعليمات من قبل، إلا أنني أغمضت عينيّ وتنفست بطريقة غلب عليها الغطيط.

وسرعان ما نهض بوارو ومشى إليّ على أطراف أصابعه، ثم قال بعد أن عاد إلى مكانه: نعم، لقد دخل في الغشية وسرعان ما ستحدث أشياء.

إن في الجلوس في الظلمة والانتظار ما يملأ قلب المرء بالرهبة الفظيعة. أعرف أنني كنت فريسة للعصبية والوساوس، وأنا واثق أن الجميع كانوا كذلك. ومع ذلك كانت لديّ -على الأقل-

فكرة عمّا سيحدث، فقد كنت أعرف الحقيقة المهمة والوحيدة التي لا يعرفها أحد غيري.

ومع ذلك، وعلى الرغم من كل شيء، فقد بلغ قلبي الحنجرة وأنا أرى باب غرفة الطعام يفتح ببطء. فُتح الباب دون أدنى صوت (لا بد أنه كان مشحَّماً بشكل جيد)، وكان تأثير ذلك رهيباً جداً. انفتح ببطء ولدقيقة أو دقيقتين لم يحدث غير ذلك، ومع فتحه بدا وكأن نسمة باردة من الهواء دخلت الغرفة. أظن أن ذلك بسبب تيار الهواء القادم من الحديقة عبر النافذة المفتوحة، ولكن تلك النسمة بدت كرعشة البرد القارس التي تُذكَر في جميع قصص الأشباح التي قرأتها. وبعد ذلك رأينا المشهد جميعاً... كان خيالٌ أبيض يقف عند مدخل الباب، خيال مادج باكلي، وتقدمت ببطء دون أي صوت، وبحركة طافية أثيرية كانت توحي بالتأكيد بزائر ليس من بني البشر...

أدركت عندها أية ممثلة تلك التي فقدها العالم! كانت مادج تريد أن تؤدّي دوراً في مسرحية في «البيت الأخير»، وها هي تؤديه الآن. وأحسست بالقناعة بأنها كانت مستمتعة أشد استمتاع بذلك الدور... لقد أدته على وجه كامل.

دخلت هائمة إلى الغرفة... وكُسر حاجز الصمت؛ انطلقت صرخة لاهثة من كرسي المقعدين بجانبي وصوت بقبقة من السيد كروفت وشتيمة فزع من تشالنجر، وأظن أن تشارلز فايس سحب كرسيه إلى الوراء، أما لازاروس فمال إلى الأمام. وحدها فريدريكا التي لم تصدر صوتاً أو حركة. ثم دوّتْ صرخةٌ في أرجاء الغرفة؛

قفزت إيلين من مقعدها وقالت وهي تصرخ: إنها هي، لقد عادت. إنها تمشي! المقتولون يمشون دائماً. إنها هي، إنها هي!

ثم أُضيئت الأنوار بحركة واحدة، ورأيت بوارو يقف قريباً من المصابيح وتعلو وجهه ابتسامة مدير الحلبة. وقفت مادج في وسط الغرفة بثوبها الأبيض، وكانت فريدريكا أول من تكلمت. مدّت يدها غيرَ مصدّقة ولمست صديقتها قائلة: مادج، أأنت... أأنت حقيقة؟

بدت كلماتها أشبه بهمسة. وضحكت مادج وتقدمت إلى الأمام قائلة: نعم، أنا حقيقية. أشكرك كثيراً يا سيدة كروفت على ما فعلتِه لوالدي، ولكنني أخشى أن لا يكون الوقت قد حان لاستفادتك من تلك الوصية.

قالت السيدة كروفت لاهثة: آه، يا إلهي، يا إلهي!

تحركت بكرسيها جيئة وذهاباً وقالت: أخرجني من هنا يا بريت، خذني بعيداً. كان ذلك كله مزحة يا عزيزتي، كله مزحة.

قالت مادج: مزحة من نوع غريب.

كان الباب قد فُتح ثانية ودخل منه رجل بشكل هادئ إلى الحد الذي لم أسمع معه دخوله، ولشدة دهشتي رأيت أنه جاب. تبادل بوارو إيماءه بالرأس وكأنه أرضاه بشيء، ثم أشرق وجهه فجأة وتقدم خطوة إلى الأمام باتجاه المرأة المقعَدة التي كانت تتلوّى على كرسيها وقال: أهلاً، أهلاً. ما هذا؟ صديقة قديمة! أنت ثانية يا ميلي مارتن! ها قد عدتِ إلى حيلك القديمة يا عزيزتي.

ثم التفت إلى الحضور متجاهلاً الاحتجاجات الصاخبة من

السيدة كروفت وقال موضّحاً: إن ميلي مارتن أذكى مزوِّرة عرفتها. لقد علمنا أنه وقع حادث للسيارة التي كانوا يستقلونها في آخر محاولة هروب، ولكن انظروا إليها: حتى إصابات العمود الفقري لا تمنع ميري من ممارسة حيلها وألاعيبها. إنها فنانة!

قال فايس: هل كانت تلك الوصية مزيفة؟

كان يتكلم بلهجة المندهش، وقالت مادج بازدراء: إنها مزورة بالطبع. أتظن أنني كنت سأكتب وصية سخيفة كهذه؟ لقد تركت لك البيت يا تشارلز وتركت كل ما عداه لفريدريكا.

كانت تقف بجانب صديقتها، وفي تلك اللحظة بالضبط حدث الأمر! كتلة لهب صغيرة مرّت من الباب الزجاجي وأزيز رصاصة، ثم رصاصة أخرى وصوت أنين وسقوط جسد في الخارج... كانت فريدريكا تقف على قدميها والدم يسيل من ذراعها!

* * *

الفصل العشرون

رقم «١٠»

بدا كل شيء مفاجئاً بحيث لم يدرك أحدٌ ما الذي حدث، ثم ركض بوارو صارخاً نحو الباب الزجاجي ومعه تشالنجر، وبعد ذلك بلحظة عادا يحملان معهما جسداً مترهلاً لرجل. وعندما وضعاه بحذر على كرسي كبير من الجلد ورأى الجميع وجهه صرختُ قائلاً: الوجه... الوجه الذي وقف وراء النافذة!

كان ذلك هو الرجل الذي رأيته ينظر إلينا مساء اليوم السابق. عرفته على الفور وأدركت أنني كنت قد بالغت قليلاً -كما اتهمني بوارو- عندما وصفت الوجه بأنه لا يكاد يكون بشرياً. ومع ذلك كان في وجهه شيء يبرّر انطباعي عنه؛ كان وجهاً ضائعاً، وجه رجل خرج من عالم البشر العاديين.

كان وجهاً شاحباً ضعيفاً فاسداً، وبدا وكأنه مجرد قناع... وكأن روحه قد فرّت منه منذ زمن طويل، وعلى جانبه من أسفل كان الدم يقطر. تقدمت فريدريكا بخطوات بطيئة إلى أن وقفت بجانب الكرسي، واعترضها بوارو قائلاً: هل أصبت يا سيدتي؟

هزت رأسها بالنفي وقالت: كشطت الرصاصة كتفي، هذا كل ما في الأمر.

ثم نحّت بوارو جانباً برفق وانحنت فوق الجسد المترهل. فتح الرجل عينيه ورآها وهي تنظر إليه، وقال بصوت شرير مزمجر خفيض: أرجو أن أكون قد خدمتك هذه المرة؟

ثم تغير صوته فجأة إلى أن أصبح كصوت الطفل وهو يقول: آه، لم أقصد ذلك يا فريدي، لم أقصد ذلك. لقد كنتِ دوماً لطيفة معي...

قالت: لا بأس. ثم جثت على ركبتيها بجانبه.

- لم أقصد...

سقط رأسه ولم يكمل جملته أبداً، ورفعت فريدريكا رأسها تنظر إلى بوارو. قال بوارو بهدوء: نعم يا سيدتي، لقد مات.

وقفت ببطء وهي تنظر أسفل منها إليه، ثم لمست جبينه بيدها لمسة حنو وشفقة كما بدا، ثم تنهدت والتفتت إلينا وقالت بهدوء: لقد كان زوجي.

تمتمت أنا قائلاً: رقم «١٠».

سمع بوارو ملاحظتي وأومأ برأسه موافقاً، قال بهدوء: نعم، شعرت دائماً بوجود رقم «١٠». ألم اقل ذلك منذ البداية؟

قالت فريدريكا ثانية: كان زوجي.

كان صوتها مرهقاً جداً، وجلست على كرسي أحضره لها لازاروس ثم قالت: قد يكون من الأفضل أن أخبركم بكل شيء... الآن. لقد كان وضيعاً جداً ومدمن مخدرات، وهو الذي علمني على تعاطي المخدرات. ومنذ أن تركته وأنا أكافح هذه العادة، وأعتقد أنني أوشكت على الشفاء أخيراً. لكن ذلك صعب، آه! كان صعباً جداً. لا يعلم أحد مدى صعوبته. لم استطع أبداً التخلص منه، فقد كان يظهر فجأة أمامي ويطلب نقوداً... بالتهديدات، كان نوعاً من الابتزاز. كان يهدد بالانتحار إن لم أعطه مالاً، كان ذلك هو تهديده الدائم، ثم بدأ يهدد بقتلي. لم يكن مسؤولاً عن أفعاله بل كان مجنوناً، وأظن أنه هو الذي قتل ماغي باكلي. لم يكن ينوي قتلها بالطبع ولا بد أنه اعتقدها أنا. أظن أنه كان عليّ أن أقول ذلك في حينه، لكنني لم أكن متأكدة، بالإضافة إلى تلك الحوادث الغريبة التي تعرضت لها مادج... مما جعلني أشعر أنه ربما لم يكن هو القاتل في نهاية المطاف وأنه ربما كان القاتل شخصاً آخر مختلفاً. ثم ذات يوم رأيت خط يده على ورقة صغيرة ممزقة على طاولة السيد بوارو. كان جزءاً من رسالة بعثها إليّ، وعرفت وقتها أن السيد بواو وضع قدميه على الطريق الصحيح، ومنذ ذلك الحين شعرت أنها مسألة وقت فقط. ولكني لا أفهم موضوع الحلوى إذ لم يكن يرغب بقتل مادج. وعلى أية حال لا أفهم كيف يمكن أن تكون له علاقة بذلك. لقد احترت واحترت.

وضعت كلتا يديها على وجهها ثم أبعدتهما وقالت بصوت غريب خاتِمةً قصتها: هذا كل ما عندي.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

رقم «١١»

أسرع لازاروس إلى جانبها وهو يقول: يا عزيزتي، يا عزيزتي!

واتجه بوارو إلى الطاولة فصبّ لها كوب ماء، ثم ذهب إليها وظل واقفاً فوقها وهي تشرب. أعادت الكوب إليه وابتسمت وقالت: أنا بخير الآن. ما، ما الذي يفضّل أن نفعله الآن؟

ونظرت إلى جاب، لكن المفتش هز رأسه وقال: أنا في إجازة يا سيدة رايس، لقد جئت إلى هنا لمجرد خدمة صديق قديم، هذا كل ما أفعله. إن شرطة سينت لو هم الذين يتولون هذه القضية.

نظرت إلى بوارو وقالت: والسيد بوارو هو المسؤول عن شرطة سينت لو، أليس كذلك؟

أجابها بوارو قائلاً: آه، يا لهذه الفكرة يا سيدتي! أنا لست سوى مستشار متواضع.

قالت مادج: يا سيد بوارو، ألا تستطيع طيّ الموضوع؟

- هل هذه رغبتك يا آنسة؟

- نعم، فأنا الشخص المعني أكثر من غيره في نهاية المطاف، ولن تحدث اعتداءات أخرى عليّ بعد الآن.

- نعم، هذا صحيح؛ لن يحدث أي اعتداء عليك بعد الآن.

- أنت تفكر في ماغي، ولكن لا شيء سيعيد ماغي إلى الحياة يا سيد بوارو. إذا أعلنت كل هذا على الملأ فليس من شأن ذلك إلا التسبب في معاناة رهيبة وتشهير بفريدريكا... وهي لا تستحق ذلك.

- هل تقولين إنها لا تستحق ذلك؟

- بالطبع لا تستحقه؛ لقد قلت لك من البداية إن زوجها كان رجلاً قاسياً متوحشاً، وقد رأيت طبيعته الليلة. حسناً، لقد مات الآن، فلتكن هذا نهاية الأمور. لنترك الشرطة يبحثون عن الرجل الذي قتل ماغي، فإنهم -ببساطة- لن يجدوه وينتهي الأمر.

- إذن فهذا هو رأيك يا آنسة؟ أن نطوي الموضوع.

- نعم، أرجوك، أرجوك يا سيدي العزيز بوارو.

نظر بوارو ببطء حوله وقال: ماذا تقولون جميعاً؟

تكلم كل واحد بدوره. قلت عندما نظر بوارو إلي: أوافق.

قال لازاروس: وأنا أيضاً.

قال تشالنجر: أفضل شيء نعمله.

قال كروفت بإصرار: دعونا ننسى كل ما حدث في هذه الغرفة الليلة.

تدخل جاب قائلاً: طبيعي أن تقول ذلك.

قالت السيدة كروفت تخاطب مادج: لا تقسي عليّ يا عزيزتي.

ولكن مادج اكتفت بالنظر إليها بازدراء.

- وماذا عن إيلين؟

- أنا وويليام لن نقول شيئاً يا سيدي، فزلّة اللسان يصعب إصلاحها.

- وأنت يا سيد فايس؟

- إن شيئاً كهذا لا يمكن طيّه والسكوت عليه؛ لا بد من إظهار الحقائق بالطرق الصحيحة.

صاحت مادج: تشارلز!

- أنا آسف يا عزيزتي، لقد نظرت إلى الموضوع من الجانب القانوني.

ضحك بوارو فجأة وقال: أنتم سبعة مقابل واحد إذن؟ وجاب الطبيب المحايد.

قال جاب مبتسماً: أنا في إجازة، أنا غير محسوب عليكم.

- سبعة إلى واحد. وحده السيد فايس الذي شذّ، وقف إلى

جانب القانون والنظام! أتعرف يا سيد فايس؟ إنك رجل ذو شخصية وموقف.

هز فايس كتفيه وقال: الموقف واضح تماماً، هنا شيء واحد فقط يمكن عمله.

قال بوارو: نعم، أنت رجل شريف. حسناً، أنا أيضاً أضمّ نفسي إلى جانب الأقلية؛ أنا الآخر أريد الحقيقة.

صاحت مادج: سيد بوارو!

- يا آنسة، أنت التي ورطتني في هذه القضية؛ لقد وافقت على ذلك بناء على رغبتك، ولكنك لا تستطيعين إسكاتي الآن.

ثم رفع سبابته بإشارة تهديد أعرفها جيداً وقال: اجلسوا جميعاً، سوف أخبركم بالحقيقة.

جلسنا جميعاً وقد صمتنا لأمره وصرنا ننظر إليه بإصغاء، قال: اسمعوا، لديّ قائمة هنا بأسماء الأشخاص المرتبطين بالجريمة، وقد رقمتهم حتى الرقم «١٠». «١٠» هو رمز الشخص المجهول، شخص مرتبط بالجريمة بواسطة واحد من الأشخاص الآخرين. لم أعرف من يكون الرقم «١٠» هذا حتى هذه الليلة، لكني كنت أعرف وجود مثل هذا الشخص، وأثبتت أحداث هذه الليلة أنني كنت على صواب. ولكني بالأمس أدركت فجأة أنني ارتكبت خطأ كبيراً؛ فقد استبعدت شخصاً آخر، ولذلك أضفت شخصاً جديداً رمزت له بالحرف «ك».

سأله فايس بشيء من السخرية: شخص مجهول آخر؟

- ليس تماماً. لقد وضعت الحرف «ك» رمزاً لشخص ما، ولو كان هناك مجهول آخر لكنت وضعت له الرقم «١١» فقط. أما «ك» فله مغزى مختلف؛ إنه يرمز إلى شخص كان يجب وضعه في القائمة الأصلية ولكني أغفلته.

ثم انحنى لفريدريكا وقال: اطمئني يا سيدتي؛ فزوجك لم يكن مذنباً بتهمة القتل. الشخص «١١» هو الذي قتل الآنسة ماغي.

حدّقَتْ إليه وقالت: ولكن من يكون «ك» هذا؟

أومأ بوارو برأسه إلى جاب الذي تقدم إلى الأمام وتكلم بعبارات ذكّرتني بالأيام التي كان يدلي فيها بشهادته في محاكم الشرطة. قال: بناء على المعلومات التي تلقيتها أخذت لي موضعاً هنا في وقت مبكر من المساء بعد أن أدخلني السيد بوارو إلى البيت سراً، وقد اختبأت خلف الستائر في غرفة الاستقبال، وعندما اجتمع الجميع في هذه الغرفة دخلت سيدة شابة غرفة الاستقبال وأشعلت النور، ثم ذهبت إلى الموقد وفتحت مخبأ صغيراً في جداره الداخلي بدا وكأنه مغطى بلوح يعمل بنابض وأخرجت من المخبأ مسدساً، ثم تركت الغرفة وهي تحمل هذا المسدس بيدها فتبعتها، وعندما فتحت الباب فتحة صغيرة تمكنت من رؤية أفعالها. لقد ترك الزوّار معاطفهم في الصالة عند وصولهم، وقد مسحت السيدة الشابة المسدس بمنديل بحذر شديد ثم وضعته في جيب معطف رمادي اللون يخص السيدة رايس.

صدرت من مادج صرخة مدوية: هذا غير صحيح، كله غير صحيح!

أشار بوارو إليها بيده وقال: هاكم، الشخص «ك». الآنسة مادج هي التي قتلت ابنة عمها ماغي باكلي!

صاحت مادج: هل أنت مجنون؟ ولماذا أقتل ماغي؟

- لكي ترثي الأموال التي تركها لها مايكل ستين. إن اسمها أيضاً هو ماغدالا باكلي، وهي التي كانت خطيبته وليس أنت.

- أنت، أنت...

وقفت هناك ترتعش لا تستطيع الكلام، والتفت بوارو إلى جاب فقال: هل خابرت الشرطة؟

- نعم، إنهم ينتظرون في الصالة الآن ومعهم إذن الاعتقال.

صاحت مادج بازدراء: كلكم مجانين.

تحركت بخفة صوب فريدريكا وقالت: فريدي، أعطني ساعتك على سبيل... على سبيل الذكرى.

خلعت فريدريكا ساعتها المرصعة بالجواهر ببطء وأعطتها لمادج التي قالت: أشكرك، والآن... أظن أن علينا أن ننتهي من هذه المسرحية السخيفة تماماً.

- المسرحية التي خططتِ أنت لها وأخرجتِها في «البيت الأخير»... نعم، ولكن ما كان عليك أن تعطي هيركيول بوارو دور البطل. كانت تلك غلطتك يا آنسة، غلطتك الفادحة جداً.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

نهاية القصة

- هل تريدون مني توضيح ما حدث؟

نظر بوارو حوله بابتسامة الزهو والفخر الذي أعرفه فيه جيداً. كنا قد انتقلنا إلى غرفة الاستقبال وقلّ عددنا، فقد انسحب الخدم بأسلوب لبق وطُلب من السيد كروفت وزوجته مرافقة الشرطة، وبقينا في الغرفة أنا وفريدريكا ولازاروس وتشالنجر وفايس. قال بوارو: حسناً، أعترف بأنني كنت فعلاً مغفلاً، مغفلاً تماماً. مادج الصغيرة استطاعت أن تفعل بي ما تشاء. آه، عندما قلت -يا سيدتي- إن صديقتك كذابة ذكية... كم كنتِ على صواب!

قالت فريدريكا بهدوء: كانت مادج تكذب دائماً، وهذا ما جعلني لا أصدّق ما قالته عن نجاتها من الموت بأعجوبة لأكثر من مرة.

- وأنا صدقتها... كم كنت مغفلاً!

سألته: ألم تقع لها تلك الحوادث حقاً؟

أعترف أنني كنت مشوشاً حائراً حتى تلك اللحظة. أجابني بوارو قائلاً: لقد تم تلفيق تلك الحوادث بشكل ذكي جداً... لتوحي لنا بالانطباع الذي أوحته تماماً.

- وما هو؟

- لقد أعطتنا انطباعاً بأن حياة الآنسة مادج في خطر. لكني سأبدأ من وقت قبل ذلك، سأخبرك بالقصة كما استجمعت فصولها لاحقاً... وليس كما تكشف لي بشكل ناقص وعبر لمحات متفرقة. في بداية هذه القضية كانت أمامنا هذه الفتاة، مادج باكلي، فتاة شابة جميلة مستهترة تحب بيتها حباً جنونياً...

أومأ تشارلز فايس برأسه وقال: لقد أخبرتك بذلك.

- وقد كنتَ على حق. لقد أحبت الآنسة مادج «البيت الأخير» لكنها لم تكن تملك مالاً وكان البيت مرهوناً. وقد احتاجت مالاً... واحتاجته بشكل محموم، ولم يكن باستطاعتها الحصول عليه. ثم قابلت ذلك الشاب ستين في لوتوكيه وانجذب إليها، وهي تعرف أنه وريث عمه دون شك وأن عمه يمتلك الملايين. حسناً، كان نجمها إذن في تصاعد كما ظنّت، لكنه لم ينجذب إليها بشكل جاد إذ لم يرَ فيها إلا صحبة ممتعة لا أكثر، ثم تقابلا في سكاربورو وأخذها معه في طائرته. ثم وقعت الكارثة... التقى بماغي ووقع في حبها من أول نظرة.

صُعقت الآنسة مادج مما حدث؛ ابنة عمها ماغي التي لم ترَ فيها أبداً فتاة جميلة! لكنها كانت في نظر الشاب ستين «مختلفة»، بل كانت الفتاة الوحيدة في العالم بالنسبة له. وأصبحا مخطوبين

سراً، شخص واحد فقط كان يعرف ذلك إذ لم يكن من معرفته بد، ذلك الشخص هو الآنسة مادج. وكانت المسكينة ماغي سعيدة لوجود شخص يمكنها أن تتحدث إليه، ولا شك أنها كانت تقرأ لابنة عمها أجزاء من رسائل خطيبها، وهكذا علمت مادج بموضوع الوصية. ولم تلتفت إلى ذلك الأمر في ذلك الحين، لكنه ظل في ذهنها. ثم جاءت الوفاة الفجائية وغير المتوقعة للسر ماثيو ستين، وتبع ذلك سريعاً الإشاعات عن فقدان مايك ستين، وهنا خطرت لفتاتنا الشابة فوراً خطة فظيعة؛ إذ إن ستين لم يكن يعلم أن اسمها «ماغدالا» هي أيضاً. كان يعرفها باسمها المتداول (وهو مادج)، وكان واضحاً أن وصيته لم تكن رسمية أبداً، مجرد ذكر للاسم. ولكن ستين كان في عيون العالم صديقها، إذ اقترن اسمه بها هي... ولو زعمت أنها كانت مخطوبة له فلن يفاجأ أحد. ولكن حتى تنجح في ذلك فلا بد من إزاحة ماغي عن الطريق.

الوقت قصير. رتّبت مسألة مجيء ماغي والبقاء معها بضعة أيام، ثم رتبت موضوع نجاتها من الموت عدة مرات... اللوحة المعلقة التي قطعت هي سلكها، وكوابح السيارة التي عبثت بها. أما الصخرة فربما كان تدهورها طبيعياً واكتفت هي باختراع وجودها تحتها على الطريق.

ثم... رأت اسمي في الصحيفة (قلت لك -يا هيستنغز- إن الجميع يعرفون هيركيول بوارو)، وقد جعلت مني متواطئاً معها في الجريمة! الرصاصة التي اخترقت قبعتها والتي سقطت عند قدمي... آه، الكوميديا الجميلة. وقد خدعتني! صدّقت الخطر الذي كان يحدق بها. حسناً، لقد حصلت على شاهد ذي شأن إلى جانبها،

وقد جعلتني أتصرف بما فيه خدمة لمصالحها إذ طلبتُ منها أن تحضر صديقة لها.

انتهزت الفرصة وأرسلت في طلب ماغي لتأتي قبل الموعد بيوم واحد. كم هي سهلة الجريمة فعلاً! تركتنا على طاولة العشاء، وبعد أن سمعت في المذياع أن وفاة ستين قد تأكدت بدأت في تنفيذ خطتها. كان لديها آنذاك وقت كافٍ لتأخذ رسائل ستين المرسَلة إلى ماغي وتتفحصها وتختار عدداً قليلاً يلبّي هدفها، ثم تضع تلك الرسائل في غرفتها. ثم غادرت لاحقاً -هي وماغي- عرضَ الألعاب النارية وعادت إلى البيت وطلبت من ابنة عمها أن ترتدي وشاحها، ثم تسللت خلفها وأطلقت عليها النار، ثم أسرعت إلى داخل البيت وخبأت المسدس في المخبأ السري وراء لوح الخشب (الذي كانت تظن أن أحداً لا يعلم بوجوده). بعد ذلك صعدت إلى الطابق العلوي، وهناك اختبأت إلى أن سمعت الأصوات عند اكتشاف الجثة. وكانت تلك إشارة الانطلاق لها للبدء بتمثيل دورها؛ فاندفعت مسرعةً من غرفتها وخرجت من الباب الزجاجي.

كم كان أداؤها الدورَ رائعاً! أداء مميز، آه، نعم؛ لقد مثلت تمثيلية رائعة هنا. لقد قالت الخادمة إيلين إن هذا البيت بيت شر وأنا أميل إلى الاتفاق معها، فقد كان هذا البيت هو مصدر إلهام الآنسة مادج.

قالت فريدريكا: ولكن الحلوى المسمومة تلك... ما زلت لا أفهم عن أمرها شيئاً.

- كان ذلك كله جزءاً من المخطط نفسه. ألا ترين أنه إذا

اعتُدي على حياة مادج بعد وفاة ماغي فإن من شأن ذلك أن يحسم نهائياً قضية وفاة ماغي باعتبارها وفاة تمت بالخطأ؟ عندما رأت أن الوقت قد حان اتصلت بالسيدة رايس وطلبت منها أن تحضر لها علبة شُكلاتة.

- إذن فقد كان حقاً صوتها؟

- نعم، لكي يكون التفسير البسيط هو الصحيح، أليس كذلك؟ لقد تعمّدت جعل صوتها يختلف قليلاً... هذا كل ما في الأمر حتى تكوني في شك عند سؤالك عن صاحب الصوت. ثم عندما تصل العلبة يكون الأمر بسيطاً جداً أيضاً؛ ملأت ثلاث حبات من الشّكلاتة بالكوكايين، وكانت تحمله معها وتخفيه بذكاء. ثم أكلت واحدة منها فوقعت مريضة... ولكنه لم يكن مرضاً شديداً؛ فهي تعرف جيداً مقدار الكوكايين الذي يمكنها تناوله وما هي الأعراض التي يمكن المبالغة فيها. ثم يأتي موضوع البطاقة... بطاقتي. آه، يا لأعصابها القوية! كانت بطاقتي فعلاً، التي أرسلتها مع الورود. مسألة بسيطة، أليس كذلك؟ بلى، ولكن كان عليها أن تفكر فيها.

سكت بوارو قليلاً فسألته فريدريكا: ولماذا وضعت المسدس في جيب معطفي؟

- ظننت أنك ستسألينني هذا السؤال ياسيدتي، فهو سؤال لا بد أن يخطر ببالك. قولي لي: هل فكرت يوماً بأن الآنسة مادج لم تعد تحبك؟ هل شعرت يوماً بأنها ربما... كانت تكرهك؟

ردت فريدريكا بتمهل: من الصعب الجزم؛ لقد عشنا حياة نفاق، ولكنها كانت تحبني فيما مضى.

- قال لي يا سيد لازاروس، فالوقت ليس وقت تواضع زائف... هل كان بينك وبين مادج أي شيء؟

هزّ لازاروس رأسه نافياً وقال: لا، لقد انجذبت إليها يوماً ما ثم (لا أدري لماذا) ابتعدت عنها.

قال بوارو وهو يومئ برأسه بحكمة العاقل: آه، كانت تلك مأساتها. كانت تجذب الناس ثم يبتعدون عنها! وبدلاً من أن يزداد حبك أكثر فأكثر وقعت في حب صديقتها، ولذلك بدأت هي تكره السيدة... السيدة التي لها صديق ثري يقف وراءها. في الشتاء الماضي عندما كتبت وصية كانت تحب السيد رايس، وبعد ذلك اختلف الأمر. وتذكرت تلك الوصية، لم تكن تعلم أن كروفت قد أخفاها وأنها لم تصل إلى وجهتها، إذن فقد كان لدى السيدة رايس دافع للرغبة في موتها (أو هكذا سيقول الناس)، ولذلك فقد هاتفت السيدة رايس وطلبت منها إحضار تلك العلبة لها، والليلة كان يُفترض أن تُقرأ الوصية على الجميع ويُذكَر اسم السيدة رايس على أنها وريثتها، ثم سيعثر على المسدس في معطفها... المسدس الذي قُتلت به ماغي باكلي. وإذا ما وجدته السيدة رايس فإنها ستجرّم نفسها وهي تحاول التخلص منه.

قالت فريدريكا: لا بد أنها كانت تكرهني.

- نعم يا سيدتي؛ كنت تملكين ما لم تكن تملكه، موهبة الفوز بالحب والحفاظ عليه.

قال تشالنجر: إنني مغفل بعض الشيء ولم أفهم جيداً موضوع الوصية.

- صحيح؟ هذه مسألة مختلفة تماماً وبسيطة جداً، فكروفت وزوجته متخفيان هنا في هذا المكان، وقد اضطرت الآنسة مادج لإجراء عملية. لم تكن قد كتبت وصية، وقد رأى كروفت وزوجته في ذلك فرصة إقناعها بأن تكتب وصية وأن يتوليا هما إرسالها بالبريد، ثم إذا ما حدث لها أي شيء... إن ماتت... فسوف يُخرجان وصية مزوّرة بشكل ذكي تكون فيها السيدة كروفت وريثةَ أموالها مع إشارة إلى أستراليا وإلى فيليب باكلي الذي يعرفان أنه زار ذلك البلد. لكن الآنسة مادج أزالت زائدتها الدودية في عملية ناجحة ولذلك لم تنفع الوصية المزورة... أقصد في تلك اللحظة. ثم بدأت محاولات الاعتداء على حياتها فعاد الأمل إلى كروفت وزوجته من جديد. وأخيراً أعلنت أنا وفاتها، وكانت الفرصة أعظم من أن تفوّت، فأرسلت الوصية المزورة إلى السيد فايس على الفور. وقد كانا يعتقدان أنها أكثر غنى مما هي عليه بالطبع، ولم يعرفا أي شيء عن رهن البيت.

قال لازاروس: ما أريد حقاً معرفته -يا سيد بوارو- هو كيف عرفتَ بكل هذا؟ متى بدأت تشك؟

- آه، من هذه الناحية أشعر الخزي. لقد تأخرت كثيراً...كثيراً. كانت هناك أشياء أقلقتني، نعم، أشياء بدت غير طبيعية: الاختلاف بين ما قالته الآنسة مادج وما قاله الناس مثلاً، ولسوء الحظ كنت دائماً أصدق الآنسة مادج. ثم فجأة جاءتني لحظة من التجلّي؛ لقد وقعت الآنسة مادج في خطأ واحد... كانت ذكية جداً، فعندما شجّعتها على استدعاء صديقة لها وعدَتْ بذلك وأخفت حقيقة أنها قد أرسلت بالفعل في طلب الآنسة ماغي قبل ذلك. بدا لها هذا أقل

إثارة للريبة، لكنها كانت غلطة لأن ماغي باكلي كتبت رسالة إلى أهلها حال وصولها واستخدمت فيها عبارة بريئة حيرتني: "لا أفهم لماذا أبرقت في طلبي بتلك الطريقة، فلو سافرت إليها يوم الثلاثاء بدل الإثنين لما اختلف الأمر في شيء".

– ماذا يعني ذكرها يومَ الثلاثاء؟ إنه يعني شيئاً واحداً فقط؛ كانت ماغي ستأتي يوم الثلاثاء على كل الأحوال، ولكن مادج كذبت في تلك المسألة... أو أنها أخفت الحقيقة على الأقل. ولأول مرة بدأت أنظر إليها من زاوية مختلفة، وقمت بنقد وتفحص أقوالها، وبدلاً من تصديقها قلت: "افترض أن هذه ليست صحيحة". تذكرت الاختلاف في الأقوال وقلت لنفسي: "كيف يكون الأمر لو كانت الآنسة مادج في كل مرة هي التي تكذب وليس الآخرون؟"، ثم إن الذي حدث حقاً هو مقتل ماغي باكلي، مقتلها فقط. ولكن مَن هذا الذي يريد قتل ماغي باكلي؟

ثم فكرت في شيء آخر، فكرت بملاحظة بسيطة كان هيستنغز قد قالها قبل ذلك بخمس دقائق فقط، إذ قال إنه توجد الكثير من الاختصارات لاسم مارغريت: ماغي، مارغوت، إلخ. وخطر لي فجأة أن أتساءل: ما هو الاسم الحقيقي للآنسة ماغي؟ ثم عرفت ذلك فجأة! قلت في نفسي: لنفترض أن اسمها هو ماغدالا. إنه اسم شائع في عائلة باكلي، وهو ما أخبرتني به الآنسة مادج. اثنتان تحملان اسم ماغدالا باكلي. افترض أن...

واسترجعت في ذهني رسائل مايكل ستين التي قرأتها. نعم، لا شيء مستحيل. كان فيها ذكر لسكاربورو ولكن ماغي كانت

في سكاربورو مع مادج، أمها أخبرتني بذلك. وقد فسّر لي ذلك شيئاً واحداً كان يحيرني: لماذا لم يكن هناك إلا القدر القليل من الرسائل؟ إن كانت الفتاة تحتفظ بها كلها فلماذا عددها قليل؟ هل فيها شيء غريب؟ وتذكرت أنه لم يذكر فيها أي اسم. كلها كانت تبدأ بداية مختلفة ولكنها كانت تبدأ بعبارات الحب، لم يكن فيها أي ذكر لاسم مادج. وكان هناك شيء آخر يجب أن ألحظه على الفور... لأنه يفقأ العين وينادي بالحقيقة.

– وما هو؟

– إنه ما يلي: لقد أجرت مادج عملية جراحية لإزالة الزائدة الدودية في السابع والعشرين من شهر شباط (فبراير) الماضي. وتوجد رسالة من مايكل ستين مؤرخة في الثاني من آذار (مارس)، ولم يرد فيها أي ذكر للقلق أو المرض أو أي شيء غير معتاد. كان يجب أن يوضح لي ذلك أن الرسائل قد كُتبت لفتاة أخرى غيرها تماماً. ثم استرجعت في ذهني قائمة من الأسئلة كنت قد أعددتها وأجبت عليها على ضوء فكرتي الجديدة، وكانت النتيجة في جميع الأسئلة (باستثناء بعض الأسئلة المعزولة) بسيطة مقنعة. كما أجبت على سؤال آخر كنت قد سألته لنفسي قبل ذلك: لماذا اشترت الآنسة مادج ثوباً أسود؟ كانت الإجابة هي أنها وابنة عمها لا بد أن تتشابها في اللباس مع وشاح قرمزي كلمسة إضافية مميزة، كانت تلك هي الإجابة الصحيحة المقنعة وليس الأخرى، فما كانت فتاةٌ لتشتري ثوب حدادها قبل أن تعرف بوفاة محبوبها؛ سيكون ذلك تصرفاً غير حقيقي منها... وغير طبيعي. وهكذا قمت أنا -بدوري- بأداء تمثيلية صغيرة، وقد حدث ما كنت أتمنى حدوثه. كانت مادج باكلي شديدة

جداً في إنكارها لموضوع المخبأ السري وأعلنت عن عدم وجود هذا الشيء، ولكن إن كان مثل ذلك المخبأ موجوداً (ولم أرَ سبباً يدعو إيلين إلى اختراع ذلك الموضوع) فلا بد أن تعرف مادج عنه. لماذا كانت شديدة الإنكار؟ أيمكن أن تكون قد خبّأت المسدس فيه مع نية في نفسها لاستخدامه من أجل إلقاء الشبهة على شخص آخر فيما بعد؟

تركتها تفهم أن المظاهر الخارجية تدين السيدة رايس كثيراً، وكان ذلك كما خطَطَتْ هي له. وقد حدث ما تنبأتُ به؛ إذ لم تكن قادرة على مقاومة إغراء تقديم الدليل الدافع الآخر ضد صديقتها. بالإضافة إلى أن ذلك أكثر أماناً بالنسبة لها، إذ ربما استطاعت إيلين العثور على ذلك المخبأ السري وبداخله المسدس. كنا نجتمع كلنا هنا بما يمنحها الزمان وهي تنتظر في الخارج إشارة البدء لدورها، وظنت أنها في وضع آمن مطلق تستطيع معه أخذ المسدس من مخبئه ووضعه في معطف السيدة رايس... وهكذا فشلت أخيراً.

ارتعدت فريدريكا وقالت: على أية حال أنا سعيدة لأنني أعطيتها ساعتي.

- نعم يا سيدتي.

رفعت بصرها إليه بسرعة وقالت: وهل تعرف عن ذلك أيضاً؟

تدخلتُ سائلاً: ماذا عن إيلين؟ هل كانت تعرف أو تشكّ في شيء؟

- لا، لقد سألتها. أخبرتني أنها قررت أن تبقى في البيت تلك الليلة لأنها ظنت -كما قالت- «أن شيئاً سيحدث». من الواضح أن مادج ألحّت عليها أن تخرج لرؤية الألعاب النارية بأسلوب تسلّطي أثار ارتيابها، وكانت قد سبرت غور الكراهية التي تكنّها مادج للسيدة رايس. قالت إنها أحست في داخلها أن شيئاً سيحدث ولكنها ظنّت أنه سيحدث للسيدة رايس، وقالت إنها كانت تعرف مزاج الآنسة مادج وأنها فتاة غريبة الأطوار.

تمتمت فريدريكا: نعم، نعم. دعونا ننظر إليها على هذا النحو: فتاة غريبة الأطوار. فتاة غريبة الأطوار لم تستطع تمالك نفسها... أنا سأنظر إليها هكذا على كل حال.

تململ تشارلز فايس في جلسته بهدوء وقال: ستكون مهمتي كريهة جداً؛ أظن أن عليّ الدفاع عنها في المحكمة.

قال بوارو بهدوء: لن تنشأ حاجة لذلك إن كنتُ مصيباً في افتراضاتي.

ثم التفتَ إلى تشالنجر فجأة وقال: لقد وضعتَ المادة هناك، أليس كذلك؟ في تلك الساعات؟

ردّ البحار متلعثماً وهو لا يدري ما يقول: أنا، أنا...

- لا تحاول خداعي بمظهر الرجل الشريف الطيب، لقد خدعت به هيستنغز لكنك لن تخدعني. إنك تربح من ذلك كثيراً... من تهريب المخدرات... أنت وعمك في شارع هارلي.

وقف تشالنجر وقال: سيد بوارو!

نظر صديقي إليه بعينين لامباليتين وقال: أنت الصديق المفيد. يمكنك أن تنكر ذلك إن شئت، ولكني أنصحك بأن تذهب إن كنت لا تريد وضع الحقائق أمام الشرطة.

ولشدة دهشتي خرج تشالنجر بالفعل؛ خرج من الغرفة كلمح البرق، وحدقت إليه فاغراً فمي من الدهشة. ضحك بوارو وقال: لقد أخبرتك بذلك يا صديقي؛ غرائزك دائماً على خطأ. إنك مدهش!

بدأت القول: كان الكوكايين في الساعة...

- نعم، نعم. وبهذه الطريقة حملته الآنسة مادج معها إلى دار الرعاية. ولأنها استهلكت كل ما لديها في علبة الشكلاتة فقد طلبت من السيدة رايس ساعتها المليئة بالكوكايين.

- هل تعتقد بأنها لا تستطيع الحياة بدونه؟

- لا، لا. الآنسة مادج ليست مدمنة، أحياناً كانت تأخذه للتسلية فقط ولكنها احتاجته هذه الليلة لغرض مختلف؛ ستكون جريمة كاملة هذه المرة.

قلت لاهثاً: هل تقصد...؟

- إنه أفضل طريق... أفضل من حبل المشنقة. ولكن صه! يجب أن لا نقول هذا أمام السيد فايس الذي يعمل من أجل القانون والنظام. من الناحية الرسمية أنا لا أعرف أي شيء، محتوى ساعة المعصم مجرد حدس من طرفي.

قالت فريدريكا: حدسك صحيح دائماً يا سيد بوارو.

قال تشارلز فايس وعلامة استياء باردة قد بدت عليه وهو يغادر الغرفة: لا بد أن أذهب.

نقل بوارو بصره بين فريدريكا ولازاروس ثم قال: هل ستتزوجان؟

- في أسرع وقت ممكن.

قالت فريدريكا: في الواقع أنا لست مدمنة المخدرات التي تظنها يا سيد بوارو؛ لقد قلّلتُ الكمية التي أتعاطاها إلى جرعة صغيرة جداً. وأظن الآن، والسعادة أمامي، أنني لم أعد أحتاج إلى ساعة يد.

قال بوارو بلطف: أتمنى لك السعادة يا سيدتي. لقد عانيتِ كثيراً، وعلى الرغم من كل ما عانيته إلا أنك ما زلت تمتلكين في قلبك الرحمة.

قال لازاروس: سأعتني بها. إن عملي في حالة سيئة لكني أظن أنني سأنجح، وإذا لم أنجح... فلن تهتم فريدريكا بالفقر معي.

هزت رأسها وهي تبتسم. وقال بوار وهو ينظر إلى الساعة على الجدار: لقد بات الوقت متأخراً الآن.

نهضنا جميعاً، وأكمل بوارو يقول: لقد قضينا ليلة غريبة في هذا البيت الغريب. أظن أنه كما قالت إيلين: بيت شر.

رفع بصره إلى صورة السير نيكولاس العجوز، ثم سحب لازاروس جانباً بحركة مفاجئة وقال له: أرجو معذرتك، ولكن من

بين كل أسئلتي بقي سؤال واحد بلا إجابة. قل لي: لماذا عرضتَ خمسين جنيهاً مقابل تلك الصورة؟ سأكون سعيداً لو عرفت... حتى لا يبقى في ذهني سؤال بلا إجابة.

نظر لازاروس إليه بوجه خال من أي تعبير لبعض الوقت ثم ابتسم وقال: كما ترى يا سيد بوارو فإنني تاجر.

- بالضبط.

- تلك الصورة لا تستحق أكثر من عشرين جنيهاً أبداً، وقد ظننتُ أنني لو عرضت على مادج خمسين جنيهاً قيمة لها فإنها ستشكّ على الفور بأنها تستحق أكثر من ذلك وستأخذها لتقيّمها في مكان آخر، ثم ستكتشف أنني عرضت عليها أكثر من قيمتها الحقيقية بكثير. فإذا ما عرضت عليها مرة أخرى شراء صورة أخرى فستكتفي بما عرضته ولن تقيّمها لدى الآخرين.

- نعم، وبعد ذلك؟

- الصورة تلك على الجدار البعيد هناك تقدَّر قيمتها بخمسة آلاف جنيه على الأقل.

سحب بوارو نفساً طويلا: آه!

ثم قال سعيداً: الآن عرفت كل شيء.

* * *